محمد سعيد رمضان البوطي

منهج الحضارة الإنسانية في القرآن



آفاق معرفة متجددة

www.fikr.com



اللَّهمَّ لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وعليك التُّكلان ، وأفضل الصَّلاة والسَّلام على عبدك ونبيِّك سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وأسألك اللَّهم أن تخرجني من ظلمات الوهم ، وتكرمني بنور الفهم ، وأن تفتح عليّ بمعرفة العلم ، وأن تلهمني شكر نعمك ، وتجعل عملي خالصاً لوجهك . إنَّك يا مولانا سميع مجيب .

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

(١)

حديث الحضارة الإسلاميّة ، هو حديث أكثر الكتّاب والباحثين في هذا العصر ، سواء منهم المسلمون وغيرهم . فأكثر المؤلَّفات التي تظهر ، ومعظم المجلات الفكرية التي تنشر ، تحفل بأحاديث مسهبة ومكررة عن الحضارة الإسلامية ومدى أهميّتها في عصر ازدهارها الغابر .

غير أنَّ جلَّ بحوث هؤلاء الكاتبين ، إنما يتناول من الحضارة الإسلامية بياناً وصفيّاً لمنجزاتها ، وإعجاباً بمظاهرها وآثارها . فما تتوقع منها أكثر من بيان تصويري ـ ربَّما مع قدر كبير من الإطراء والإعجاب ـ لما قد ساد في عصور تلك الحضارة من المعارف والعلوم كالطِّبّ والفلسفة والعمران والصِّناعات ومختلف الفنون الجميلة ..

هذا ما تحدّثك عنه مكتبة الحضارة الإسلاميّة التي تعجُّ اليوم بعشرات المؤلَّفات الضخمة والمتوسطة والوجيزة ، والمقالات المتنوعة الكثيرة ، لكتّاب مسلمين ومستشرقين وغيرهم ، كلها يسلك في معالجة هذا الموضوع ، مسلكاً وصفيّاً أنيقاً ، يقوم في الغالب وسط إطار من مظاهر الدهشة وعبارات الإكبار والإعجاب . وربما جاء كله أو جلّه مقروناً برسوم وصور موثقة ، تزيد من مقتضيات الإعجاب بها والتَّمجيد لها .

وفي يقيني أنَّ هذه الطريقة في الحديث عن الحضارة الإسلاميّة ، من شأنها أن تثير في أذهان القرّاء مشكلات ، بل معضلات ، تصرفهم عن التَّنبُّه إلى دواعي الإكبار لتلك المظاهر الحضاريّة مهما بلغت أهميَّتها وارتفعت قيمتها . فإن القارئ ـ أي قارئ كان ـ سيجد نفسه منجذباً عن التَّأمُّل في روعة تلك الحقائق التّاريخيّة ، إلى التَّساؤل عن السّر

الذي جعل تلك الحضارة الباسقة تدبر بعد إقبال ، وتتحجَّر بعد طول نمو وازدهار !.. ولسوف تحلّ هذه المشكلة في نفسه محلّ الإكبار والإعجاب ، ما دام أنّه لا يجد على تساؤله أي جواب مقنع .

وإني لأذكر كيف أن الكاتبة الألمانية (زيغريد هونكه) ما إن نشرت كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) الذي تضمن استعراضاً جميلاً لمعظم منجزات الحضارة الإسلاميّة ، حتى انهالت عليها أسئلة القرّاء تفد إليها من كلّ صوب قائلة : فبأيّ سرّ ازدهرت تلكَ الحضارة كلّ ذلك الازدهار ، وبأي موجب عادت فذبلت كلّ هذا الذُّبول ؟

وهكذا تبدَّدت جهود عظيمة أنفقتها هذه الكاتبة لإبراز سمو الحضارة الإسلامية في عصورها الغابرة ، وسط ضرام هذا التَّطلُّع الطبيعي الذي لا بدّ أن ينصرف إليه كل قارئ يتمتع بشيء من النَّظر وعمق الفكر .

أمّا ، بماذا أجابت الكاتبة الألمانية عن أسئلة هؤلاء القرّاء ، ومدى قيمة إجابتها في التعبير عن الحقيقة ، فذلك ما سيجده القارئ بتفصيل في مكانه من هذا الكتاب .

على أن من الواجب أن أبادر فأستثني كاتباً مثل مالك بن نبي رحمه الله تعالى ، فقد سلك في بحوثه الكثيرة عن الحضارة الإسلاميّة ، مسلك النّابش عن جذورها الباحث عن صلة ما بينها وبين نفوس أصحابها ؛ إلاّ أنه اتَّجه إلى ذلك من خلال طريق طويل ، جعله يجتاز بالقارئ مراحل نظرية مجرّدة ، قبل أن تأخذ بيده لتدلّه بشكل عملي على المفتاح الضائع الذي يبحث عنه .. ذلك المفتاح الذي إن استعمله فأداره على وجهه ، تفتَّحت أمامه مدارج حضارته الإسلامية التّالدة من جديد ، وأمكنه أن يعود إلى تحقيق دوره في إشادتها ، تماماً كما قد فعل أسلافه من قبل .

وأعتقد أن مظهراً بارزاً لهذا الاضطراب ، يتجلى في البحث الإضافي الذي أضافه مالك بن نبي رحمه الله في طبعة لاحقة ، على كتابه (شروط النَّهضة) وجعل عنوانه :

(أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة) . فقد كان هذا البحث الإضافي بمثابة إجابة منه على أسئلة كثيرة وجهها إليه الشباب ، والطلبة على وجه أخصّ (على حدّ تعبيره) ، تضمّنت في مجموعها رغبة في أن يعود إلى الفصول التي ضمنها التفسير التاريخي لنشأة الحضارة الإسلامية ، بمزيد من الشرح والبيان ، بحيث يتمكَّن الشاب أن يعثر من خلال ذلك على واجبه السلوكي الذي يجب أن ينخرط في القيام به ، ابتغاء النُّهوض بالمساهمة في تجديد الحضارة الإسلامية العظمى ... ولقد شكرهم مالك رحمه الله ، على تطلُّعاتهم هذه ؛ وعقد ، استجابة لرغبتهم تلك ، ذلك الفصل الإضافي في كتابه شروط النّهضة . ولكني أشكّ ، من خلال قراءتي له ، أن يكون وافياً بتطلُّعات أولئك الشباب .

(٢)

لقد كان من أثر هذه الطريقة الوصفية في الحديث عن الحضارة الإسلامية ، أن اتَّجه كثير من الباحثين المسلمين إلى دعم وتصديق ذلك الرأي الجانح الذي تبنَّاه الفيلسوف الألماني (شبنجلر) ، والذي يتلخَّص في دعوى أن للحضارات ، أيّاً كانت ، طاقة كالطّاقة العضوية التي يتمتع بها الإنسان ؛ فهي تنشأ في ضعف ، ثم تتجه إلى القوة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى الضعف فالذُّبول فالموت ؛ وأنها تتدرَّج في هذه المراحل بدافع ذاتي منها . فالبحث عن عوامل خارجية لذلك التَّدرُّج بحث في غير طائل وتفتيش عن مفقود !..

والحقيقة أن التَّمسُّك بهذا الرّأي ، يكاد يكون الملاذ الوحيد ، لمن لم تتكامل لديه معرفة شمولية لبنية هذا الكون ، فعاش وهو لا يتبصَّر شيئاً من السُّنن والقوانين الكونيّة التي يأخذ الله بها عباده طبقاً لما فطرهم عليه . إن رأياً كالذي يذهب إليه (شبنجلر) يغدو حينئذ بمثابة التَّعويض ـ على أقلّ تقدير ـ عن فوات معرفة السِّر الرَّباني ، بالنسبة لأولئك الذين فهموا الأمور على ظواهرها ، ولم يتبيَّنوا سننها وقوانينها التي

أقامها بديع السموات والأرض ، ومكوّن الفطرة الإنسانية على النحو الذي شاء أن يكونها عليه .

أما أن ينجرف في هذا الوهم المسلمون أنفسهم ، وهم الذين يملكون مفتاح هذا اللغز ، ويستطيعون أن يقدموه لمفكّري الأمم والشعوب كلها ، فذلك هو البلاء الذي لا عذر لوقوعهم فيه .

غير أن من أهم الأسباب التي يسَّرت تسلل هذا الوهم إليهم ، انتشار هذا الأسلوب الخطير في الكتابة عن الحضارة الإسلامية وتاريخها ، إلا أنه مع ذلك لا يشكّل معذرة شرعيّة تسوّغ لهم الانسياق في تيار هذا الوهم الباطل الذي لا يتماسك عليه منطق ولا برهان .

فالقرآن كتاب الله وبيانه ، طبقاً لما يستيقنه كل مسلم صادق في إسلامه . وهو يتلى على مسامع المسلمين صباح مساء وفي كل مناسبة ، هذا إن لم يكونوا ممن يؤدّون واجب تلاوته بتدبُّر وتأمُّل بين كل حين وآخر . وهذا الكتاب يظلّ يكرِّر على مسامع المسلمين كلهم سبل تسخير الله الكون لعباده ، ويبيِّن لهم الطُّرق الكفيلة بجعل قيادة الدنيا في أيديهم ، كما يظلّ يعرّفهم على المنزلقات السُّلوكيّة التي تعرّضهم للضَّياع ، وتقصيهم عن مستوى القيادة في عمارة الأرض ؛ ثم يحذِّرهم من الاتِّجاه إليها ، ويهدِّدهم إن هم تساهلوا فانحرفوا عن الجادة بالوقوع في مغبَّتها وسوء عقباها .

فأي عذر لهم في أن يحبسوا أنفسهم (تقليداً لأعدائهم) من حديث الحضارة الإسلامية في تلك البحوث الوصفيّة الميتة ؟.. ثم أي عذر لهم في أن يبحثوا عن موجبات قيام صرحهم الحضاري الأغرّ ، ثم عن أسباب انهياره وتحوُّله إلى أطلال ، فلا يجدوا أمامهم إلا آراء أمثال توينبي وشبنجلر ؟

(٣)

تلك هي واحدة من مشكلات الثقافة الإسلاميّة ، التي يعاني منها واقع الفكر الإسلامي المعاصر . ومنها تكوّن أهم الدّوافع التي حملتني على كتابة هذه الفصول .

وهي قبل أن تكون فصولاً من كتاب ، كانت محاضرات موجزة ألقيتها من الذاكرة ، تباعاً ، في التّلفزيون العربي السوري ، في أمسيات شهر رمضان المبارك من عام (١٣٩٩ هـ) ، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أتلقّى من كثيرين ممن أصغوا إلى تلك المحاضرات ، رغبة شديدة ، في استخراجها كتاباً وافياً بمضمون هذا العنوان : « منهج الحضارة الإنسانية في القرآن » بحيث يجلّي المنهج الذي يرسمه القرآن لإنشاء حضارة إنسانية مثلى ، إذا كان يتضمّن حقّاً منهجاً متكاملاً إلى ذلك .

وأنا على يقين بأن للمشكلة التي بيّنتها في الفقرتين : الأولى والثانية من هذه المقدمة ، أثراً كبيراً في تلك الرَّغبة التي تلقّيتها من الإخوة المستمعين ، كما أن هذه المشكلة ذاتها ، تشكّل العامل الأكبر في انصياعي لرغبة هؤلاء الإخوة ، والعكوف على تأليف هذا الكتاب الذي فرغت من كتابة آخر فصوله ، بحمد الله وتوفيقه ، منذ بضعة أسابيع .

ولست أزعم أن استخراج منهج متكامل للحضارة الإنسانية المثلى ، من كتاب الله عزّ وجلّ ، يتطلّب جهداً كبيراً ، ودأباً متواصلاً ؛ بل الأمر بلا ريب أهون من ذلك . فأصول هذا المنهج ومراحله معروضة بشكل واضح في هذا الكتاب العظيم ، وبوسع من شاء ، من المقبلين عليه تلاوةً وتدبُّراً ، أن يتبيَّنها ويتفهَّمها على أحسن وجه .

ولكني لا أعلم أن هذا المنهج المتكامل ، قد تمَّ إفراغه قبل اليوم ، في أي كتاب أو بحث علمي جامع . وإنما تناول الكاتبون ـ في أرقى ما انتهت إليه معالجتهم لهذا الموضوع ـ علاجات جزئية متناثرة ، للتَّخلص من بلاء التَّخلف ، والصعود مرة أخرى في مدارج الحضارة الإنسانيّة والإسلاميّة المنشودة . والعلاجات الجزئيّة لا تفيد (على

فرض صحّتها) إلا إذا جاءت متساوقة متآلفة ، بحيث يتكوّن منها منهاج علاجي جامع . وهو ما قد رسمه لنا كتاب الله عزّ وجلّ .

(٤)

ثم إن من المهمّ أن نعلم أن جذور الحضارة الإنسانية المثلى ، هي دائماً وفي الوقت ذاته ، جذور للتربية الإنسانية المثلى . إذ الحضارة الإنسانية ليست أكثر من ثمار لجهود التعاون الإنساني ، في نطاق الاستفادة من ذخر الأرض وخيرها ؛ وإنما تتمثل أصول هذا الجهد في منهج تربوي متكامل ، يؤخذ به الإنسان بوصفه فرداً مستقلاً ، وعضواً في جماعة .

وإذا كان القرآن قد وضع بين أيدينا منهجاً متكاملاً لإنشاء هذه الحضارة المثلى ، فمعنى ذلك أنه قد وضع بين أيدينا منهجاً متكاملاً في الوقت ذاته لأصول التربية الإنسانيّة ، وبتعبير أكثر حداثة : إنه قد وضع بين أيدينا نظرية متكاملة للتربية الإنسانية المثلى .

أقول هذا الكلام ، لألفِتَ من خلاله ، نظر أولئك الذين يزعمون أنهم بحثوا ، فلم يعثروا على أصول متكاملة تصلح أن يتكون منها منهج تربوي إسلامي كامل ، أو نظرية كاملة للتربية الإسلامية ، تنبع من منظور كل من الكتاب والسُّنّة ـ : لألفِتَ نظرهم إلى أن هذا المنهج التَّربوي المتكامل موجود . على أن وجوده ليس كما قد يُظن ، أشبه بوجود التِّبر الخفي وسط التّراب الأغبر ، فهو يحتاج إلى جهود خاصة ودراية فنية للعثور عليه ، ثم استخراجه وتجليته أمام الأنظار . لا .. بل هو وجود مكشوف يعلن عن نفسه في صفحات هذا الكتاب الرَّبّاني المعجز . وبوسع كل من يلتفت إليه بما لا يزيد على التَّدبُّر المعقول ، أن يراه أصولاً تربويّة متماسكة متكاملة ماثلة أمامه .

ولكن بلاءنا بهؤلاء الذين يقولون : بحثنا ، فلم نعثر ، أنهم لم يبحثوا قط ، ثم

يظلّون يكرّرون مع ذلك هذه الدعوى في كل مناسبة !.. وكيف نصدق أنهم بحثوا ، وإنّ أحدهم لم يمرّ على كتاب الله تعالى ، قراءةً مستوعبةً له ، مرةً واحدةً في حياته بعد !.. بل إني لا أشكّ أنَّ فيهم من لا يعرف من القرآن الذي ينتمي إليه ، أكثر مما يعرف عن التّوراة والإنجيل ، ولم يعلق بذهنه من آيات ذلك الكتاب ، أكثر مما حفظه من مقاطع هذين الكتابين !..

وهو لو أراد أن يعود إليه بشيء من التَّأمل الجادّ ، لفاجأته فجوة ثقافية مؤسفة ، تجعله لا يقيم لسانه على نطق سليم به ، فضلاً عن أن يملك دراية تعينه على فهم مضمونه وتذوّق معانيه ، ذلك لأنه لم يعرّج من خلال رحلته الثقافية التي اجتازها ، طوال عمره الذي مضى ، على بذل أي جهد دراسي للتَّعرف على حقيقة هذا الكتاب الرَّبّاني أو التَّمرُّس الصحيح بتلاوته .

ثم إنَّه يصرُّ مع هذا كله ، على القول ، بأنه فتَّش فلم يعثر على شيء ، مما يمكن أن يسمّى أصول نظرية تربوية متكاملة في كتاب الله عزّ وجلّ !.. فأنا أقول لهؤلاء الناس (وأظن أن فيهم صادقين في رغبة العثور على منهاج تربوي إنساني متكامل في كتاب الله عزّ وجلّ) : بوسعكم أن تعثروا على هذا المنهج الذي تفتشون عنه ، في فصول هذا البحث الذي أضعه بين أيدي القرّاء ، إن أنتم أقبلتم عليه بدراسة واعية مستوعبة .

فإذا فعلتم ذلك ، وعثرتم على هذا الذي تبحثون عنه ، فقد آن لكم إذن أن تعودوا إلى كتاب الله عزّ وجلّ ، وتشمّروا عن ساعد الجدّ ، لتبدؤوا رحلة ثقافية جديدة ابتغاء التَّعرُّف على حقيقته ومضمونه ، ثم ابتغاء إتقان تلاوته وفهمه ، ثم النُّهوض الجادّ بالمسؤوليات الخطيرة التي يحملكم إياها صاحب هذا الكتاب العظيم ، التزاماً بأحكامه ، وترسّماً لمنهجه ، وسعياً إلى القيام بدورنا الحضاري الذي شرّفنا به ، فقام به أسلافنا على الوجه المطلوب ، وأعرضنا نحن عنه أسوأ إعراض .

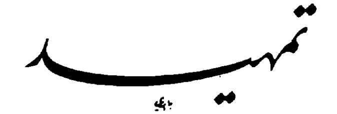
ترى متى يتحقَّق جلّ المسلمين بهذا الأمر ؟.. ومتى يدركون أن ثقافاتهم المختلفة ،

لا قيمة لها في نطاق البحث عن الذات وترسيخ الأصالة المنشودة ، إن لم تنهض أولاً وتتوَّج أخيراً على دراية هادئة جادّة بكتاب ربِّهم الذي يعَلِّمهم كيف يعيشون ، وكيف يتعاملون مع المكونات والإنسان والحياة ؟

سؤال ، ربما كشف عن الإجابة الصحيحة عليه غدٌ مقبل .. وإنَّ غداً لناظره قريب .

محمد سعيد رمضان البوطي

دمشق : ٢٠ جمادى الأولى ١٤٠١ هـ
٢٥ آذار ١٩٨١ م .



الحَضَارَةُ وَعَنَاصِرُهَا



كَيْفَ يُحَمِّلُ القُرْآنُ الإِنْسَانَ مَسْؤُولِيَّاتِ بِنَاءِ الحَضَارَةِ



كَيْفَ يُبَصِّرُ القُرْآنُ الإِنْسَانَ بِعَنَاصِرِ الحَضَارَةِ وَيَدُلُّهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعَاوُنِ مَعَهَا

الحَضَارَةُ وَعَنَاصِرُهَا

لا أرى حاجة إلى الإطالة في تعريف الحضارة على نحو ما يصنع كثير من الكاتبين ؛ على أني لم أقف إلى الآن على تعريف علمي دقيق لها ، على الرَّغم من كثرة ما ظهر من كتابات مختلفة عنها .

وخير للقارئ من هذه الإطالة ، أن أضعه من حديث الحضارة وموضوعها أمام النقطتين التاليتين :

النقطة الأولى : أنَّ مدار الحضارة (مهما تشقق أو اختلف الحديث عنها) على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة وبساطتها ، إلى حياة العمران وتعقيداتها . وإنما تعني كلمة (الحضر) في اللغة ما يقابل المعنى الذي يراد بكلمة (البداوة) ، من حيث المدلول الذاتي لكلٍّ منها وما قد يتبعه من مستلزمات . فالعلاقة بين المعنى اللغوي والقصد الاصطلاحي لكلمة الحضارة واضحة جلية .

ثم إن الحضارة تزداد اتِّساعاً وعمقاً ، كلما ازدادت بأصحابها بُعداً عن طبيعة البداوة ومستلزماتها ، وإيغالاً في المجتمع العمراني ، وتفاعلاً مع آثاره ونتائجه .

النقطة الثانية : أن الحضارة يمكن أن تعرّف انطلاقاً من هذا الأساس ، بأنها : ثمرة التَّفاعل بين الإنسان والكون والحياة[1] .

---

(١) لا يعنيني في هذا المقام أن أعقد أي مقارنة ، بين هذا التعريف ، وتعريفات أخرى للحضارة اعتمدها بعض الكاتبين . ففي ظنّي أن الألفاظ والتعابير مهما اختلفت فلابدَّ أن يكون المعنى المراد واحداً أو متقارباً . ولكني أعجب للتعريف الذي اعتمده الشيخ أبو الأعلى المودودي رحمه الله للحضارة في كتابه (الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها) . فقد اتَّجه في تعريفها اتِّجاهاً غريباً لعلّه تفرَّد به . إذ اعتبر الحضارة مجموعة المبادئ والعقائد والأفكار والأصول التَّربوية التي تثمر لوناً ما من ألوان الحياة

ولا ريب أن أدنى مستويات هذا التّفاعل ، يتمثّل في الجهد الذي يبذله أهل بادية ما ، من أجل تحصين مجتمعهم السائب في قوالب من التخطيط العمراني . وبدهي أن هذا الجهد لا بد أن يعتمد على استغلال العمر ، الذي نعبّر عنه ها هنا بالحياة ، في تسخير مظاهر المكوّنات المختلفة ، المحيطة بنا ، لسعادة الإنسان ورفاهيته .

فالحضارة إذن ، ليست أكثر من ثمرات الجهد الذي يبذله الإنسان ، لاستغلال المكوّنات التي من حوله ، في سبيل تحقيق مقوّمات المجتمع الإنساني ، وبثّ أسباب الخير والسعادة فيه .

وإذن ، فعناصر الحضارة ، أو أركانها الأساسية ، إنما تتمثّل في هذه الكلّيات الثلاثة : الإنسان . الحياة . الكون .

وإنما مركز الثّقل من القصد بالإنسان ، أو الكيان الإنساني ، في هذا المقام عقله وتفكيره ووجدانه .

أما الحياة ، فنقصد بها ، كما قلنا ، العمر الذي يتمتع به الإنسان . ولعل التعبير به أو بالحياة ، أدقّ في الدّلالة على المعنى المطلوب من كلمة (الزمن) . إذ (الزمن) يدلّ على معنى قائم ومستقلّ بذاته ، دون أن يؤخذ بعين الاعتبار أي صلة له بالإنسان ، وإنما المراد هنا ذلك البعد الزَّمني الذي تنبسط على مساحته كينونة الإنسان وبقاؤه متمتّعاً بحياته وفكره . وإنما يعبّر عنه بالحياة أو العمر .

ونقصد بالكون المكونات المتنوعة المختلفة ، الخاضعة لتسخير الإنسان . وهو التعبير العلمي الذي تفرضه علينا الدّقة المطلوبة في الرَّبط بين الألفاظ ومدلولاتها ، بدلاً من

= الاجتماعية بمقوّماتها المختلفة . فالحضارة على هذا صفة للناس والجماعات ، وليست صبغة تبقى على الأرض !.. والحضارة على هذا تزول بزوال الناس المتّصفين بها ، مهما بقيت لها وراءهم من آثار !.. ونحن لا نرى هذا التعريف معتمداً على شيء من المصطلحات والقواعد الاجتماعية المتفق عليها . ولا نرى المبادئ والعقائد والأفكار إلا أسساً ومنطلقات لتكوينها .

تلك الكلمة العمياء التي لا يستبين لها أي حجم علمي يمكن أن يعتمد عليه ، وهي (الطبيعة) . كما أن التعبير بكلمة (التراب) لا يقوم هو الآخر مقام الكون أو المكوِّنات بحال ؛ إلاّ أن تكون من قبيل إطلاق الجزء على الكل (وبتعبير أدق : من إطلاق الجزئي على الكلِّي) . وما أغنانا عن مثل هذه الإطلاقات والتأويلات في نطاق التعاريف والحدود [1] ، ومن الواضح أن الإنسان أهمّ هذه العناصر الثلاثة وأخطرها . إذ هو العنصر الفعال والمؤثر . أما العنصران الآخران ، وهما الكون والحياة ، فمنفعلان ومتأثران . وهذا يعني أن الإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة الدنيا . وذلك بما قد أوتي من نعمة الفكر والبصيرة . أما كل ما عداه مما يراه من حوله ، فأسباب ميسرة نثرت له على قارعة الطريق ، ليراها فيهتدي إلى عظيم جدواها ، ويستخدمها في بلوغ أمانيِّه وغاياته .

فإذا انتهينا من بيان معنى الحضارة والكشف عن عناصرها ، فإنَّ من اليسير علينا أن نتبيَّن الحقيقة التالية :

ليس ثمة أي لزوم بين الحضارة من حيث هي ، وما قد تستهدفه أو يتوقع منها ، من مبادئ الحق والخير للإنسان ؛ فقد تهتدي حضارة ما إلى سبيل هذه المبادئ فتحققها ، وقد لا تهتدي إليها فتتنكّب عنها . إذ هي ليست أكثر من ثمرة الجهود المبذولة من قِبَل الفكر الإنساني ، للاستفادة من هذه الأجهزة الكونية المتناثرة حولنا . أمّا هل يوفق أصحاب هذه الجهود إلى استعمال هذه الأجهزة على وجه مفيد للإنسانية عموماً ، وهل من الممكن أن يتورّطوا في استعمالها على وجه غير مفيد ، وهل تتدخَّل احتمالات الجواب على هذا السؤال في تحديد معنى الحضارة ، أو وضع شروط معينة لاستحقاقها هذا الاسم بجدارة ـ فهذا ما لا شأن لمدلول كلمة (الحضارة) به .

---

(١) يؤثر المفكر الكبير مالك بن نبي رحمه الله ، في كتبه عند الحديث عن الحضارة وعناصرها ، التعبير عن العمر بالزمن ، وعن الكون بالتراب . ونستبعد أن يكون مقصوده بالتراب الأرض وحدها ، وإن تجلّى ذلك (وهو أمر غريب) في كتابه : شروط النهضة ..!!

إذ ربّ حضارة عصفت بسعادة أمّة بأسرها ، وبدّدت مقوّمات أمنها ورخائها ؛ وربّ حضارة رفعت أمّة من الناس إلى أعلى درجات السعادة والرّخاء . مع توفر القاسم المشترك بينهما ، وهو أن كلاً منهما كان ثمرة لتفاعل الإنسان مع الكون والحياة ، بقطع النظر عن تلك الثمرة ، وآثارها ضارّة كانت أو نافعة .

ولعلك تعجب من أن يقال : حضارة ولم تأتِ إلاّ بشرّ !.. ولعلك تقول : وهل يثمر العلم بالكون وسبل الاستفادة منه إلاّ خيراً للإنسانية جمعاء ؟..

فالجواب : أن البلاء الذي تحمله الحضارة للناس ، مردّه إلى أحد سببين :

السبب الأول : رعونات النفس الإنسانية وأهواؤها . فإن من شأنها ـ إذا تركت على سجيتها ـ أن تحمل أصحابها على بسط أسباب الظلم والطغيان ، وإيقاد نيران الشرور والفتن على وجه الأرض . وإنما تصبح الإمكانات العلمية والقدرات البشرية عندئذ ، أسلحة في يد أصحابها ، لإيقاد مزيد من تلك النيران .

السبب الثاني : أنَّ الناس كانوا ، ولا يزالون ، يبحثون عن حقيقة كل من الخير والشّر ، دون أن يعثروا عليها . فقد ضلّوا عنها بسبب وقوعهم في متاهات من المواضعات والأعراف النّسبية ، وبسبب عدم اتّفاقهم على مقاييس ثابتة لمعنى كل من الخير والشَّر . فكان من آثار ذلك أن أصبحت الجهود الحضارية تجارب اجتهادية متناقضة في أكثر الأحيان ، في نطاق السَّعي إلى ما يظن أنه الخير والسعادة للإنسان .

ومن خلال هذين السببين يبرز ما نسمّيه بمشكلات الحضارة ، في تاريخ الحياة الإنسانية . ويتجلّى السّرّ الخفيّ ، في أن المجتمع الإنساني شقيّ (في كثير من الأحقاب) بمساعيه الحضارية وجهوده العلمية ، أكثر من أن يسعد بها .

وتلك هي المشكلة التي لا سبيل إلى حلّها إلاّ بالإصغاء إلى إرشادات خالق هذه العناصر الثلاثة : الكون ، والإنسان ، والحياة . بل هي المظهر الأول لحاجة الإنسان إلى الخضوع للدين الحق ، والانصياع للتعاليم اليقينية الثابتة المنزلة إليه من ربّ العالمين .

ومن هنا ، ونظراً لهذه الحاجة ، رسم القرآن للإنسان منهج الحضارة الإنسانية المثلى ، ودلّه على أقرب الطُّرق إلى تسخير الحياة والكون في سبيل تحقيق السعادة الإنسانية ، بأدقّ معانيها صافية عن عكر الشوائب ومنغصات الآفات .

فكيف يرسم القرآن لنا منهج الحضارة ، ويحذِّرنا خلال ذلك من الوقوع في مغبّاتها وآفاتها ؟

هذا ما سنبدأ الحديث عنه في الفصول الآتية إن شاء الله .

كَيْفَ يُحَمِّلُ ٱلْقُرْآنُ ٱلْإِنْسَانَ مَسْؤُولِيَّاتِ بِنَاءِ ٱلْحَضَارَةِ

رُبَّ سائل يقول :

وما شأن القرآن بالحضارة ومشكلاتها ومذاهبها ، وإنما هو كتاب دين وعبادة ، يذكر الناس بعباداتهم وواجباتهم تجاه ربِّهم !..

والجواب : أن القرآن لم يكن كتاب دين وعبادة ، إلا من حيث إنه يحمِّل الناس جميعاً مسؤولية بناء حضارة .

وبيان ذلك ، أن محور الدين الذي ألزم الله به عباده ، بما فيه من نُسُك وعبادات ، إنما هو تزكية النفس البشرية ، وتطهيرها مما قد يعلق بها عادة من الأدران والأوضار . ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى : ١٤/٨٧] ، وقوله خطاباً لموسى عليه الصلاة والسلام ، وقد أرسله إلى فرعون : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَّكَ إلى أنْ تَزَكَّى ☆ وأهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النّازعات : ١٨/٧٩ـ١٩] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿ ومَنْ تَزَكَّى فَإنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وإلى اللهِ الْمَصيرُ ﴾ [فاطر : ١٨/٣٥] .

وليست تزكية النفس بدورها ، إلا الشرط الأساسي لتحمل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدق وجدّ ، كما سنجد في الفصول التالية . فبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو من كدورات الأهواء والرعونات ، يُخلص صاحبها في تحمّل كل ما يجب أن يتحمَّله في سبيل بني جنسه من المهامّ والواجبات المختلفة . وبمقدار ما تنطوي تلك النفس على شوائبها ورعوناتها ، يغدو صاحبها مجرد أداة للإفساد في الأرض ، ولإهلاك الحرث والنَّسل ، ابتغاء مصالحه وأهوائه الشخصية ، مهما تحلَّى ظاهره بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة .

وإذن ، فالوظيفة التي يحمِّلها القرآن للإنسان في الحقيقة ، إنما هي عمارة الأرض ،

بمعناها الشامل العام . وهي تشمل ، فيما تشمل ، إقامة مجتمع إنساني سليم ، وإشادة حضارة إنسانية شاملة ، ليكون الإنسان بذلك مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمه في الأرض ، ولكن لا بالقسر والإجبار ، بل بالتعليم والاختيار .

وينصّ القرآن في أكثر من موطن على هذه الوظيفة التي حُمّلها الإنسان . فهو يقول : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فيها ﴾ [هود : ٦١/١١] . أي كلّفكم بعمارتها . ويقول : ﴿ وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠/٢] أي خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي . وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه [1] ، ويقول أيضاً :

﴿ ونُرِيدُ أن نَمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرضِ ونَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥/٢٨] ، ويقول :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنكُم وعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النُّور : ٥٥/٢٤] .

فهذه الآيات ـ ومثلها في القرآن كثير ـ تنطوي على تعريف صريح بالمهمة الأساسية التي كُلِّف الإنسان في حياته الدنيوية هذه أن ينهض بها ، ألا وهي تحقيق جامعة إنسانية فعّالة ، في سبيل النهوض بعمارة هذا الكوكب الأرضي العمارة الكلّية الشاملة لكل ما تتسع له كلمة (العمارة) من المعاني الماديّة والعلمية والاقتصادية . ومن هنا شرَّف الله الإنسان الذي قبل النهوض بهذه المهمة على الوجه الذي رسمه الله تعالى له بلقب (الخليفة) ، وأعطاه صفة (الإمامة) وخلع عليه خلعة التكريم .

ولكن لما كان نهوض الإنسان بهذه المهمة ، متوقّفاً على تسامي نفسه فوق ذاتها ، وعلى تخلصها من عكر الآفات الأخلاقية ، وسموم الكبر والأنانية ، رسم الله لهذا المخلوق سبيل رياضة نفسية ، ودورات تربوية تتكفَّل ـ إن هو أخذ نفسه بها ـ بتصفية نفسه

(١) انظر تفسير ابن كثير ٧٠/١ .

من تلك الشوائب كلها ، وتهيئه للنهوض بواجبه المقدس على أحسن وجـه . وإنمـا تمثَّلت تلك السُّبل التربوية والرياضية بما قد ألزمه الله به من المبادئ الاعتقادية ، وسلَّكه فيه من أنواع النُّسك والعبادات التهذيبية ، والفضائل الأخلاقية .

وهكذا يتبيَّن لك ، أن مدار الإسلام (وهو دين الله المطلق لهذه الخليقة الإنسانية منذ نشأتها) على النهوض بعمارة الأرض على خير وجه . وإنما شرع الله فيه مـا شرع من جزئيات الأحكام السلوكيـة أو الإلزامـات الاعتقـاديـة ، تيسيراً للنهوض بهـذا الواجب المقدس على النحو الذي أمر به الله عزّ وجلّ .

ومن أبرز الدلائل على ذلك ، الحقائق التالية :

الحقيقـة الأولى : أن جميـع الأحكام الإسـلاميــة ، على اختـلافهــا ، تـؤول إلى قسمين : قسم يراعى فيه النهوض بحقوق الله عزّ وجلّ ، وقسم آخر يراعى فيـه النهوض بحقـوق العبـاد . وإذا قـارنت بينهما ، رأيت أن القسم الأول ضئيـل جــداً في كميتــه ، بالنسبة لمحتويات القسم الثاني . فجلّ الأحكام الشرعيـة ، يتنـاول رسم حقوق العبـاد ، وبيان كيفية رعايتها ، وسبل ضمانها . وبوسعك أن تتبيَّن هذه الحقيقة لدى الرجوع إلى فهرس أي كتاب فقهي يحوي سائر بحوث الفقه الإسلامي ، بتفصيل أو اختصار .

الحقيقـة الثـانيـة : أن من القواعـد الفقهيـة المتَّفق عليهـا والمسلَّم بهـا ، قولهم : حقوق الله مبنيّة على المسامحة ، وحقوق العباد مبنيّة على المشـاحّـة . أي إن إهمـال شيء من حقوق الله تعالى أو تضييعها ، قد يجبره ويكفِّره مجرد توبة صـادقـة ، تتضمن عزمـاً على عدم الرجوع إلى ذلك الإهمال أو الجنوح مرة أخرى . فإن هو مات عقب ذلك ، آل إلى الله بصحيفة ناصعة بيضاء ، مهما سوَّدتها المعاصي من قبل توبته . أما تضييع شيء من حقوق العباد ـ سواء المعنوية منها والمادِّيّة ـ فلا تجبره التوبـة بحـال ، وإنمـا تجبره معهـا إعـادة الحق المضيَّع إلى صـاحبـه . فـإن هـو مـات ، قبـل أن يردّ إلى أصحـاب الحقـوق

حقوقهم ، أو يستسمِحَهم فيسامحوه ، لم تغنِ عنه توبته من الله شيئاً ، وبقي مثقلاً تحت أوزاره تلك إلى ما شاء الله .

ومعنى هذه القاعدة أن الله لم يحمّل عباده شيئاً من الأحكام التي سمّيت بحقوق الله كالصوم والصلاة والحج والأذكار ونحوها ، إلا لتتزكّى بها نفس المؤمن ـ كما أوضحنا ـ فيتيسر له بذلك سبيل الرعاية المثلى لحقوق العباد .

ويتبيَّن لك من هذا ، أن من ضيَّع حقوق العباد ، ثم وقف متبتِّلاً خاشعاً ، يمارس حقَّ الله من حج وصوم وصلاة ، فقد ناقض الحكمة التي أقام الله شرعته عليها ؛ وكذَّب على الله وعلى الناس ، فيما أسبغه على مظهره من سيما الخشوع والتَّنسُّك . إذ لو كان صادقاً مخلصاً في ذلك ، لتزكَّت نفسه ، فما استساغت هدر شيء من حقوق الناس . وكيف يستسيغ ذلك ، وهو يعلم أن الله ما شرع شيئاً من العبادات التي أمر بها ؛ إلا إيقاظاً للرقابة الإلهية في كيان الإنسان ، كي تحجزه عن مطارح الظلم والأذية للآخرين !..

وما هي حقوق الناس في شرع الله عزّ وجلّ ؟

إنها تتمثَّل في سائر السُّبل والتَّصرفات والمنح التي من شأنها أن تكون عوناً لهم في تحقيق سعادتهم الفردية والاجتماعية ، ضمن نسق من التعاون والتكافل والعدل . وهل الحضارة الإنسانية إلا ثمرة مباشرة لهذه الأسباب والمقومات ؟

الحقيقة الثالثة : أن ما يقارب ثلثي أحكام الشريعة الإسلامية ـ بعد استثناء العبادات ـ إنما يناط تنفيذه بجهاز الحكم في المجتمع الإسلامي ، سواء تمثل ذلك في سلطة الحاكم الأعلى ، كأحكام الإمامة (وهو ما يسمى بأحكام السياسة الشرعية) أو تمثل في سلطة القضاء وهو سائر ما يسمى بالأحكام القضائية . بحيث إذا لم تقم سلطة حكم متكاملة ، على النحو المطلوب ، بقيت هذه الأحكام كلها معلّقة لا مجال لتنفيذها ولا للبتِّ فيها .

لذلك كانت مباحث الحكم والخلافة والإمامة الكبرى والبيعة ، وما يتبعها من المسائل والذُّيول ، من أبرز ما يستأثر باهتمام الشريعة الإسلامية ؛ لأنها المفتاح الذي لا بدَّ منه إلى تنفيذ أكثر الأحكام التي شرعها الله تعالى لعباده .

فلماذا اقتضت الضرورة توسيط جهاز الحكم لتنفيذ هذه الأحكام ورعايتها ؟.. وهلاّ حمَّل الله عزّ وجلّ مسؤولية تنفيذها والنهوض بها للأفراد الذين تعلّقت بهم تلك الأحكام مباشرة ؟

إنَّ الذي اقتضى ذلك ، أن معظم أحكام الشريعة الإسلامية ، إنما يتجه إلى إقامة المجتمع الإنساني ، بكل ما يحتاج إليه من أصول التعاون والتكافل وتنسيق العلاقات والجهود . ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق رقابة جهاز للحكم ، يخوَّل سلطة حماية ، وبسطة نفوذ ، ويمنح من قبل الشارع حقّ السمع والطاعة ، وهو ما شرعه الله عزّ وجلّ ونصَّ عليه بصريح تبيانه إذ قال : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمْرِ مِنْكُم ﴾[1] [النِّساء : ٤/٥٩] .

وأنت خبير أن الشريعة الإسلامية ، لو لم تكن تسعى بالإنسان ـ في جلّ ما تهدف إليه ـ إلى إقامة صرح باسق للمجتمع الإنساني ، قائم على أصلب دعائم العلم ، وأدقّ أُسس الحضارة ، لما حفلت بشيء من مسائل الحكم ونظامه ، ولتركت الناس مع منثورات الأحكام الفردية ، يعكف كل منهم على رعايتها وينصرف إلى تنفيذها ، فيما بينه وبين نفسه[2] .

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بأولي الأمر في الآية علماء المسلمين ، وعزا ذلك إلى ابن عباس رضي الله عنهما . ولكن حتى لو أخذنا بهذا التفسير ، فهي تظلّ دالّة على وجوب إطاعة أولي الأمر من المسلمين . ذلك لأن من شروط الخليفة أو الإمام الأعلى في المسلمين أن يكون قد بلغ من العلم درجة الاجتهاد أو داناها . فقد وجبت طاعته إذن على كل حال ، إن لم يكن لأنه ولي أمر المسلمين ، فلأنه من علمائهم .

(٢) اقرأ تفصيل هذا البحث في فصل (نظام الحكم في المجتمع الإسلامي) من كتاب على طريق العودة إلى الإسلام للمؤلف .

إذن ، فقد انتهينا إلى أن القرآن إنما جاء ليحمّل الإنسان مسؤولية بناء حضارة مثلى ، وأنه ما كان كتاب دين وعبادة ونسك ، إلاّ من حيث إنه مصدر حضارة وباعث نهضة . وإنما يأمر القرآن الناس أن يدينوا لتعليماته في تحقيق هذه الأهداف كلها . والدين إذن ليس كما يتصور الجهلة من الناس ، مجرد صوم وحج وصلاة .. بل هو الدّينونة لكل ما رسم الله لعباده ، من مناهج العلم والاجتماع والسلوك . ألم تسمع قول رسول الله ﷺ فيما صحّ عنه : « الإسلام بضع وسبعون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

☆ ☆ ☆

ولكن هذا الأمر الذي تمَّ إيضاحه ، يثير النظر في سؤال يتطارحه بعض الناس ، وهو : هل الدين جاء من أجل الدنيا ، أم الدنيا قامت من أجل الدين ؟..

ولدى النظرة العجلى إلى هذا الذي أوضحناه ، من أن الإسلام إنما جاء ليحمِّل الإنسان مسؤولية بناء الحضارة ، والنهوض بعمارة هذه الأرض ، يمكن أن يبادر أحدنا فيقول في الجواب : بل الدين جاء من أجل الدنيا ورعايتها !..

ثم لا يعجزه أن يبرهن على صدق هذا الجواب بقوله : هل المجتمع الإنساني الذي ينهض على حضارة باسقة مثلى ، إلا مظهراً نموذجيّاً للدنيا ، بكل ما فيها من مغريات العيش والسعادة والرخاء ؟ وإذا صحَّ أن الإسلام بكل مبادئه الاعتقادية وأحكامه السلوكية وعباداته المختلفة ، إنما جاء لتمكين الإنسان من تحقيق هدفه المنشود ، وهو بناء صرح هذا المجتمع على وجه صحيح ومفيد ، فقد صحَّ لنا أن نقول بحق : إنما جاء الدين من أجل الدنيا وليس العكس .

نعم ، هكذا تقول النظرة العجلى .

ولكن فلنتأنَّ قليلاً ، ولننصت إلى ما يقوله القرآن نفسه في الإجابة على هذا

السؤال يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اسْتَجيبُوا للهِ ولِلرَّسول إذا دَعاكُم لِما يُحْيِيكُمْ .. ﴾ [الأنفال : ٢٤/٨] ، ويقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أو أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً .. ﴾ [النَّحل : ٩٧/١٦] .

ولكنه يقول في الوقت ذاته : ﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ [القصص : ٧٧/٢٨] ، ويقول : ﴿ قُلْ إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢/٦] .

فقد أوضح البيان الإلهي في الآيتين الأوليين ، أنَّ من شاء أن يحرز لنفسه الحياة السعيدة الطَّيبة ، فليجعل من الاستجابة لله ولرسوله في تنفيذ أوامره عزّ وجلّ ، ضمانة وسبيلاً إلى ذلك . وهذا ما قد يجعلنا نتصور أن الدين جاء خادماً لأمر الدنيا .

إلاّ أنه عاد فأمرنا أن نجعل حياتنا كلها ـ بكل ما فيها من نصب ورغد ـ لوجه الله وحده ، بأن نسخرها في سبيل مرضاته ، ونبتغي بها الدَّار الآخرة دون سواها .

وإذن ، فالجواب على هذا السؤال مستخلص من كلا هذين البيانين الإلهيين . وهو : أن الدين في الوقت الذي جاء ضمانة لإصلاح شأن الدنيا والنهوض برعايتها ، ينبه الناس إلى أنهم ليسوا إلا عبيداً مملوكين لله عزّ وجلّ . فواجبهم أن يبتغوا بكل نعمة متَّعهم الله بها بلوغ مرضاته .

ويتمثَّل السَّعي إلى مرضاة الله عزّ وجلّ في درجات ، أدناها تسخير هذه الدنيا العاجلة الفانية . للدار الآخرة وما فيها من سعادة كاملة باقية ؛ وذلك طبقاً لما قد أخبر الله عنه وأمر به . وأعلاها أن يفيض قلبك إجلالاً لربوبية الله وعظيم سلطانه ، مع شعورك بذلّ عبوديّتك وضآلة ذاتك ، فتخصّه وحده بكلِّ سعيك وآمالك ، ولا تشرك به شيئاً من تعلُّق بجنّة أو رهبة من نار . وأدنى مستويات هذه الدرجة العليا أن

تستيقن من نفسك الثبات على تنفيذ أوامر الله والابتعاد عن نواهيه ، حتى لو أعدمت مادة المثوبة والعقاب وانتفت الجنة والنّار[(١)] .

ويترتَّب على هذا أن من اتَّكأ على الدين واستعان به ، لتزداد قدمه رسوخاً في الدنيا ، وليزداد تمكُّناً من نعيمها وأهوائها ، فقد سعى بذلك إلى المكر بالله عزّ وجلّ ؛ وحاشاه أن يُمْكَر به . وإنما شأنه في ذلك ، كشأن كثير من الغربيين الذين آثروا التَّحلّي بالدين والدعوة إليه ، تَذرُّعاً به إلى تحقيق المزيد من أحلامهم الدنيوية وآمالهم الاجتماعية . ولذلك لم يبالوا أن يكون دينهم الذي تعارفوا عليه متناقضاً مع العقل والمنطق والعلم[(٢)] ، كما يترتب عليه أن من فصل الدين عن الدنيا ، ومضى لينفذ أوامر الله - فيما يزعم - في كهوف قاصية ، لا يتعرف على شيء من المسؤوليات الاجتماعية ، والخدمات الإنسانية ، وسبل عمارة الأرض ، فقد عصى الله فيما قد ألزمه وشرَّفه به من مهامّ الخلافة في الأرض والأمر بعمارتها وإقامة شرعة الله عزّ وجلّ في جنباتها .

على أن من أعاجيب العلاقة التي أقامها الله بين الدين والدنيا ، أن من لم يخلص دينه لله عزّ وجلّ ، ولم يجعله في المرتبة الأولى من قصده وهواه ، لا يستطيع أن يخلص في خدمة أمَّته ، ولا أن يَصْدُق في تحقيق مصالحها الدنيوية العاجلة . بل لا بدَّ أن تكون خدمته استغلالاً ، وهدفه أثرة ، وهواه تبعاً لأنانيَّته ؛ ثم إنه يأكل ولا يشبع ، ويطمع دون أن يقنع .

---

(١) يجب أن تعلم أن بلوغ هذه الرُّتبة ، لا تستلزم عزوف صاحبها عن الجنة التي وعد الله بها ، كما لا يستلزم عدم الاستعاذة من النار التي خوَّف عباده منها . بل من كمال عبودية المسلم إذا بلغ هذا المقام ، أن يسأل الله جنَّته ويلحّ في المسألة ، وأن يستعيذ من ناره ويكثر الاستعاذة . غير أن هذا شيء والقصد الذي ينصرف إليه صاحب هذا المقام في عبادته شيء آخر . فكلما تجرَّد القصد في العبادة عن الأغيار ، واتَّجه إلى ذات الله وحده ، لمجرد أنه ربّ يستحق العبادة ، كان ذلك أسمى في باب التوحيد والعبادة والإيمان .

(٢) من أئمة هذا المذهب : هيوم ، وكانت ، وجان جاك روسو ، ووليم جيمس ، وغيرهم .

فإذا كان أفراد الأمّة كلها (أو أكثر أفرادها) على هذه الشاكلة ، فلا بدَّ أن تنمحي مما بينهم الثقة ، وتنتشر فيهم الظِّنَّة ، ثم تتصادم الأهواء والمصالح ، ثم تقوم بينهم ، من جراء ذلك ، الخصومات والأحقاد ، ثم يتحول الخصام إلى تهارج وقتال . وبذلك تتمزَّق الأمة وتذهب ريحها .

وهذا ما سنجلّيه ، إن شاء الله ، في الفصول التالية . وهو لبّ موضوعنا الذي نحن بصدده . وما خطط الله المنهج السليم إلى الحضارة ، إلا صوناً للناس عن الوقوع في هذه الهوة السحيقة !.. وما أكثر ما ابتلعت هذه الهوة أُمماً ، وما أكثر ما سحقت في باطنها حضارات ومدنيّات ، فعادت أثراً بعد عين ، وأصبحت كأن لم تَغْنَ بالأمس .

وما أشدّ عجبي ممن لا يستبين هذه الحقيقة ، ثم يمضي يسخّر الدين للدنيا ، ويقول بملء فيه : إن الدين جاء لرعاية الدنيا لا العكس . دون أن يعلم ما لا يمكن أن يغيب حتى عن الأطفال ، من أن الدين إذا غدا خادماً أميناً لحظوظ النفس ورغائب الدنيا وأهوائها ، فقد عاد هذا الدين المزعوم جزءاً لا يتجزأ من الدنيا ذاتها ؛ إذ لا يمكن أن تكون الحيل والذرائع الدنيوية ، مهما اختلفت مظاهرها وتعدَّدت أسماؤها ، إلا عنصراً من أهمّ عناصر الدنيا وشهواتها . فأين بقيت حقيقة الدين الذاتية المستقلة إذن ؟!..

غير أن الإشكال الباقي في هذا الصَّدد هو :

كيف يتأتى للمسلمين أن يعمروا الأرض ويَشيدوا فوقها الحضارة ويحقّقوا أسباب الرَّخاء والرَّفاه الدنيوي ، إذا كانت الدنيا كلها ظلاً زائلاً في يقينهم ، وإذا كان جلّ اهتمامهم بأمر الدين وشؤون الآخرة ؟!..

هذا ما ستتكفَّل الفصول القادمة بشرحه والإجابة عليه ، إذا أكرمني الله فوفَّقني لإنجاز هذا البحث . إنه خير مأمول .

كَيْفَ يُبَصِّرُ ٱلْقُرْآنُ ٱلْإِنْسَانَ بِعَنَاصِرِ ٱلْحَضَارَةِ وَيَدُلُّهُ عَلَىٰ سَبِيلِ ٱلتَّعَاوُنِ مَعَهَا

هذه المقدمة الثالثة والأخيرة ، تتضمن خلاصة منهج القرآن في رسم أفضل السبل إلى الحضارة الإنسانية المثلى . وليست الفصول القادمة إلا تفصيلاً لهذا الموجز ، وشرحاً لهذه الخلاصة .

إن منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، يتلخَّص في تعريفه الإنسان تعريفاً دقيقاً على كل من ذاته ، وحياته ، والكون الذي يعيش فيه . وقد علمت أن هذه هي أركان أيّ حضارة إنسانية على مرِّ التاريخ الإنساني الطويل . فلا يتعلَّق عمل الإنسان أو الجماعات الإنسانية ، على اختلاف الأحوال والتَّقلُّبات ، إلاّ بها . أيّاً كانت عقيدتها ، ومهما كانت منزلتها في الثقافة والعلم والدراية .

وبتأمُّل يسير ، ندرك أن المقياس الوحيد لسير الحضارة الإنسانية في طريقها السليم ، وإمكان الحصول على ثمارها المرجوّة ، إنما يتمثَّل في مدى المعرفة الدقيقة لهوية كل من هذه العناصر الثلاثة ، والتَّنبُّه إلى الخصائص الحقيقية لكلٍّ منها . إذ بهذه المعرفة يتمكَّن الإنسان من الحصول على تركيبة الجهاز الحضاري الصحيح ، المتآلف من مجموعة هذه العناصر الثلاثة .

إن عملية إنشاء الحضارة ، إنما هي في الحقيقة صورة مكبَّرة جداً ، لأي تركيبة كيميائية يعكف على تحضيرها أي متخصص ، من مجموعة مواد وعناصر معينة ، فكما أن نجاح هذا التركيب فيما يراد أن يتحوّل إليه ، متوقف على معرفة دقيقة لطبيعة تلك المواد وخصائصها وشواردها ، فكذلك نجاح السعي إلى إنشاء الحضارة ، متوقف على معرفة تامة بطبيعة موادّها وعناصرها الأولية ، معرفة لا يشوبها أي خطأ أو وهم .

وماقامت في التاريخ الإنساني حضارات جانحة ، أفسدت بدلاً من أن تصلح ، وأشقت بدلاً من أن تسعد ، مما قد سمعت به من أحوال أمم قد خلت وبادت ، إلا لأن أصحاب تلك الحضارات أخطؤوا في تصور حقيقة كل من الإنسان والكون والحياة ، ثم مضوا يبنون تصرفاتهم وتعاملهم مع الكون والحياة على أساس تلك الأخطاء ، من جراء ذلك إلى النتيجة ذاتها التي يصل إليها من قد أخطأ في فهم بعض المواد الكيميائية ، وضلّ في معرفة طبيعتها وخصائصها ، فاستحضر منها مركباً توهم أنه علاج وشفاء ، فإذا هو قد تحوّل إلى سمّ قتال ، وواضح أن الضرر لم يكن كامناً في ذات المواد وطبيعتها ، ولكنه تكون من طريقة التحضير التي جاءت نتيجة الجهل بخصائصها وسبيل التفاعل المفيد فيما بينها ، فتحول الصلاح فيها من جراء ذلك إلى فساد .

إن الإنسان الذي لا يعلم هويته ، ولا يقف على خصائص ذاته ، جدير به أن يركن إلى عرش وهمي من الجبروت والطغيان ، فهو لا يكاد يحتك بالناس والمكوّنات التي من حوله ، إلا ويتحول معهم إلى ما يشبه شجرتي المرخ والعفار[8] ، كلما احتك غصن منهما بالآخر ، انقدح منه الشرر ، ثم تولدت منه النار ، ثم نشرها الريح إعصاراً ذات اليمين وذات اليسار .

وكذلك الذي عرف ذاته وخصائصها ، ولكنه لم يدرك حقيقة المكونات المنثورة من حوله ، وأخذ ـ بسائق الجهل ـ يؤلّه مظاهرها آناً ، ويراها جملة تحدّيات طبيعية للإنسان آناً آخر ـ جدير به أن لا يهتدي إلى الزمام الذي يمتدّ من أعناق أكثر تلك المظاهر الكونية إلى حيث تطوله يد أي إنسان عاقل متدبّر ، ليمسك به بالطريقة المناسبة ، ثم ليسخّر تلك المظاهر في خدمة الإنسان ومصالحه . بل سيظل شأنه معها (وهو يسميها الطبيعة) شأن الخائف الذليل منها أو العدو المصارع لها .

---

(١) شجرتان تنبتان في أرض الحجاز : إذا قدحت عوداً من إحداهما بالأخرى تولدت منهما النار .

وقل مثل ذلك فيمن عرف ذاته ، وأدرك حقيقة الكون الذي يحيط بـه ؛ ولكنـه لم يقف على سرِّ الحياة التي يتمتع بها ، ولم يعلم شيئاً من مصدرها ومآلها . فإن من الجدير به أن تسلمه الحيرة في شأنها والاضطراب في تصور كنهها ، إلى نوع خطير من الوحشة ضدّ ذاته .. ولسوف يقامر بحياته من حيث يريد أن يسعدها ويمتّعها . ولربما ساقته المقامرة إلى لون من ألوان الموت والانتحار .

ولكن أرأيت إلى الأمة التي أتيح لها أن تجتاز مرحلة قدسية من التأمل والفكر ، عرفت خلالها هوية الإنسان وأصله ومآله ، وأدركت أسرار هذا الكون ونواميسه وخصائصه وسماته ، ثم علمت معنى الحياة التي يتمتع بها وقيمتها ، ومصدرها وعاقبتها ؛ فإن هذه الأمة هي التي تدرك جوانب التَّلاقي والاتِّصال المثمر بين هذه العناصر الثلاثة في الوجود . فما أيسر أن تعمد فتؤلف بينها ، ثم تحدث من مجموعها تركيباً متناسقاً يمدّ الإنسان في ذاته ومجتمعه بأسمى مقومات الخير والإسعاد .



ولكن من هذا الذي يستطيع أن يعرِّف الإنسان على هذه العناصر الثلاثة ، وأن يبصِّره بالوجه السليم لتسخيرها والاستفادة منها ، تبصيراً دقيقاً مطابقاً للحقيقة وواقع الأمر ، دون أن يشوبه خطأ أو وهم ؟

إنَّ من اليسير أن تعلم الجواب على هذا السؤال من خلال التَّأمُّل في سؤال آخر مشابه لهذا السؤال . وهو :

ما هو سبيل التَّعرف على جهاز جديد وصل لتوِّه إلينا من المعمل الذي أنتجه ، ومن الذي يمكن أن يبصِّرنا بكيفية استعماله وطرق صيانته على الوجه الصحيح .

مما لا ريب فيه أن الذي يملك أن يعرِّفنا على هذا الجهاز وطريقة استعماله ، إنما هو مدير المعمل الذي أنتجه أو الشركة التي استقلَّت بإبداعه وإنتاجه . ولذا فإن من

المنطقي والضروري أن لا يصل إليك مثل هذا الجهاز ، إلا مصحوباً بالكتيب الذي يحوي تعريفاً مبسَّطاً لأجزائه وكيفية تركيبها ، ثم كيفية استعماله وطرق صيانته .

هل تجد من فرق في هذا المبدأ المتَّبع المعروف ، بين هذا الجهاز ، والأجهزة الثلاثة التي نتحدث عنها ، والتي لا تستقيم نشأة الحضارة الإنسانية إلا عليها ؟

إن الذي يملك أن يعرّف الإنسان على هوية كلّ من : الإنسان ، والكون ، والحياة ، إنما هو ذاك الذي استقلَّ بإبداعه وصنعه ، ثم وضع في كلٍّ منها قابليّته وأقامه على مهمَّته ووظيفته !.. فمن هو غير الفاطر الحكيم عزّ وجلّ ، ذاك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً ؟

وقد شاء هذا الفاطر الحكيم ، أن يحمِّل الإنسان مهمة عمارة الأرض كما أوضحنا ذلك من قبل ، وأن يكلِّفه بتسخير كثير من المكوِّنات التي من حوله ، والحياة التي تخفق بين جوانحه ، في سبيل إنجاز المهمة التي كُلِّف بإنجازها .

فكيف يسعى ، وكيف ينهض إلى أداء هذه المهمة ، ومن أين له أن يعرف خصائص هذه العناصر الثلاثة التي لا بدَّ أن يستعين بها ، وهو ذاتُه واحد منها ؟

ولكن الله عزّ وجلّ لم يتركه لجهالته وحيرته ، ولم يدعه لأوهامه وتخيُّلاته ، بل قرن له مع هذه العناصر التي كلّف بتسخيرها ، كتاباً مفصَّلاً غير ذي عوج ، يعرفه فيه على هذه الأجهزة الخطيرة واحداً واحداً ، ويهديه إلى كيفية استعمالها وإلى أفضل السُّبل للاستفادة منها .

فماذا بقي إذن ؟

بقي أن يقبل الإنسان ـ وهو سيِّد هذه العناصر ومحرِّكها ـ إلى هذا الكتاب ، فيتأكَّد قبل كل شيء بالبراهين العلمية ، أنه منزل من لدن هذا الفاطر الحكيم ذاته ؛ ثم يعكف عليه في تأمُّل وتدبُّر .. فسيتبيَّن في أعقاب ذلك حقيقة الإنسان ووظيفته في

هذه الحياة ، ومخاطر المسؤولية التي يتحمَّلها ، وسيعرف وجه العلاقة بينه وبين هذه الدنيا التي تحفُّ به من كل الجهات ، وسيدرك قيمة العمر الذي يتمتع به وكلاً من مبدئه ومنتهاه .

فإذا عرف الإنسان ذلك كله ، فقد آن له عندئذ أن يشمِّر عن ساعد الجدّ ، وأن يقبل إلى أداء المهمة المقدّسة التي شرَّفه الله بها من دون المخلوقات كلها ، متعاوناً مع إخوانه من بني جنسه ، ملتزماً المنهج الذي رسمه له هذا الكتاب .

وما من ريب أنه إن فعل ذلك ملتزماً بالتوجيهات التي أمامه ، مؤمناً بالمنطلقات التي أقيمت له في أول الطريق ، فلسوف يجري الله على يديه خيراً لا نهاية له ، ويخلق له من وراء جهوده سعادة لا يشوبها شقاء ، ولسوف يصدق فيه ، مع سائر إخوانه السائرين على منواله وعد الله عزّ وجلّ :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم وعَمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم ، ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذي ارْتَضى لَهُمْ ، ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً ... ﴾ [النُّور : ٥٥/٢٤] .

ألم يأنِ لنا إذن ، وقد علمنا هذا كله أن نبدأ فعلاً فنعكف على دراسة منهج الحضارة الإنسانية كما يرسمه لنا هذا الكتاب .. وقد سبق أن آمنّا بأنه منزل من قِبَل ربِّ العالمين وفاطر السماوات والأرض ، خطاباً للصَّفوة المختارة من خلقه ؛ وأن نتعرَّف من خلال ذلك على هوية كل من الإنسان والكون والحياة وخصائصه وسماته ، وعلى السبيل الأمثل لتحضير مركب حضاري سليم من مزيج التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة ؟

لا ريب أن جواب القارئ الموضوعي المفكر هو : بلى لقد آن ذلك . ولا أظن إلا أن حوافزنا وأفكارنا مهيّأة الآن للإقبال على ما يقوله لنا القرآن في هذا الصَّدد .

على أن هذا القرآن ما أُنزل على الإنسان إلا ليزوِّده بهذه المعرفة ، ليهديه من

ورائها إلى كيفية استعماله لهـذه المرافق والاستفـادة منهـا على خير وجـه ؛ ثم ليتَّخـذ من عمارة هذه الأرض وبنيانها الحضاري ، صراطاً معبَّـداً ذَلولاً إلى التَّحقُّق بمعـاني العبوديـة لله تعالى سلوكاً واختياراً ، كما قد فطر على هذه العبودية قهراً واضطراراً .

منهج الحضارة الإنسانية في القرآن

مَنْ هُوَ ٱلإِنْسَانُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

مَا هِيَ ٱلْحَيَاةُ ٱلإِنْسَانِيَّةُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

مَا هُوَ ٱلْكَوْنُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

مَا هِيَ ٱلْمَعْرِفَةُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

مَنْ هُوَ الإنْسَانُ في القُرآنِ ؟

قلنا في إحدى مقدّمات هذا الكتاب : إن الإنسان هو أهم العناصر الثلاثة التي تنبثق الحضارة الإنسانية من تآلفها وتفاعل ما بينها . ذلك لأنَّ الإنسان هو العنصر المؤثر الفعّال ، أما الآخران ، فمنفعلان ومتأثِّران ؛ ولأن الإنسان هو محور العمارة الكونية في هذه الحياة ، وهو الهدف من ورائها . أما كل ما عداه ، فأسباب ميسرة نثرت له هنا وهناك ، ليراها أمامه فيستعين بها ويستخدمها في بلوغ آماله وتحقيق رسالته .

من أجل هذا يحفل القرآن بالإنسان ، كما لا يحفل بغيره . فهو يبدأ قبل كل شيء بتعريف الإنسان على ذاته ؛ ترى ذلك واضحاً فيه سواء من حيث أسبقية الترتيب أو النزول .

ألا ترى إلى أول آية قرآنية من حيث النُّزول ، كيف بدأت فاتَّجهت إلى الإنسان تعرّفه على ذاته ، وتشرح له أصله ومصدره ، وهي قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ☆ خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ٩٦/١ـ٢] .

ثم انظر إلى أوائل الآيات القرآنية من حيث الترتيب الكتابي ، كيف بدأت هي الأخرى بالحديث عن الإنسان ، فقسمته إلى مؤمن وجاحد ومنافق ؛ ثم خاطبت هؤلاء الأقسام جميعاً فعرَّفتهم على هويّاتهم ، وأنبأتهم بقصة نشأتهم فوق هذه الأرض ، وكيفية خلق الله لأبيهم آدم عليه الصلاة والسلام ، والمنزلة الكريمة التي أنزله الله إياها من بين سائر مخلوقاته ، والتكريم الذي مَنَّ عليه به حتى على ملائكته .

وهكذا بدأ القرآن ، قبل كل شيء ، وحسب أسبقية كلٍّ من الترتيب الكتابي والنزول الزَّمني ، بتعريف الإنسان على ذاته وتبصيره بأصله وخصائصه ، ومدى أهميَّته وخطورته في هذا الكون الذي يعيش فيه ... وذلك لأنه أهم العناصر الحضارية

وأخطرها ، ولأنه المحور الذي تدور عليه حركة معظم الموجودات المتاوجة من حوله ، ولأنه هو الذي سيكلّف بتسييرها وتسخيرها نحو هدف جدّ عظيم وخطير .

إذن .. فمن هو الإنسان في القرآن ، وما هي مزاياه وسماته ، وما هي مسؤولياته الكبرى في الحياة ؟

ولدى التّأمُّل ، نجد أن القرآن يبصِّر الإنسان بحقيقته وبمختلف مزاياه ، وبمهمَّته في الدنيا ، من خلال تبصيره بحقيقتين اثنتين ، داخلتين في قوامه وتركيبه الإنساني ، وبينهما ـ في الظاهر ـ ما يشبه التناقض أو التَّشاكس .

الحقيقة الأولى : أنه مخلوق تافه ، أصله الأول من تراب ، وسلالته من ماء مهين ، والشّأن فيه ، إن طالت به الحياة ، أن يعود إلى أرذل العمر ، فلا يعلم ـ بعد علم ـ شيئاً . ويغلب عليه ، مع ذلك ، أن يشمخ بأنفه ، ويستكبر على الرغم من ذلِّه ، وأن يخاصم ويعاند ، ويجادل ويكابر .

وإليك طائفة من الآيات التي تبصّر الإنسان بمظاهر هذه الحقيقة في ذاته :

ـ ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ ☆ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دافِقٍ ☆ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائِبِ ﴾ [الطَّارق : ٨٦/٥ـ٧] .

ـ ﴿ قُتِلَ الإنْسانُ ، ما أكْفَرَهُ ☆ مِنْ أيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ ☆ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ☆ ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس : ٨٠/١٧ـ٢٠] .

ـ ﴿ إنَّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أمْشاجٍ نَبْتَليهِ ، فَجَعَلْناهُ سَميعاً بَصيراً ﴾ [الدَّهر : ٧٦/٢] .

ـ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنْسانُ أنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ ﴾ [يس : ٣٦/٧٧] .

ـ ﴿ فإنَّا خلَقْناكُم مِّنْ تُرابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ . ونُقِرُّ في الأَرْحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغوا أَشُدَّكُم ومِنكُم مَنْ يُتَوَفَّى ، ومِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ ، لِكَي لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [الحج : ٢٢/٥] .

أما الحقيقة الثانية : التي تشكل الجزء الآخر من الهوية الإنسانية في القرآن ، فهي أن الإنسان هو ذلك المخلوق المكرَّم على سائر المخلوقات الأخرى ، وأنَّه ذاك الذي استأهل أن يكلِّف الله الملائكة بالسُّجود له ، متمثِّلاً في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام ، وأنه الذي شرَّفه الله بالخلافة على هذه الأرض ، عندما شاء أن يجعله ـ بالمهمة التي حمَّله إياها ـ مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمه ، وأنه الحيوان الوحيد الذي جهَّزه الله بالعقل والتفكير والقدرة على إدارة الأمور .

وإليك طائفة من الآيات التي تبصِّر الإنسان بمظاهر هذه الحقيقة الثانية في كيانه :

ـ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ ، وحَمَلْناهُمْ في البَرِّ والبَحْرِ ، ورَزَقْناهُمْ مِّنَ الطَّيِّباتِ ، وفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً ﴾ [الإسراء : ١٧/٧٠] .

ـ ﴿ وَإذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ ، فَسَجَدوا إلاَّ إبليسَ ﴾ [البقرة : ٢/٣٤] .

ـ ﴿ وَإذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جاعِلٌ في الأَرْضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة : ٢/٣٠] .

ـ ﴿ وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ على الْمَلائِكَةِ فَقالَ : أنْبِئوني بِأَسْماءِ هؤلاءِ إنْ كُنْتُم صادِقِينَ ، قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العَليمُ الْحَكيمُ ﴾ [البقرة : ٢/٣١ـ٣٢] .

ـ ﴿ عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٩٦/٥] .

ـ ﴿ إنَّا عَرَضْنا الأمانَةَ عَلى السَّمواتِ والأرْضِ والجِبالِ ، فَأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْها وحَمَلَها الإنْسانُ ، إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢/٣٣] .

☆ ☆ ☆

ولا بدَّ لنا أن نتساءل الآن : فكيف تآلفت هاتـان الحقيقتـان ضمن هويـة واحـدة للإنسان ؟.. ومـا وجـه تركيز القرآن على كلٍّ منهما ؟.. ومـا هو أثر تنبيـه الإنسـان إلى اتِّصافه بكلتا هاتين الحقيقتين ؟..

☆ أما كيفية تآلفهما ضمن الهوية الإنسانية الواحدة ، فوجه ذلك أن الإنسـان ، مهما بلغت مرتبته من السُّمو ، ومهما اتَّصف به من المزايا والصفـات النـادرة ، فليس شيء من ذلك نابعاً من ذاته ، ولا هو اكتسبه أو شيئاً منه بجهده واستقلال طاقته ؛ وإنما جـاءه كل ذلك فيضاً من الله عزّ وجلّ ، وأمانة استودعت عنده إلى أجل . أما تكوينه الـذاتي فمن تراب تـافـه ، ثم من مـاء مهين ، ثم هو مخلوق عـاجز ، في قبضـة الله وحكمـه . قـد أطبقت عليه آصار العبودية لمن بيده خلْقه وتدبيره ؛ إن لم يقرّ بـذلـك لسـانـه طوعـاً ، آمن به كيانه وواقع حاله قسراً .

غير أن الله عزّ وجلّ ، لما شاء أن يختاره لعمارة هذه الأرض ، وكلَّفـه بتـأليف أسرة إنسانية تقف تحت سلطـان العبوديـة لله عزّ وجلّ ، وتقيم حيـاتهـا على منهج الشريعـة الرَّبانيّة ، لتكون بـذلـك مظهراً لعـدالـة الله تعـالى في الأرض ـ جهّزه بملكات نـادرة ، وميَّزه بصفات سامية لم توجـد في غيره . فـأورثـه العقل والتفكير ، وسخَّر لـه كثيراً من الحيوانات والمخلوقات ، وغرس في كيانه شعور حبّ الذات والإحساس بالأنانيّة ، وحبّ التَّملك واحتياز الأشياء ، وأمدَّه بالطاقة والقوة .

هذه الصفات ليست في حقيقتها إلا ظلالاً وفيوضات من صفـات الرُّبوبيـة ، أنعم الله بهـا على هـذا المخلوق ليستعين بهـا في أداء رسـالتـه ، ولتيسر لـه السبيـل إلى تحقيـق

خلافته على الأرض ؛ فينشئ فوقها الحضارة الإنسانية المثلى التي حمَّله القرآن مسؤولية إنشائها في قوله : ﴿ هَو أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الأرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فيها ﴾ [هود : ٦١/١١] .

وإذن ، فالإنسان ، في كينونته الذاتية عبد مملوك لله عزّ وجلّ ، خلق من ضعف وينتهي إلى ضعف . ولكنه نظراً للرسالة التي حمّلها ـ يتمتع بصفات نادرة جهَّزه الله بها ، فاستأهل بموجبها الرفعة والتكريم ، إن هو استعمل تلك الصفات على وجهها . وهذه الصفات التي متَّع الله بها الإنسان وكانت مناط رفعته وتكريمه هي المعنيّ بالأمانة في قوله عزّ وجلّ :

﴿ إنّا عَرَضْنا الأمانَةَ على السَّموات والأرْضِ والجِبالِ ، فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنها ، وحَمَلَها الإنسانُ ، إنَّهُ كانَ ظَلوماً جَهولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢/٣٣][1] .

☆ وأما وجه تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين معاً ، والاستمرار في تذكير الإنسان بضآلته وتفاهة أصله ، إلى جانب تذكيره بالمكانة التي يتبوؤها ، وبأهمية وجوده وخطورة الصفات النادرة التي ركبت فيه ، والوظيفة التي كلّف بالنهوض بها : فلأن رجل الحضارة الإنسانية في القرآن ، هو ذاك الذي رُبِّي في ظلال هاتين الحقيقتين معاً ، وعاش يستلهم غذاءه التربوي من معرفة أصله وحقيقته وضآلة شأنه وذلّ نهايته ، ثم من معرفة ما قد أنعم عليه الخالق عزّ وجلّ ، مع ذلك ، من صفات وملكات نادرة ، وما قد أكرمه به من سموّ في الرتبة والمكانة ، وما شرّفه به من مسؤولية إنشاء الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض .

فمن عاش لا يتبصَّر من ذاته إلا مظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها وهوانها ، جدير به أن يركن إلى ضعف يجعله ضحية طغيان الجبابرة والمتكبّرين ، ويبعده عن إنجاز أيّ عمل أو خدمة إنسانية مما قد حمله الله تعالى مسؤولية النهوض به ، ويقعده عن أي مساهمة في سبيل عمارة الأرض وإنشاء الحضارة الإنسانية المطلوبة .

---

(١) انظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية للمؤلف : ص ٥٦ وتفسير العلامة الخنجواني في هذه الآية .

ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته إلاّ أنه الإنسان المكرَّم الذي يملك من المزايا والصفات ما يخوله أن يبسط لنفسه حكماً وسلطاناً على كل ما حوله ومن دونه ، جدير به أن يسكر بنشوة تلك الصفات التي سبق أن قلنا ؛ إنها ليست في أصلها سوى فيوضات إلهية وظلالٍ لصفات الرُّبوبية ، ثم أن يجعل من نفسه حاكماً من دون الله عزّ وجلّ ، يبسط قهر ربوبيته الزائفة على سائر المستضعفين !..

وبالجملة ، فإن الشأن فيمن لم يتنبه ـ في يقظة عقلية وشعور وجداني صحيح ـ إلى مجموع هويته وذاتيته الإنسانية الجامعة بين هذين الشطرين ، كما أوضحنا . أقول : الشأن فيه أن يتطرَّف إمّا إلى سبيل التكبُّر والطغيان على الآخرين ، إن سنحت له الظروف وأمكنته الفرصة ، وإمّا إلى سبيل من المهانة والخنوع ، إن خانته الظروف وخيَّبته الفرص والآمال . ومن هذين السبيلين يتحقق ما يسميه البيان القرآني : الإفساد في الأرض .

بل تلك هي آفة الحضارة الجانحة التي نقرأ عنها في بطون التاريخ ، أو نجد بقاياها وأطلالها منثورة على جنبات الأرض ، وتلك هي قصة الفساد أو الإفساد في الأرض .. ذلك الإفساد الذي يظل القرآن يكرر الحديث عنه ، ويكثر التحذير منه ، ويلفت نظر الإنسان إلى مغبّات التَّورط في أسبابه ، وينبِّه إلى الرَّزايا والمصائب التي لا بدّ أن يتحمَّلها على أعقابه .

فما فسدت هذه الأرض يوماً ما بعادية من عوادي الطبيعة ، ولا بسوء أَلَمَّ بها من هياج الحيوانات والوحوش ؛ وإنما استشرى فيها الفساد وأَلَمَّ بها البلاء ، يوم تاه بنو الإنسان عن هويّاتهم وواقع أحوالهم وحقيقة خصائصهم البشرية . فتألَّه الأقوياء ، وذلّ الضعفاء ؛ وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته : ذاك نحو التعالي والتجبُّر في الأرض ، وهذا نحو الخنوع وتقبُّل الهوان . فمزقت بذلك مما بينهم آصرة التعاون ، وهاجت فيهم عوامل البغضاء ، ثم انتشر فيهم وباء التَّهارج والقتل . فتمَّت بذلك قصة

الفساد في الأرض . وهي قصة قديمة وحديثة ، تتكرر بتكرر عواملها وأسبابها ؛ والمهم أن تعلم أنَّ الأسباب هي الأسباب ذاتها ، وأحداث القصة هي الأحداث ذاتها ، مهما تطورت الدنيا ، واختلفت المدنيات والثقافات ؛ وأن تعلم أن سبيل الوقاية منها هي السبيل ذاته ، ذاك الذي رسمه القرآن ، وأفاد منه كل من تفهَّمه ووعاه ثم طبَّقه كما وعاه ، وهو السبيل الذي نحن بصدد شرحه وبيانه في هذا الكتاب .

☆ ☆ ☆

وأما أثر هذا التَّنبيه المستمر من القرآن ـ في خطابه الإنسان ـ إلى اتِّصافه بكلتا هاتين الحقيقتين : العبودية الذليلة الخاضعة لسلطان الله ، والتكريم المنبثق عن الرسالة التي شرَّفته بها مشيئة الله ـ نقول :

أما الأثر الذي يتركه هذا التنبيه المستمر الذي نلاحظه في القرآن ، فيتمثل فيما يلي :

إنَّ من شأن الذي ربيت أحاسيسه ونفسه على كلا هذين الغذاءين ، أن تتنامى في كيانه وتحت سلطانه مشاعره ووجداناته ، هويته الإنسانية الكاملة ؛ فلا يتصرف إلا بوحي من هذه الهوية التي آمن بها أتمَّ ما يكون الإيمان ، ثم هيمنت على عواطفه ودوافعه السلوكية في سائر التقلُّبات والأحوال .

ولا بدّ أن تقيه هذه التربية القرآنية عندئذ عن الشرود إلى أي تطرُّف أو جنوح ذات اليمين أو ذات اليسار . فلا هو يركن إلى الخنوع والذُّلّ للآخرين ، مهما تجمعت عليه أسباب الضعف أو مظاهر الفقر والهوان ، ولا هو يطمح إلى شيء من التسلُّط والبغي والطغيان ، مهما أُتيح له أسبابها وتفتحت أمامه سبلها .

وما أدركت أمةً من الناس هذه التربيةُ القرآنية ، إلا وارتفع المستضعفون فيها عن مناخ الذّل الذي كان يشدّهم إليه ، ونزل المستكبرون منهم عن عروش تسلُّطهم

وطغيانهم ، ثم تلاقوا جميعاً على سبيل معتدل من التآخي والتعاون ، ابتغاء عمارة الأرض وإنشاء حضارة إنسانية سليمة فوقها . وهؤلاء الذين اصطبغوا بهذه التربية القرآنية ، هم رجال الحضارة الإنسانية وجنودها وهم المهيؤون لإنشائها في قرار القرآن وحكمه .

وإذا تأمَّلت خطاب القرآن للإنسان ، وما يتضمَّنه من تبصرة وإرشاد وتعليم ، رأيت ذلك كله يدور على محور هذا الهدف . فهو يهيب بالإنسان أن يبدأ فيدرك هويته ويتعرف على ذاته ، ثم أن يقيم سلوكه على أساس منسجم ومتين مع هذه المعرفة : فلا يذلّ أو يهون لغير من بيده حياته وموته ونفعه وضرّه ، ولا يرتدي كسوة الكبر والطغيان وهو يعلم أنه ليس إلا عبداً مملوكاً لسيِّده ومولاه ..

ثم إن القرآن يدلُّ الإنسان على العلاج الذي يحرِّره من قبضة الذُّل والخنوع ، ويوقظه من سكرة الكبر والطغيان ؛ ولسنا الآن في معرض الحديث عن هذا العلاج وكيفية استعماله .

ولكننا نختصر فنقول : إن الدين في مجمله وتفصيله ، ليس إلا الوصفة العلاجيّة الواقية أو الشافية من كلا هذين الوباءين اللذين لم يوجد أشدّ منهما فتكاً في جسم المجتمع الإنساني أو الحضارة الإنسانية .

انظر إلى حديث القرآن ، وهو يلخص لك مصيبة قوم فرعون به ، مستخرجاً بذلك العبرة لمن بعدهم من الأمم والجماعات ؛ وذلك عندما يحدّثنا عنهم قائلاً :

﴿ إنَّ فِرعَونَ عَلا في الأرضِ ، وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِّنهُم . يُذَبِّحُ أبْناءَهُم ويَسْتَحْيِي نِساءَهُم إنَّه كانَ مِنَ الْمُفْسِدينَ ☆ ونُريدُ أن نَمُنَّ على الَّذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرضِ ونَجْعَلَهُم أئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوارِثينَ ☆ ونُمَكِّنَ لَهُم في الأرضِ ، ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهُما مِنهُم مَّا كانوا يَحْذَرونَ ﴾ [القصص : ٢٨/٤-٦] .

فالمصيبة تتلخص في علوّ فرعون وطغيانه ، مع خنوع قومه وذلّهم له . وإنما الذي يعالج جملة هذه المصيبة أن يصحو كل طرف إلى ذاته ، ويتعرف على حقيقته ، وأوله ومآله ، وإذا الطغيان يتحوّل ليناً وخضوعاً ، والخنوع يصبح عزّةً وشموخاً . ثم يتلاقى التعاون الحقيقي لبناء المجتمع الإنسان الرَّخيّ من تناسق هذين الطرفين .

وانظر إلى تصوير القرآن لثمرة هذا العلاج ، وسرعة ظهورها وانبثاقها ، وهو يحدثنا عن التَّحول السريع الذي طرأ على حال سَحَرة فرعون ، عندما آمنوا بنبوّة موسى عليه الصَّلاة والسَّلام ، وتنبَّهوا من ذلك إلى حقائقهم وعرفوا هويّاتهم ؛ وقد كانوا من قبل ذلك مثال الذُّل والمهانة بين يدي فرعون . حتى بلغ من تفانيهم له أن أنكروا وجودهم وعملهم أمام جبروته وسلطانه ، وقالوا وهم يلقون بحبالهم أمام موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنّا لَنَحْنُ الغالِبونَ ﴾ [الشُّعراء : ٤٤/٢٦] ، أقول : فانظر إلى تصوير القرآن لكيفية تحوُّلهم عن وهدة هذا الذُّل العجيب بتأثير هذه اليقظة الإيمانية التي يهديها القرآن إلى كلِّ ذي لبّ وفكر ، وتأمَّل فيما يقوله عنهم :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً ، قالوا آمَنّا بِرَبِّ هارونَ وموسى ، قالَ آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ أن آذَنَ لَكُم . إنَّهُ لَكَبيرُكُمُ الَّذي عَلَّمَكُمُ السِّحَر ، فَلأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وأرْجُلَكُم مِّن خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُم في جُذوعِ النَّخْلِ ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشَدُّ عَذاباً وأبقى ☆ قالوا لَن نُّؤْثِرَكَ على ما جاءَنا مِنَ البَيِّناتِ والَّذي فَطَرَنا ، فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ إنَّما تَقْضي هذهِ الْحَياةَ الدُّنيا ، إنّا آمَنّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وما أكْرَهْتَنا عَلَيهِ مِنَ السِّحْرِ واللهُ خَيرٌ وأبقى ﴾ [طه : ٢٠/٧٠ـ٧٣]

فلقد تحوّلوا في ساعة واحدة من الذُّل المتناهي الذي جعلهم ينكرون وجودهم أمام سلطان فرعون وقوته الوهمية ، إلى أعلى مرتبة من التَّسامي فوق كبريائه ، والانعتاق المطلق من قيود طغيانه ، حتى لم يعد لتهديده الصاعق وغضبه المزمجر أي تأثير على نفوسهم .. نفوسهم التي اكتشفت حريتها منذ اللحظة التي اكتشفت فيها ذاتها

وعبوديتها لله عزّ وجلّ . ألا ترى كيف قالوا له دون أي خوف أو مبالاة بتهديداته : ﴿ .. فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ ، إنّما تَقْضي هذهِ الْحَياةَ الدُّنيا ﴾ [طه : ٧٢/٢٠] . وهم الذين قالوا قبل قليل أذلاّء ضارعين : ﴿ بِعِزَّةِ فِرعَونَ إنّا لَنَحْنُ الغالِبونَ ﴾ [الشُّعراء : ٤٤/٢٦] .

وما يحدثنا القرآن عن أمة حاق بها الهلاك والدَّمار ، إلا ويخبرنا بأن مصدر ذلك فيها ، هو ضياع تلك الأمة عن رشد التَّعرف إلى ذاتها وحقيقتها ، إذ استوجب ذلك أن تتصدع بالتدريج إلى فئتين : أقلية مستكبرة باغية ، وأكثرية ذليلة مُستَضعَفة . فانبثقت من ذلك أسباب التَّمزق والدَّمار في حياتها ، ونزل بها قضاء الله الذي لا مردَّ له ؛ قراراً عدلاً ، وجزاءً وفاقاً ؛ ثم لم ينجُ منها إلا أولئك الذي استيقظوا إلى نفوسهم ، وتنبَّهوا إلى هويّاتهم ، فساقهم ذلك إلى قصد السبيل .

انظر إلى ما يقوله بيان الله تعالى عن قوم صالح ، وكيف يدير قصة هلاكهم على محور الاستكبار من جانب والضعف من جانب آخر : ﴿ قالَ الْمَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَروا مِن قَومِهِ للَّذينَ اسْتُضْعِفوا لِمَن آمَنَ مِنهُم أتَعْلَمونَ أنَّ صالِحاً مُّرسَلٌ مِّن رَبِّهِ ، قالوا إنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنونَ ، قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَروا إنّا بِالَّذي آمَنْتُم بِهِ كافِرونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥/٧ـ٧٦] .

وانظر إلى ما يقوله عن قوم شعيب : ﴿ قالَ الْمَلأُ الَّذينَ اسْتَكْبَروا مِن قَومِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيبُ والَّذينَ آمَنوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنا أو لَتَعودُنَّ في مِلَّتِنا ، قالَ أَوَلَو كُنّا كارِهينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨/٧] .

وإلى ما يقوله عن سبب هلاك فرعون وقومه : ﴿ فَاسْتَخَفَّ [١] قَومَهُ فأطاعوهُ ، إنَّهُم كانوا قَوماً فاسِقينَ ☆ فَلَمّا آسَفونا انْتَقَمْنا مِنهُم فَأغْرَقْناهُم أجْمَعينَ ﴾ [الزُّخرف : ٥٤/٤٣ـ٥٥] .

---

(١) استخفَّ قومه : أي استضعفهم واستذلَّهم .

ثم تـأمَّـل فيما يصوِّره القرآن من اعتراف هـؤلاء الهـالكين غـداً ، إذا أحيـاهم الله للحسـاب والجزاء ـ وإنـه ليوم آتٍ لا ريب فيـه ـ إذ يبيِّن من خلال اعترافهم هـذا بـأن سبب شقائهم لم يكن إلا سكرة المتكبِّرين منهم بعتوِّهم وطغيانهم ، وانصياع المستضعفين فيهم لأوامرهم وأحكامهم . يقول الله عزّ وجلّ مصوِّراً لنا هذا الحوار :

﴿ ولَو تَرى إذِ الظّـالِمونَ مَوقوفونَ عِنـدَ رَبِّهِم ، يَرْجِـعُ بَعْضُهُم إلى بَعضٍ القَـولَ . يَقولُ الَّذينَ اسْتُضْعِفوا للَّذينَ اسْتَكْبَروا لَولا أنتُم لَكُنّا مُؤْمِنينَ ✩ قالَ الَّـذينَ اسْتَكْبَروا للَّذينَ اسْتُضْعِفوا أنَحْنُ صَدَدْناكُم عَنِ الهُدى بَعْدَ إذ جاءَكُم ، بَل كُنتُم مُجْرِمينَ ✩ وقـالَ الَّذينَ اسْتُضْعِفوا لِلَّذينَ اسْتَكْبَروا بَل مَكْرُ اللَّيلِ والنَّهـارِ ، إذ تَـأْمُرونَنـا أن نَكْفُرَ بـاللهِ ونَجْعَلَ لَهُ أنداداً . وأسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا العَـذابَ ، وجَعَلْنـا الأغلالَ في أعْنـاقِ الَّـذينَ كَفَروا . هَل يُجْزَونَ إلاّ ما كانوا يَعْمَلونَ ﴾ [سبأ : ٣٤/٣١ـ٣٣] .

✩ ✩ ✩

وبهذا نعلم أن المنطلق العلمي السليم لأي عمل يريد الإنسان أن ينهض بـه ، هو أن يبدأ فيعرف ذاته ، وخصائصه معرفة سليمة دقيقة .

ذلك لأن الإنسان ليس إلا جهازاً وأداة من أدوات ذلك العمل وإنجـازه ، أيّـاً كان نوعه وأهميته . ولا بدَّ لمن يستخدم جهازاً أو آلةً مـا أن يبـدأ قبل كل شيء فيتعرَّف على ذلك الجهاز ويتبيَّن طبيعتـه وسماتـه وكيفيـة استعمالـه . ولا يمكن أن يستثنى من عموم هذه القاعدة الإنسان ذاته ، لأنه هو الآخر جهاز بيـد نفسـه ، يستخـدم ذاتـه في إنجـاز أخطر المهام وأشملها .

لذا يصح لنا أن نقول بحقّ : إن من لم يفتتح عمله ، أيّـاً كان ، بهـذه المعرفـة ، لن يتمكَّن من إقامة أي انسجام بين طبيعته وقدراته من جانب ، وطبيعـة ذلـك العمل من جانب آخر ؛ ولذا فلن تتهيّأ لديه ظروف إتقـانـه ، ولن يملـك أسبـاب النجـاح فيـه . وكلما ازداد نطاق العمل اتِّساعاً وأهمية ، برزت أهمية هذا الشرط بشكل أتمّ وأوضح .

فكيف عندما يكون العمل سعياً إلى إقامة المجتمع الإسلامي على وجهه السليم ، وهو ما نعنيه بالحضارة الإنسانية المثلى ؟ وهو عمل لا يستقلّ به جهد فرد أو قلّة من النـاس ، بل هو ثمرة جهود متناسقة لأمّة بكاملها !..

إلاّ أن هـذه المعرفـة التي يوجّـه القرآن الإنسـان إليهـا ، في أولى مراحل سعيـه نحو إنشاء الحضارة الإنسانية ، لا يمكن أن تتحقق إلا بسبيل واحد ، هو سبيل اليقين بوجود الخالق عزّ وجلّ ، واليقين بأنه إله واحد متّصف بكلِّ صفات الكمال ؛ ويترتَّب على هذا اليقين تصوُّر العلاقة القـائمـة بين الإنسـان وهـذا الإلـه الخـالق عزّ وجلّ ، وهي علاقـة العبودية المطلقة من المخلوق لخالقه والخضوع الحتمي المطلق من المملوك لمالكه .

فبهـذا اليقين ومـا يترتب عليـه ، يتهيّـأ الإنسـان لأن يصحـو إلى معرفـة ذاتـه ، وحدود إمكاناتـه ، وخصـائصـه الفطريـة والاكتسـابيـة ؛ ثم إن هـذه المعرفـة تهـديـه ، كما قلنـا ، إلى قصـد السبيل بين طرَفي الإفراط والتَّفريـط ، وتحملـه على السير في ذلـك السبيل حملاً .

أمّـا من لم يؤمن بوجـود الخـالـق عـزّ وجـلّ ، فهـو لن يـذعن إذن بـأي عبـوديـة أو مـالكيـة يـدين بهـا لأحـد . وتلـك هي أولى منزلقـات ضيـاع الإنسـان عن ذاتـه ، واحتجـاب هـويتـه عن عين بصيرتـه وفكره . ثم إنـه يـزداد ضيـاعـاً وابتعـاداً عن ذاتـه ومعرفة هويته ، كلما أقبل إلى نفسه فازداد افتتاناً وانخداعاً بالصفات والمزايا التي ركَّبها الله فيه ، وتاه عن أن الله زوَّده بها ليكون مستعدّاً لأداء المهمة الإنسـانيـة التي كلَّفـه الله النهوض بهـا . ومـآل هـذا التَّخبُّـط والضيـاع أن يتسلَّق هـذا الإنسـان عرش الرُّبـوبيـة الزائفة ، ثم يبسط بغيه وطغيانه على من حوله من النـاس إن أمكنتـه الفرصـة وأسعفـه الحظ ، ولم تخذله قوته وأسبابه ؛ أو أن يتخبَّط إلى قـاع من الـذُّل والخنوع لمن قـد أُتيح له أن يتسلَّط عليه ، من العتاة والمستكبرين ، إن خـانتـه الظروف وخـذلتـه الوسـائل والأسباب .

إذن ، فمآل المجتمع الذي لم يظلّه اليقين بوجود الله عزّ وجلّ ، أن يتيه أفراده عن التّعرف إلى أنفسهم ، ثم أن ينتهي بهم ذلك التّيه إلى أن ينقسموا إلى قلّة عاتية باغية تطفو على سطح المجتمع وتنادي لنفسها بالرُّبوبية من دون الله عزّ وجلّ ، وكثرة مُسْتَضعَفة مهينة تدين ـ شاءت أم أبت ـ لسلطان تلك الرُّبوبية وأحكامها الجانحة الظالمة .

وتلك هي حاجة الإنسان إلى الإيمان بوجود إله واحد خالق لهذا الكون ، مسيّر لنظامه وقيّوم على كل شؤونه . أي إن الله عزّ وجلّ ما ألزم عباده بأن يعرفوه ويستيقنوا وجوده ، إلا ليهديهم من خلال ذلك اليقين إلى أيسر طريق يتعرفون به على أنفسهم ويدركون به هويّاتهم في خضمّ هذا الوجود ، فيعرفوا بذلك سبيل التعاون فيما بينهم ، والاستفادة من طاقاتهم وإمكاناتهم ، ثم يسعوا إلى ذلك في ظلٍّ من التّآلف والإخاء .

فإن لم يهتد الناس إلى هذا السبيل لتحقيق غاياتهم وإقامة حضارتهم ، كان المآل ـ بدون ريب ـ أن يتّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ؛ وكانت نتيجة هذا المآل أن يشيع الفساد في الأرض ، وأن يتحوَّل الإنسان إلى مادة شقاء لنفسه ولبني جنسه .

وما أشدّ وضوح هذا الواقع في قول الله عزّ وجلّ :

﴿ قُل يا أهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَينَنا وبَينَكُم أن لا نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيئاً ، ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أرْباباً مِّن دونِ اللهِ ، فَإن تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدوا بِأنّا مُسْلِمونَ ﴾ [آل عمران : ٣/٦٤] .

والآية تصرح ببيان جازم بأن أمام الناس اختيارين لا ثالث لهما : إما اليقين بوجود الله تعالى واحداً لا شريك له ، والدينونة له وحده بالعبودية والخضوع المطلق ، فلابدَّ أن يعيشوا عندئذ في ظلِّ ذلك اليقين وتلك الدَّينونة ، إخواناً متساوين

ومتآلفين ، وإما الجحود بوجود الله وأُلوهيّته ، ولا بدَّ عندئذ أن يقع بينهم التَّهارج والخصام ، وأن يتَّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

ولعلك تحسب أن هذه الصورة لا تنطبق إلا على تلك المجتمعات القديمة التي كان يشيع فيها وجود متألّهين ، يدعون لأنفسهم الرُّبوبية المطلقة ، مثل كثير من الفراعنة ، وبعض الأكاسرة . وأن المجتمعات التي جاءت فيما بعد ، لا سيما الحديثة ، مبرّأة من ظهور من قد ينادي فيها لنفسه بالرُّبوبية ويدعو الناس إلى عبادته .

والحقيقة أن الواقع الذي لا بدَّ أن يفرض نفسه ، في قرار القرآن وحكمه ، عند عدم الإيمان بالله عزّ وجلّ ، وما يتبعه من معرفة النفس الإنسانية وحقيقتها ، هو واقع تألّه على الآخرين ، وبسط لمقتضيات الرُّبوبية الزائفة ، إلاّ أن هذا الواقع أعمّ من أن تستعمل له كلمات (الرُّبوبية) و (العبودية) أو لا تستعمل .. فما أيسر أن يمارس المتألّهون أُلوهيَّتهم الزائفة من خلال شعارات الحرية والمساواة والعدالة والدّيموقراطية ونحوها .. بل كلنا يعلم أن مناداة الإنسان لنفسه بين قومه بالرُّبوبية غدت طريقة بدائية بالية نحو هدف التَّسلط والطغيان ، وإنما خير سبيل مستحدث إليهما امتطاء سلَّم من الشعارات الخادعة التي تعبّر عن نقيض المقصود . انظر إلى جنبات ذلك العالم النّائي الذي يتباهى بإلحاده ونزعته المادّية المجرّدة ، ودعِ الشعارات والألفاظ فيها جانباً ، أفلا ترى بكل وضوح مظاهر الرُّبوبية التي كان الأقدمون من فراعنة ونحوهم ينعتون أنفسهم بها ؟ بل إنك لواجد ما هو أبلغ من ذلك وأخطر في ظلّ حياتنا الجديدة التي تفور بمصطلحات وشعارات جديدة . وحسبك أن ترى كيف تنسحق إنسانية الإنسان سحقاً ، رعاية لربوبية الأرباب وحماية لهم عن أن يُمسوا بأي تذكرة أو نقد !.. فماذا يخفف من البلاء أو يغيِّر من الحقيقة ما قد تراه من الفرق بين أولئك (الأرباب) المتوّجين الذين خلوا من قبل ، وهؤلاء (الأرباب) غير المتوّجين الذي جاؤوا على أعقابهم اليوم ؟..

فإن غُمَّتْ عليك رؤية هذه الحقيقة ، في ربوع الغرب الأوربي والأمريكي ، حيث يشيع فيها ما يسمى بالحرية والديموقراطية والحديث عن قيمة الإنسان وحقوق الإنسان ، فانتبه إلى الإله الذي تعنو جباههم جميعاً بالخضوع لسلطانه ، ألا وهو إله المادة واللذة . فلو أن المسلمين اليوم دانوا لربِّ العالمين جلَّ جلاله ، عشر تلك الدَّينونة الواجفة الخالصة ، بالعقيدة والسلوك ، لذلك الإله المزيَّف الذي يحكم اليوم ربوع الغرب بأسرها (إله المادة واللذة) ، إذن لاجتمع أمر المسلمين اليوم على أحسن حال ، ولأدركهم الله تعالى بالكثير من رعايته ولطفه !..

فإذا تنبَّهت إلى هذا ، فسيكون بوسعك أن تلاحظ مدى الطغيان الذي يبسطه أولئك الديموقراطيون (الإنسانيّون) حماة الحرية والحق على طول البلاد وعرضها ، تقرُّباً إلى إلههم المعبود المتمثِّل في المادة .. ولا شيء غير المادة .. وهل الاستعمار بكل ما ترى له من صنوف وألوان ، في سائر الجهات والبقاع ، وكل ما تسمعه من تهديدات الحروب المدمرة ، وأمواج الفتن والحروب الجزئية المشتعلة ، إلاّ قرابين تقدم إرضاء لإله المادة وطاغوته ؟..

فهل يمكن أن يزحزح هذا اليقين عن فؤادك ، ما قد تراه في تلك الربوع من الكنائس الشامخة أو ما قد تسمعه على ألسنة أولئك الناس من حديث الحرية والإنسانية والدين والإيمان ؟..

إنَّ من البداهة بمكان أن هذه المظاهر والكلمات نفسها ، تقدم هي الأخرى قرابين في سبيل إلههم المعبود من دون الله : إله المادة واللذة .

☆ ☆ ☆

وخلاصة ما ذكرناه ، أن القرآن يربِّي الإنسان بغذاءين اثنين ؛ أحدهما ينمي فيه الشعور بتفاهة أصله وبعبوديّته الثابتة لله عزّ وجلّ . ثانيهما ينمي فيه الشعور بعزّته وكرامته وأهميّته في الكون الذي خلقه فيه .

ولا يتهيّأ الإنسان لقبول هذين الغذاءين أو حتى لأحدهما ، إلا بعد يقينه بوجود الله عزّ وجلّ ، ربّاً واحداً لا شريك له لهذه المكوّنات كلها .

فإذا تكاملت هذه التربية في الإنسان ، فذلك إذن هو رجل الحضارة الإنسانية في القرآن .. وذلك هو الرجل الذي هيّأه القرآن لعمارة الأرض وإنشاء أرسخ مجتمع إنساني فوقها .

إنه الرجل الذي لا يهون ولا يذلّ .. ولكنه لا يطغى ولا يستكبر أيضاً . وهو الرجل الذي لا يجهل موقعه الذي أقامته الأقدار الرَّبانية فيه ، كما لا يجهل المهمة الكبرى التي عهدت بها إليه ؛ وهي : بذل كل جهد ممكن في سبيل خدمة الإنسانية المطلقة ، ومن أجل صهرها في بوتقة من التّآلف والمحبة والإخاء .

وقد علمت أن هذا الشعور لا يتكامل لدى الإنسان إلا بشروط .. وهي على كثرتها وتفرُّعها ، تندرج تحت شرط أساسي واحد : هو أن يتعرَّف الإنسان على هويته وحقيقته بكلِّ دقّة .

غير أن هذه المعرفة تجعله يلتفت بالتأمل والنظر إلى حياته التي يحياها ، إذ هي عدّته الأولى في كل سعي وعمل .. فما هي حقيقة الحياة التي نحياها ، وما مصدرها ومآلها ، ومتى يجدر بالإنسان أن يكون متمسّكاً وضنيناً بها ، ومتى يجدر به أن يضحّي بها ولا يلقي لها بالاً .

تلك هي الركيزة الثانية لإنشاء الحضارة الإنسانية . ولذلك فإن القرآن لا يكاد ينبّه الإنسان ويعرِّفه على ذاته ، حتى ينقله بعد ذلك إلى التَّعرف بحقيقة الحياة التي يتمتع بها .

فما هي الحياة في تعريف القرآن ؟

هذا ما سيستقلّ ببيانه والإجابة عنه الفصل التالي المباشر إن شاء الله .

مَاهِيَ ٱلْحَيَاةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

والحياة الإنسانية هي ما نعبِّر عنه عادة بالعمر .

ومن المعلوم أن أشدّ ما يتعلَّق به الإنسان من دنياه إنما هو عمره ؛ أي حياته التي يتمتَّع بها ؛ فهو ضنين بها أكثر من أي شيء آخر يمتلكه . وما يكدح الإنسان في سبيل رزق ، أو بناء دار ، أو التَّجمُّل بكساء ، أو التَّلذُّذ بطعام ، إلا سعياً إلى رعاية هذه الحياة ، وتسبُّباً لاستبقائها إلى أطول زمن ممكن .

وقد عبَّر البيان الإلهي عن هذا السَّعي اللاهث لدى الإنسان ، في سبيل التعلُّق بالحياة والمحافظة عليها ، بعبارة موجزة جامعة ، هي قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ ما كُنْتَ مِنهُ تَحيدُ ﴾ [ق : ١٩/٥٠] .

وإنها لحكمة باهرة أن يطبع الله الإنسان على هذا التعلُّق بالحياة .

ذلك لأنها أقدس رأس مال يملكه الإنسان على الإطلاق ! إذ هي الوسيلة الزمنية التي لا ينهض إلا عليها جميع الأسباب والشروط التي لا بدَّ منها ، لاستخدام الأرض وعمارتها ، واستغلال ذخرها ومكنوناتها المختلفة ، من أجل إنشاء المجتمع الإنساني السليم فوقها .

فكانت الحكمة قاضية ـ نظراً إلى أهميّتها هذه ـ بأن تنطبع الغريزة الإنسانية في أصل كينونتها على حبِّ البقاء ، والتَّعلق بالحياة . شأنها في ذلك كشأن العين من حواس الإنسان . لما كانت بالغة الأهمية في وظيفتها ، إلى جانب كونها شديدة الضعف وسريعة التَّأثر في أصل كينونتها ، خلق الله في أصل الغريزة الإنسانية مزيداً من أسباب الحماية لها ، ينقاد الإنسان لها بدون إرادة منه ولا قصد ، كالحركات الانعكاسية التي ترعى العين وتكلؤها ، دون أي اتجاه أو قصد من صاحبها إلى ذلك .

غير أن الحياة ما دامت ـ كما قلنا ـ رأس مال أساسي يملكه الإنسان ، فلا بدَّ أن يتصرَّف بها الإنسان إذن على هذا الأساس ، بأن يسخّرها لما هو بصدده من الواجبات والأعمال ، وأن يتَّخذها أداة لإنجاز المهمة التي أُنيطت به . وعندما يقبل الإنسان على تسخير حياته بهذا النحو ، فلسوف يجد نفسه في بعض الأحيان في موطن يستدعي أن يغامر برأس ماله هذا ، كما أنه يجد نفسه في حالات كثيرة أخرى بحاجة إلى أن يزداد تمسُّكاً به وحرصاً عليه . وذلك حسبما يقتضيه إنجاز المهمة الكبرى التي أُنيطت به .

وإذا لم نتصور الحياة لكلتا هاتين الحالتين ، فلا معنى إذن لليقين بكونها رأس مال بين يدي الإنسان ، بل تكون الحياة عندئذ شيئاً مقصوداً لذاته ، لا يبتغى بها أي هدف آخر . وهذا ما لا يقرّه المنطق ، ولا يقرّه المنهج القرآني بحال ، كما سيأتي إيضاحه .

فمتى يجب على الإنسان أن يجازف ويغامر بحياته ، ومتى يجب أن يكون ضنيناً بها وحريصاً عليها ؟.. وما وجه العلاقة بين ما يسعى الإنسان لأجله ، من أمانيّ وأهداف من جهة ، ومسألة هذه المجازفة بها أو المحافظة عليها من جهة أخرى ؟

لا ريب أن الإجابة الدقيقة على هذا السؤال تتوقف على معرفة أوجه الانسجام أو التفاوت بين القيمة الحقيقية لهذه الحياة من جانب ، وما نسخّرها لنيله من الأهداف والمصالح المختلفة والمتفاوتة من جانب آخر . فإذا عرفنا أوجه هذا الانسجام بالبراهين العلمية السليمة ، أتيح لنا أن نعرف متى يجدر بنا أن نجازف بالحياة ونضحّي بها ، ومتى يجدر بنا أن نكون ضنينين بها محافظين عليها .

غير أن معرفة جوانب هذا الانسجام أو التَّفاوت ، لا يمكن أن تتمَّ بدورها إلا بعد معرفة دقيقة لحقيقة هذا العمر أو الحياة التي نتمتع بها ، من حيث مصدرها ومآلها وما يعقبها .. فمن لم يتح له أن ينال هذه المعرفة بميزان علمي سليم ، فلا ريب أنه لن تتاح له معرفة قيمتها الحقيقية . ولذا فإنه لن يكون على بيّنة مما ينبغي أن يتَّخذه من المواقف عندما يتعارض بعض المهام الإنسانية مع بعض الشروط الأساسية لبقاء الحياة ،

أو ضمانة بقائها على أقل تقدير . أي إنه يحار ولا يعلم : هل يجب عليه أن يجازف بالحياة في سبيل الهدف الإنساني النبيل ، أم عليه أن يضحّي بهذا الهدف في سبيل المحافظة على الحياة وضمان بقائها !..

فمن هنا اقتضى المنهج القرآني المرسوم لإنشاء الحضارة الإنسانية المثلى ، أن يبدأ القرآن ـ بعد أن عرف الإنسان على ذاته ـ فيعرفه على حقيقة العمر الذي يتمتع به ، من حيث المبدأ والمنتهى ، والأحداث التي تنتظره بعد هذه الحياة ، ومن حيث علاقة العمر بتلك الأحداث المقبلة عليه .

وإنك لتجد أن القرآن ، في الوقت الذي يتوَّجه بكثير من آياته إلى تبصير الإنسان بذاته وما قد ركب فيه من المزايا ، وما حُمِّله من الوظائف والمهامّ ، ينفق آيات كثيرة أخرى على تبصير الإنسان بحقيقة العمر الذي يتمتع به ، وقيمته بالنسبة لأحداث ما بعد الموت .

وما ذلك إلا لأن عمر الإنسان هو الأداة الأولى ـ بعد جوهره الذاتي ـ لتسخيرها من أجل أي عمل يريد التَّوجه إليه . ومحال أن يتمكن الإنسان من استعمال أداة لا يعلم حقيقتها ، ولا يدري شيئاً عن أهميتها ، ووجه العلاقة بينها وبين ما يريد أن يستخدمها من أجله ؛ إلا أن يستعملها على غير هدى ، فيأتي من ذلك نتائج عشوائية عابثة ، منتظراً من خلالها ما قد تأتي به رياح المصادفة .

فما هي الحياة الإنسانية في تعريف القرآن وتحليله ؟

سنجد أن القرآن يتَّخذ في تعريفه للحياة ، الموقف ذاته الذي رأيناه في تعريف الإنسان وتحليل حقيقته .

فكما أن لفت نظر الإنسان إلى جانبين متباعدين ضمن ذاته وكيانه ، موضحاً له أن التكامل الحقيقي لجوهر الإنسان وكينونته ، إنما يتمّ بتلاقي هذين الجانبين ، وتمازجهما ،

كذلك يلفت نظر الإنسان هنا إلى جانبين متباعدين من حقيقة الحياة الإنسانية (أو العمر الذي يتمتع به الإنسان) ثم يوضح أن التكامل الحقيقي لجوهر هذه الحياة ، لا يتم إلا من خلال تمازج هذين الجانبين في اعتبار الإنسان ويقينه .

فلنصغِ إلى القرآن ، وهو يعرِّف لنا الجانب الأول من حقيقة الحياة ، من خلال هذه الآيات :

﴿ اعْلَموا أنَّما الْحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينَةٌ وتَفاخُرٌ بَينَكُم ، وتَكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ ، كَمَثَلِ غَيثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ[1] نَباتُهُ ، ثُمَّ يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ، ثُمَّ يَكونُ حُطاماً . وفي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ ومَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ ورِضْوانٌ ، وما الْحَياةُ الدُّنيا إلاّ مَتاعُ الغُرورِ ﴾ [الحديد : ٢٠/٥٧] .

﴿ واضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أنْزَلْناهُ مِنَ السَّماء فاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرْضِ فَأصْبَحَ هَشيماً تَذْروهُ الرِّياحُ ، وكانَ اللهُ على كُلِّ شيءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ [الكهف : ٤٥/١٨] .

﴿ وما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنيا إلاّ لَهْوٌ ولَعِبٌ ، وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَو كانوا يَعْلَمونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤/٢٩] .

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البِلادِ ، مَتاعٌ قَليلٌ ثُمَّ مَأْواهُم جَهَنَّمُ وبِئْسَ المِهادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦/٣ـ١٩٧] .

﴿ قُل مَتاعُ الدُّنيا قَليلٌ ، والآخِرَةُ خَيرٌ لِّمَنِ اتَّقى ولا تُظْلَمونَ فَتيلاً ﴾ [النِّساء : ٧٧/٤] .

﴿ ولَكُم في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ ومَتاعٌ إلى حينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٤/٧] .

﴿ وهُوَ الَّذي أحْياكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يُحْييكُم إنَّ الإنسانَ لَكَفورٌ ﴾ [الحج : ٦٦/٢٢] .

---

(١) الكفّار هنا بمعنى الزرّاع .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوتِ ثُمَّ إِلَينا تُرْجَعونَ ﴾ [العنكبوت : ٢٩/٥٧] .

إنك لترى أن التقرير الذي تلتقي عليه هذه الآيات ، عن قيمة الحياة الإنسانية وحقيقتها ، يتلخص في أنها ليست إلا معبراً إلى الحياة الآخرة ، وأن الإنسان إنما يأخذ من هذه الحياة إلى تلك ، حصيلة كسبه وأعماله ، لينال عليها الجزاء الأوفى : إن خيراً فخير ، أو شرّاً فشرّ . وهي ـ في تقرير هذه الآيات ـ حياة قصيرة ، تقوم بين موتين ، ثم تليها الحياة الدائمة التي لا انقضاء لها ، والتي يبدو جليّاً إلى جنبها تفاهة هذه الحياة وعدم أهميتها ، حتى لتبدو للإنسان ، بعد اجتيازها ، وكأنها حلم قصير .

ويبدو جليّاً من هذه الآيات ، أن مصدر تفاهة هذه الحياة ، أو هذا العمر الذي نعيشه ، ما يؤكده القرآن ، من أن حياتنا هذه ليست هي الحياة الوحيدة التي يعيشها الإنسان ، وأن الموت الذي يتربَّص به ليس عبارة عن الغلاف الأخير لقصة هذا الوجود الإنساني !. بل إن حياتنا هذه ، بكل ما تموج به من أحداث ، ويتعالى فيها من ضجيج ، ليست سوى مقدمة في فصول القصة .. أو هي أول فصل قصير فيها .

فتأمل ، كم تبدو هذه الحياة التي نمرّ بها ، ضئيلة ، عندما تكون مجرد مقدمة أو دهليز إلى تلك الحياة الخالدة الأخرى ، التي لا يفتأ القرآن يكرِّر وصفها ، ويؤكِّد وجودها ، ويتحدث عن مدى أهميتها ، كي يشدّ نظَر الإنسان وطموحه إليها ، ولكي يقيه بذلك من الاستغراق بل الغرق في أمواج هذه الدنيا الخادعة الفانية ، فيقَع بعد ذلك في مغبّة الحسرة والنّدامة ، إن لم يُعِرْ هذا المصير أي نظر والتفات ، ولم يَصْحُ إليه إلا بعد فوات الفائدة والأوان .

ولكم يبدو هذا جليّاً ، بل مخيفاً ، في قوله تعالى :

﴿ ويَومَ يَحْشُرُهُم ، كَأَنْ لَّمْ يَلْبَثُوا إلاّ ساعَةً مِن النَّهارِ ، يَتَعارَفونَ بَيْنَهُم ؛ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبوا بِلِقاءِ اللهِ وما كانوا مُهْتَدينَ ﴾ [يونس : ١٠/٤٥] .

وفي قوله : ﴿ ويَومَ يُعْرَضُ الَّذينَ كَفَروا على النَّارِ ، أذْهَبْتُم طَيِّباتِكُم في حَياتِكُمُ

الدُّنيا واسْتَمْتَعْتُم بِها ، فـاليَومَ تُجْزَونَ عَـذابَ الهُونِ بِما كُنتُم تَسْتَكْبِرونَ في الأرضِ بِغيرِ الْحَقِّ ، وبِما كُنتُم تَفْسُقونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠/٤٦] .

وحسبك من ذلك كله أن الله تعالى سمّى الحياة الدنيا بالعاجلة ، فيقول مرة :

﴿ كَلاّ بَل تُحِبُّونَ العاجِلَةَ وتَذَرونَ الآخِرَةَ ﴾ [القيامة : ٢٠/٧٥ـ٢١] .

ويقول مرة أخرى : ﴿ إنَّ هؤلاءِ يُحِبُّونَ العاجِلَةَ ويَذَرونَ وَراءَهُم يَوماً ثَقيلاً ﴾ [الدَّهر : ٢٧/٧٦] .

☆ ☆ ☆

ولكن ، أرأيت لو أن القرآن قصر حديثه عن هذه الحياة الإنسانية على بيان هذا الجانب منها ، وظلَّ يؤكد هذه الحقيقة وحدها ـ إذن لكان حريّاً بالإنسان أن لا يقيم لحياته وزناً ، وأن لا يحفل بشيء من ساعات عمره الذي يمرّ به . بل لكان من مقتضى ذلك أن يهون أمرها في نظره سواء من حيث الرعاية لها ، أو العدوان عليها . فما أبسط أمر العدوان عليها أو التفريط فيها ، ما دامت بهذه التَّفاهة التي يصفها القرآن .

بل الشأن يتجاوز الحياة عندئذ إلى سائر متعلقاتها أيضاً . إذ نظراً إلى أن هذه الحياة التافهة أصل ووعاء ، بالنسبة إلى ما يفرغه الإنسان فيه من منجزات وأعمال ، فإن تلك المنجزات والأعمال تصبح هي الأخرى تافهة الجدوى ضئيلة القيمة ؛ كيف لا ، وإن الزمن الذي يحويها ويعتبر أساساً ومنبعاً لها ، تافه في ذاته ، قصير في أمده ؟!..

وإذن ، لما حرك الإنسان في حياته ساكناً ، ولأغنته سكنى الكهوف عن تعمير البيوت واتِّخاذ القصور ؛ ولما التفت إلى شيء مما يسمى بعمارة الأرض وإقامة المجتمع الإنساني ، أو الحضارة الإنسانية في شيء من جنباتها ؛ ولشغله عن ذلك انتظار الموت ليأتي فيتخطفه من تلك الحياة التافهة .

ولكنَّ القرآن لم يقتصر في التعريف بالحياة الإنسانية على بيان هذا الجانب

وحده ؛ بل سرعان ما لفت النظر إلى جانب آخر من حقيقتها ، ودعانا إلى فهم الحياة فهماً متكاملاً جامعاً بين تصوُّر كلا جانبيها ؛ وهو في تعريفه لنا بالجانب الآخر من حقيقة الحياة الإنسانية ، يكشف عن قداسة وحرمة بالغة لها ، ويدفع الإنسان إلى سبيل رعايتها والعناية بها ، ويشرع لها من الأحكام ما يضمن حمايتها من أي عدوان ، ويُنهض الإنسان إلى حراستها ، وبذل كل جهد في سبيل وقايتها من المخاطر والآفات . فلنصغِ إلى طائفة من الآيات القرآنية التي تشرح من حقيقتها هذا الجانب :

﴿ مَن عَمِلَ صالِحاً مِّن ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً ﴾ [النَّحل : ٩٧/١٦] .

﴿ مِنْ أجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنا عَلى بَني إسْرائيلَ أنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيرِ نَفْسٍ أو فَسادٍ في الأرضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَميعاً ، ومَنْ أحْياها فَكَأَنَّما أحْيا النَّاسَ جَميعاً ﴾ [المائدة : ٣٢/٥] .

﴿ ولا تُلْقوا بِأيْديكُم إلى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥/٢] .

﴿ ولَكُم في القِصاصِ حَياةٌ يا أُولي الألْبابِ .. ﴾ [البقرة : ١٧٩/٢] .

﴿ ومَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فيها ، وغَضِبَ اللهُ عَلَيهِ ، ولَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظيماً ﴾ [النساء : ٩٣/٤] .

﴿ ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وَأَحْسِن كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧/٢٨] .

فأنت ترى أن مجموع هذه الآيات القرآنية ـ ومثلها في القرآن كثير ـ قد وضع الحياة الإنسانية ، في إطار من القداسة والرعاية والأهمية ، وحسبك أن تلاحظ كيف أن البيان الإلهي جعل السعي إلى إنقاذ حياة إنسانية من عوادي الموت والردى ، في ميزان الله عز وجل ، بمثابة إحياء الناس جميعاً ، وكيف توعد بالمقابل على إزهاق الحياة

الإنسانية البريئة ، بعقاب لم نر مثله في القرآن على أيّ معصية أو جريمة أخرى ، ولنعد لنتأمل مرة ثانية خطورة هذا الكلام وما فيه من سلسلة التوعدات :

« ... فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعدّ له عذاباً عظيماً » !...

ثم انظر كيف ينمي البيان الإلهي رغبة الإنسان في الحياة الطيبة ، ويلفت نظره إلى أقصر السبل إليها ، عندما يقول : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة » ... وكيف ينهاه عن أن يزج بحياته في المخاطر والمهالك ، بل رخص له أن ينطق بكلمة الكفر ، إذ وجد أنّ حياته قد أصبحت مهددة ، ألا تراه يقول :

﴿ ... إلاَّ مَنْ أُكرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمانِ ﴾ [النحل : ١٦/١٠٦] .

أي فلا ضير عليه أن يحرز حياته بالنطق بكلمة الكفر ، في مثل هذه الحال .

ثم انظر كيف حظر البيان الإلهي على الإنسان الإقدام على إزهاق حياته ، مهما كانت الأسباب ومهما أطبق عليه الكرب والبلاء [١] ، ثم دعاه إلى أن يمتع نفسه وحياته بمباهج الدنيا ومتعتها في حدود ما شرع له من مباحات وحقوق .

---

(١) يلحُّ بعض الناس اليوم في البحث عن فتوى تبيح الإقدام على الانتحار ـ في بعض الحالات القاهرة ، تخلُّصاً من عذاب قد يلجئ الإنسان إلى البوح بما يجرُّ ضرراً على المسلمين . ونحن لا نجد في بطون كتب الشريعة الإسلامية ، ولا في شيء من قواعدها ما يجيز الإقدام على هذا الأمر . والأحاديث الصحيحة المعروفة في هذا الحكم عامة تشمل سائر الأحوال . إلى جانب بيان الله تعالى في محكم كتابه . والذي نعرفه أنه لا يجوز الإقدام على عمل محرَّم بإجماع المسلمين ، واستناداً إلى أدلة لا تقبل الرِّيب ، تخلُّصاً من أضرار وهمية قد تقع وقد لا تقع .
ولكنّا في الوقت ذاته لا نتألّى على الله عزّ وجلّ ، فقد يعفو عمن عصاه ، وقد يتقبّل اجتهاداً جنح إليه لقصد مبرور على الرغم من أنه اجتهاد في معرض نص . غير أن هذا شيء وحرمة الفعل شيء آخر . فلا يعود أحدهما على الآخر بالنّقض . وعلى كلٍّ فليس من اليسير إصدار فتوى تخالف إجماع المسلمين في أمر يستند إلى نص بل نصوص لا تقبل الاحتمال .

فإذا تبيَّن لك هذا الجانب الثاني الذي أتمّ به القرآن بيان حقيقة الحياة وتبصير الإنسان بها ، فلنعد لنتبيَّن صلة ما بين هذا الجانب والجانب الأول في رسم حقيقة الحياة وبيان جوهرها وقيمتها .

والحقيقة أن كلاًّ من هذين الجانبين يقوم بمثابة الروح التي تبعث الحياة في الجانب الآخر . فكل منهما ، عندما ينفصل عن الآخر ، ويصبح بمعزل عنه ، يغدو باطلاً من الأمر ، وخارجاً عن معنى الحياة وحقيقتها .

فلو لم يدرك الإنسان ضآلة الحياة التي يمرّ بها ، لما أفاده شيئاً علمُه بمدى أهميَّتها ، وبكونها رأس مال عظيم متَّع الله به الإنسان . ولو لم يؤمن بما أضفى الله عليها من قداسة وحرمة ، وشرع لها من رعاية وحماية ، لما فهم من معاني تفاهتها وقلة شأنها سوى وجوب الإعراض عنها والسَّعي إلى التَّخلص منها عندما يمسه أقل ضيق أو تنزل به أي محنة .

نعم إن هذه الحياة قصيرة ، كما وصف الله تعالى ؛ وهي العاجلة حقّاً كما سمّاها . ولكن هل يستلزم كونها كذلك أن لا يحفل الإنسان بها ، وأن يعرض عن الاستفادة منها فلا يُقبل عليها في إصلاح أي أمر والنهوض بأي عمل ؟

إن الجسر الذي يصل ما بين الرجل وقريته ، ممتداً على نهر عريض ، تافه من حيث قصره ، وقلّة شأنه ، إذا ما نُظر إليه بحدِّ ذاته . ولكنه بالغ الخطورة ، في الوقت نفسه ، من حيث إنه السبيل الوحيد الذي يوصل الرجل إلى قريته وبيته .

وإن الساعة الامتحانية التي يجتازها الطالب ، تافهة بحدِّ ذاتها ، أي إذا ما نظرت إليها من حيث هي مدّة زمنية ضيقة ؛ ولكنها ذات أهمية قصوى ، من حيث إنها تنطوي على فرصة نادرة ، يتوقف على استغلالها أمر مصيري في حياة الإنسان وسلوكه .

غير أن المهم في هذا الصَّدد ، هو أن نتأمَّل لندرك أن استفادتنا الصحيحة من

الجسر في المثال الأول ، ومن الساعة الامتحانية في المثال الثاني ، متوقفة على أن نعرف كلتا صفتي التفاهة والأهمية في كلٍّ منهما .

فمن أقبل عائداً إلى داره مع المساء ، ولما بدأ يجتاز الجسر المنصوب فوق النهر الذي يفصل بينه وبين قريته ، راقه جمال المكان والمنظر ، وأنعشته الرياح التي تهبُّ رخيّة من حوله ؛ فنسي داره التي هو بسبيل التَّوجه إليها ، وألقى عصا التّسيار هناك ، غير راغب بديلاً عن ذلك المكان الذي راق لخاطره وقلبه ، ناسياً أنه إنما يمرُّ فوق جسر ، وأنه من التَّفاهة بحيث ما ينبغي أن يتوقف عنده ويركن إليه - أقول : إن من كان في مثل هذا الغباء ، حريّ به أن ينقطع عن داره وقريته ، وأن لا يصحو إلى الحقيقة التي خدع عنها ، إلاّ وقد جنّه الليل ، واحتوشته السِّباع ، وضاعت عليه معالم الطريق .

ونظير هذا الغبي المخدوع تماماً ، من يقف على طرف النقيض من سلوكه هذا ، بأن لا يدرك لهذا الجسر من فائدة أو أهمية ، ولا يتنبَّه إلى أي ضرورة له ، من أجل مواصلة سيره وبلوغ غايته ؛ فيمضي معرضاً عنه غير عابئ به . فإنه هو الآخر حريٌّ به أن يقع في المغبّة ذاتها ، وأن يصحو على المصيبة نفسها .

فلتعلم أن ذلك هو شأن هذه الحياة الدنيا التي نمرُّ بها ، دون أي فرق ... فلا سبيل إلى معرفة حقيقتها ، وتقديرها حقّ قدرها إلا من خلال هاتين النظرتين المتكاملتين اللتين ينبهنا إليهما القرآن في تمازج وبكل دقّة وتنسيق .

فمن حبس تصوُّره عند إحدى هاتين النظرتين ، فقد أدرك منها شطر الحقيقة ، وكان في تعامله معها كمن يعالج نصف حجر الرحى ؛ إذ إن شطر الحقيقة لا يمكن أن يثمر شطر نتائجها لو كانت متكاملة . بل هو يساوي ، من حيث النتائج فقدانها أو تمام الجهل بها .

ولقد وقف بعض الناس ، فعلاً ، عند الشطر الأول الذي رسمه القرآن للحياة ، والذي عرضنا لطائفة من الآيات التي نبهت إليه ورسمته بكل دقّة ؛ ثم لم يتابعوا تتمة

الصورة في شطرها الثاني ؛ ففرّوا إلى الكهوف القاصية ، واستأنسوا بـالوحوش بـدلاً من الناس ، وراحوا يعـانقون شبح الموت انتظـاراً لمقـدمـه وفراراً من مسؤوليـات الحيـاة . فسعوا بذلك إلى خراب الأرض بـدلاً من أن ينفـذوا أمر الله في النهوض بعمارتهـا . وكان مصدر خطئهم وانحرافهم أنهم استعجلوا ، ووقفوا من فهمهم للحياة عند شطر حقيقتهـا ، دون أن يتابعوا فهم شطرها الثـاني . وفهم نصف الحقيقـة قـد يؤدي في الواقع إلى الجهل بها كلها والوقوع في نقيض مقتضاها .

كما وقف آخرون من فهمهـا عنـد شطرهـا الثـاني فقـط ، إذ لم يطب لهم أن يفهموا عنها سوى صفة الحرمة والقداسة وواجب الحماية والرعاية ، وأخذوا يلتقطون من القرآن تلك الآيات التي تدعم من حقيقة الحياة هـذه الصفـة وحـدهـا ؛ فكان عـاقبـة ذلـك أن نظروا إليها على أنها المصدر والمآل ، وركنوا إليهـا ركون من اطمأنَّ إلى أنهـا اليوم الـذي لا مساء في نهايته ، ولا غد من ورائه . فاتَّخذوا بـذلـك من الممرات والـدهـاليز موطنـاً ومقاماً ، وعشيت أبصارهم ـ بسبب انمحاق نصف الحقيقة عنها ـ عن رؤية ما وراء تلـك الدهاليز ، وتبلّدت مشاعرهم عن تحسّس سيرهم الحثيث نحو النهايات التي يحثون الخطى إليهـا شـاؤوا ذلـك أم أبـوا . فكانت النتيجـة أن سعى هـؤلاء أيضـاً إلى إفسـاد الأرض وخرابها ، ولكن من سبيل أخرى غير التي سلكهـا ذلـك الفريق الأول ، وبطريقـة غير تلك التي مارسها أولئك . وسيأتي بيان ذلك قريباً إن شاء الله .

ولكن الحيـاة الـدنيويـة في قرار القرآن وبيـانـه التربوي الـدقيـق ، ليست ممـزقـة ولا منشطرة إلى هذين الشطرين المتعارضين .

وإنمـا هي في حكمـه وقراره دهليز إلى مقرّ ، وممرّ إلى الوطن الـذي لا تحوّل عنـه . والدهليز يجب أن يُفهم على أنه دهليز . أي فشطبه عن الاعتبار حمق وغبـاء ، والركون إليه ذهول واغترار ؛ أمـا فهمـه على حقيقتـه واستعمالـه على وجهـه ، فيكشف عن وجـه أهميته ، ومدى الحاجة إليه ، على الرغم من أنه ليس أكثر من دهليز .

فتأمَّل في تربية الله لعبده ، وفي دقّة تبصيره بمرافق الدنيا التي يعيش فيها ، وكيف بدأ فعرفه على ذاته من كلا جانبيه ، وأراه في كلٍّ من الجانبين علاج الجانب الثاني . ثم عرَّفه على حقيقة الحياة التي يتمتع بها ، فنبَّهه إلى أنها ممرّ وليست مقرّاً ، ثم نبَّهه مع ذلك إلى مدى خطورتها وأهميّتها ، وإلى القداسة التي أضفاها الله عليها من أجل ذلك ؛ وذلك كي يتخذ الإنسان منها ممرّاً إلى خير مستقرّ ، ولكي لا يضيع من حياته لحظة من غير طائل ، وليسخّرها لإنجاز المهمة التي أنيطت به على أفضل وجه .

☆ ☆ ☆

ولنتساءل الآن : ترى ما هي الآثار الحضارية التي يمكن أن تتجلى في أي مجتمع أخذ نفسه بهذا التوجيه القرآني ، ففهم أفراده الحياة الإنسانية بمعناها المتكامل الذي بصرنا به القرآن ؟

بوسعنا أن نتبيَّن الجواب الواضح عن هذا السؤال من واقع الحضارة الإنسانية التي أنشأها رجل الحضارة كما صاغه وربّاه القرآن ، في غرّة تاريخنا الإسلامي المجيد .

لقد كان من أبرز الآثار الحضارية لاتِّباع هذا المنهج والانصباغ به ، أن أحدهم كان يقبل على الحياة إقبال العارف بها ، المستأنس لها ، مهما كانت حاله وظروفه . فلم يكن يتبرَّم بها لضيق أَلَمَّ به ، ولم يكن ينتشي بها أو يلهث وراءها للذّة نالته منها .

لقد فهمها ـ كما حدّثه القرآن ـ جسراً إلى غاية ، وفرصة لأداء مهمة ؛ فهي بحلوها ومرّها وسيلة وسبب لتحقيق هدف ، وليست هدفاً بذاته تحفُّ به الوسائل والأسباب . فسيّان بعد هذا أن تكون نفقاً مظلماً يجتازه صاحبه في باطن الأرض ، أو طريقاً معبّداً يقطعه بين الزهر والرياحين .

إذ إن الذي يقلل أو يهوّن من فرق ما بين الحالتين في نظره ، أنها على كل حال ، ليست أكثر من طريق . وإنما يستمدّ الطريق وصفه وحكمه الحقيقي من طبيعة الغاية

والنهاية التي سينتهي إليها ، ومن تصوُّره لها . فالنهاية السعيدة المتوقعة تضفي على الطريق انشراحاً وأُنساً ، حتى ولو كان نفقاً في باطن الأرض ، والنهاية المظلمة الموحشة تغمس الطريق إليها بالظلام ذاته والوحشة نفسها ، حتى ولو كان مضاء بخطوط النّيون ومفروشاً بالزهر والورد .

لقد استطاع رجل الحضارة القرآنية بحكم فهمه للحياة وتقويمه إياها على هذا الأساس ، أن يستخدم حياته من أدقّ السُّبل وأقومها لتحقيق مبادئه وغايته دون أن يدخل مع الآخرين في أي مزاحمة أو صراع ، ودون أن يزهد في فرصها السانحة وأعمالها المفيدة ويفرّ منها إلى الكهوف .

كما استطاع رجل الحضارة القرآنية هذا ، أن يستخرج من فهمه المتكامل للحياة مقياساً في غاية الدّقة ، يعلم بواسطته متى ينبغي أن يكون ضنيناً بالحياة محافظاً عليها ، ومتى يجب أن يتحول فيصبح سخيّاً بها . إذ هو بحكم التربية التي تلقاها من القرآن ـ لا يتعامل مع الحياة على أساس مشاعره النفسية تجاهها ، وإنما على أساس ما تقتضيه الوظيفة التي كلّف بإنجازها . فكان طبيعيّاً منه أن يوليها من الأهمية والقيمة بقدر ما يمكن أن تكون سبيلاً إليه ، أو عقبة في طريقه .

فبهؤلاء الرجال نشأت أول حضارة إنسانية في ظلّ المجتمع الإسلامي الذي أنشأه ورعاه سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

وانظر .. بل أصخ بسمعك جيداً إلى سجل هذه الحضارة وتاريخها ، أتستطيع أن تلتقط أسماء عشرة من رجالها فرّوا من بؤس حياتهم إلى الانتحار ؟.. هذا مع العلم بأن نصيب تلك الأجيال من المصائب والمآسي ، أضعاف ما قد ينزل من ذلك بالناس اليوم في ظلّ هذه المدنيّة ومنجزاتها .

إنك لن تستطيع أن تعثر ولا على أسماء خمسة ، أقدموا على ذلك .

ولكن انظر ، كم كانت تهون عليهم أرواحهم ، في الوقت ذاته ، وكم كان يلذّ لهم أن يعانقوا الموت والرَّدى عندما يجدون القيم والمبادئ مهدّدة ، وأن حراستها لا تتمّ إلا ببذل الحياة وإراقة الدماء !.. وما أكثر ما كان يرسل خالد بن الوليد إلى قادة الفرس والروم كتباً يقول لهم فيها : « .. لقد جئتكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة » وفي بعض الأحيان : « لقد جئتكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون شرب الخمر » .

والمهم في هذا أن تعلم أن مصدر هذه الاستهانة بالحياة لم يكن طبعاً خاصّاً بهم ، أو عشوائية في تقدير الحياة وأهميتها ، أو ضيقاً بها لعوامل وأسباب نفسية ؛ إذ لو كان الأمر كذلك ، لكان جديراً بهم أن يتخلّصوا من أثقال الحياة عند نزول أدنى ضائقة بهم ، ولكان انتحار أحدهم ، تخلُّصاً من آفات الحياة ونكباتها أولى أن يشبه في السهولة والرغبة بشرب الخمر .

وإنما جاءت هذه الاستهانة بالحياة عن قرار عقلي وقناعة فكرية ، على أعقاب التَّبصرة التي بصَّرهم بها القرآن ، بصدد التعريف بحقيقة هذه الحياة ، والكشف عن قيمتها وعن الميزان الدقيق الذي يشير إلى ارتفاع هذه القيمة أو انخفاضها حسب الظروف والنتائج المنوطة بها .

ولذلك تجدهم قد أتقنوا التميز بين الظروف التي تستدعي الاعتصام بالحياة وشدّة التَّمسُّك بها ، والظروف التي تتطلب الاستهانة بها والتّسامي فوقها .

بل لقد برعوا في حركتهم السريعة المتبصرة ، بين طرفي ذلك الاعتصام وهذه الاستهانة ، براعة جعلتهم يقفزون قفزاً فوق سلّم الحضارة الإنسانية ، ويسخّرون حياتهم على الوجه السليم ، إلى أقصى حدود الإمكان .

لقد كانت المحن والكروب الدنيوية تسحق أحدهم سحقاً ، فلا يتأفَّف من حياته ، ولا يتضجَّر من ثقلها . ويظلُّ صابراً متجمّلاً ، كأن ضيقاً لم يتسلَّل إلى نفسه . وكأنه لمخافته الشديدة من الموت ، لا يبالي أن يفرّ منه إلى التعلُّق بالحياة ، حتى ولو كانت

مليئة بالبؤس والآلام . ولكأنه ليس هو الذي يقتحم أسباب الهلاك بنشوة راضية ، كلما هُدِّد صرح الحق ، أو تسلل كيد إلى بنيان المبادئ والقيم .

وما أكثر ما حوى تاريخ الحضارة أسماء رجال من أمثال عمران بن الحصين ، الذي لم يذق من حياته سوى مرارة البؤس والآلام . فلقد أثبته مرض عضال على سرير من جريد النَّخل قرابة ثلاثين عاماً ، دون أن يفارق البشر وجهه أو تفارق البسمة شفته . ولما رأى أخاه العلاء يبكي ، مرة عنده ، قال له : لِمَ تبكي ؟ قال : لهذه الحال التي أنت فيها . قال : لا تبكِ ، فإنَّ أحبّه إلى الله أحبّه إليّ .

وبوسعك أن تلاحظ أثر هذه التبصرة القرآنية ، في الصياغة الجديدة التي صيغت بها نفوس أصحاب رسول الله ﷺ وعقولهم ، عندما تقارن بين نظرة أحدهم إلى الحياة وتعلُّقه بها ، إذ كان يعيش أيام جاهليّته ، ونظرته الجديدة إليها وتقويمه لها بعد أن دخل في رحاب الإسلام ، وأصغى إلى بيانات القرآن وهديه .

ودونك ، فانظر إلى حياة كل فرد من أصحابه عليه الصلاة والسلام ، لتجد فيها المثَل الذي يجسِّد لك هذه الحقيقة : تأمَّل حال عمر في جاهليته ، ثم الانقلاب الذي داهمه بعد إسلامه ؛ وانظر إلى مصعب بن عمير ، فتى الحياة المترفة ومثال التعلُّق النفسي بأهوائها في جاهليته ؛ وفتى التَّحرُّر من كل مغرياتها وأهوائها من بعد إسلامه . ثم انظر إلى تلك النساء اللائي كاد أن يهلكهن الجزع على الحياة في جاهليّتهنّ ثم أهلكهنّ حبّ التضحية بها والتَّرفع فوقها بعد إسلامهن .

ولعل من الخير أن أجسد لك هذه الظاهرة ، في مثال الخنساء رضي الله عنها[١٣] . فقد مات في جاهليَّتها أخوها صخر ، إذ لم تكن أدركت بعد حقيقة هذه الحياة وقيمتها ، وعلاقتها بما وراءها . فأخذ الجزع منها كل مأخذ ، وملأت الدنيا من حولها بكاءً وعويلاً ، واسودَّ وجه الحياة أمام عينيها ، وحدَّثت نفسها بالقتل والانتحار ، فهي القائلة :

ولـولا كثرة البـــاكين حـولي على إخـــــوانهم لقتلت نفسي

فلما شرَّفها الله بالإسلام ، وأقبلت إلى القرآن تصغي إليه ، وتتعرَّف عن طريقه لأول مرة على حقيقة الحياة الدنيا ، وشأنها ، وقيمتها في ذاتها ، وبالنسبة للحياة الأخرى التي هي ممرّ إليها ودهليز لها ـ: زايلها الحزن والكرب ، وبدأت تستنشق رائحة الحياة من جديد . ثم أخذت تعطيها من نفسها ومن كل ما تملك ، بمقدار ما يتناسب مع حقيقتها وجوانب الأهمية التي فيها ، وما يمكن أن تُسخَّر لتحقيقه من القيم والأهداف .

وفي ظلّ حياتها الإسلامية هذه ، كان لها أبناء أربعة ، هم كل ما كانت تعتزّ به من دنياها وممتلكاتها . فلما كانت حرب القادسية ، دفعت بهم جميعاً إلى أوارها المشتعل ؛ وقالت لهم وهي توصيهم :

« يا بَنِيَّ ، إنكم أسلمتم لله طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لَبنو رجل واحد وامرأة واحدة . ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم . وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمجاهدين امضوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين » .

ثم جاءها النَّبأ بمقتل أبنائها الأربعة . فكيف استقبلت الخبر ؟.. كيف استقبلت نبأ مقتل أولادها الأربعة ، تلك التي ملأت الدنيا عويلاً على وفاة أخ لها اسمه صخر ؟!.

لم تزد على أن قالت صابرة ، بل شاكرة :

« الحمد لله الذي شرَّفني بقتلهم جميعاً ، وأرجو الله أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته »[1] .

---

(١) راجع ترجمة الخنساء في الإصابة : ٢٨٠/٤ ، وانظر كتاب المرأة والسياسة في صدر الإسلام للدكتور أحمد الكبيسي ، فهو من أفضل ما ألّف حديثاً في هذا الباب .

وإنك لتعلم أن القادسية ، تعدُّ في التاريخ ، معْلَمة من أبرز معالم الحضارة الإسلامية ، ولكنَّ الأهم من هذه المعرفة أن تعلم أن سُدى ولحمة هذه الْمَعْلَمة الكبرى ، إنما يتمثَّلان في هذه الصياغة القرآنية التي صيغت بها أفئدة رجال القادسية وعقولهم . فقد كان مصدر استبسال المسلمين فيها (وفي غيرها من الغزوات) الاستهانة بالحياة الدنيا في سبيل عواقبها وآثارها ، وتسخيرها من أجل الهدف الأكبر الذي تمَّ اليقين به . على حين أن مصدر استبسال الفرس فيها ، لم يكن إلا حرصهم على تلك الحياة ، وشدّة تعلُّقهم بها ، والخوف على ما استمرؤوه من نعيمها ولذائذها . وشتّان بين من يقاتل مستهيناً بالحياة وما فيها ، ومن يقاتل متعلِّقاً بالحياة وزخرفها [1] .

وها هنا يكمن حلّ ما يسمونه باللغز .. لغز الفتح الإسلامي على حدٍّ تعبير المؤرِّخين الأجانب وطائفة من علماء الاجتماع .. ذلك لأنهم يقفون (فيما يتصورون) من قصة الفتح الإسلامي وآثاره الحضارية السريعة المتلاحقة التي تكاملت خلال ربع قرن فقط ـ يقفون منها أمام لغز مقفل ، لم تصل عقولهم إلى حلِّه وتفسيره ، حسب ما يعرفونه من طبيعة المجتمعات وقوانينها ، ومنطق الأحداث ومقتضيات الأسباب .

---

(١) ما أكثر ما نسمع في هذا العصر من يهتف باسم القادسية ، وينتشي بالحديث عنها . والغريب أن هؤلاء الناس لا يسألون أنفسهم ، مع ذلك ، مرة واحدة عن السِّرّ الذي إليه مرجع انتصار المسلمين في القادسية وحديث التاريخ عنها ، كما لا يسألون أنفسهم مرة واحدة عن السبب الذي جعل أيديهم لا تطول ذلك الشرف الذي أحرزه أجدادهم في قليل ولا كثير !..
فليتمسحوا بأمجاد القادسية وذكرياتها ما طاب لهم ذلك ، فإنهم لن يستيقظوا من ذكراها واجترار الحديث عنها إلا على مزيد من الذّل والهوان ، ما داموا يتعامون عن المفتاح الذي إليه مردّ الفتح الإسلامي ، وما أعقبه من نهضة حضارية لم يتحدث التاريخ بمثلها ، ألا وهو التَّبصرة القرآنية التي نتحدَّث عنها في هذه الفصول . وهي تبصرة أخذت بها أمم وأجيال ، فسادت ، ومتَّعها الله متاعاً حسناً طبقاً لما وعد في قرآنه . وأعرض عنها أمم جاءت على أعقابها ، على الرغم من أنهم يتلون كتاب الله ويسمعون عظاته ، ويوقنون ـ ظاهراً ـ بما فيه . فذلَّت وهانت ، وتمزَّقت بين قوى من سلَّطهم الله عليها .
وسيأتي لهذه الحقيقة مزيد بسط وتحليل إن شاء الله في أواخر هذا الكتاب .

نقول : إن اللغز محلول . وحلّه يتمثَّل فيما يلي : بدأ أولئك الناس ، فصححوا قبل كل شيء مفاهيمهم المغلوطة عن أنفسهم وهوياتهم ، ثم انتقلوا بعد ذلك فصححوا أغلاطهم عن تصورهم لمعنى الحياة التي يتمتعون بها ، ثم تعرَّفوا على حقيقة المكوّنات التي تطوف من حولهم ، وتنبَّهوا إلى العلاقة القائمة بينهم وبينها ؛ كل ذلك على ضوء ما بصَّرهم به القرآن ونبَّههم إليه ، وذلك بعد أن اجتازوا مرحلة اليقين بأنه كلام الله تعالى وخطابه الموجَّه إلى الصفوة المختارة من مخلوقاته .. ثم قاموا فجابهوا بهذه المعرفة التي تحققوا بها أُمماً لا تزال تائهة في أخطائها وضلالها عن معرفة ذاتها ، ومعرفة حقيقة العمر أو الحياة التي تتمتع بها ، والمكونات التي تزخر من حولها .

فماذا تنتظر من رجال علموا أن قيمة هذه الحياة إنما تكمن في التضحية بها وتقديمها قرباناً سخيّاً في سبيل الهدف الأقدس ، ألا وهو بلوغ مرضاة الخالق عزّ وجلّ وضمان السعادة الخالدة في العقبى ـ : ماذا تنتظر من هؤلاء الرجال ، عندما يقابلون أناساً اعتصروا الحياة نعيماً ، وسكروا بها حتى تطوحوا وغشّى السّكر ألبابهم ، ثم أقبلوا يقاتلون حفاظاً عليها وضنّاً بها ، وقد أيقنوا عند أنفسهم أن الموت هو النهاية المطلقة لكل وجود ونعيم !!..

☆ ☆ ☆

تلك هي صورة وجيزة عن بعض الآثار الحضارية التي تجلَّت في تلك المجتمعات التي أخذت نفسها بالتَّبصرة القرآنية عن حقيقة الحياة وقيمتها .

غير أن بوسعنا أن نزيد رؤية هذه الآثار جلاءً ووضوحاً ، ونتبيَّن مزيداً من دلائل اللزوم بينها وبين منهج القرآن إلى فهم الحياة والإنسان والكون ، إذا ما التفتنا فانتبهنا إلى الآثار السيئة التي تفشَّت في المجتمعات التي ضلَّت عن هذه التبصرة القرآنية ، وانطلقت تتعامل مع الحياة على أنها الفرصة الوحيدة السانحة للإنسان ، وعلى أنها اليوم

الذي لاغد من ورائه ، ولا عاقبة له إلا الزوال والعدم المطلق . وبذلك نجمع بين مظهري الطرد والعكس في البرهان التطبيقي على صحة ما نقول .

ولنتخذ من المجتمعات الأوروبية اليوم نموذجاً للنظر والاعتبار .

كيف ينظر الإنسان هناك إلى العمر الذي يتمتع به ؟.. إن أحدهم يُقبِل من الحياة على سرّ غامض مجهول ، لا يدري كيف تلبَّسه ولا يعلم إلى أيّ عاقبة سيؤول .

كل ما يتصوَّره منها أنها الفرصة الوحيدة لممارسة الوجود واقتطاف ثماره . فإذا خبت جذوة العمر ، فقد انقضى حظّ صاحبه من الوجود كله ، وعاد إلى ظلمات العدم المطلق !..

وبناء على هذا التَّصور ، يقبل أحدهم على الحياة ، كما يقبل الإنسان على حدث يقامر به !.. فهو يمارس حياته بنفس هائجة قد أيقنت أنها من طوايا هذه الحياة أمام حظ .. حظ واحد لا يتبدل ولا يُنسخ ولا يعود . فإما أن يرى فيه برج سعادته أو يُفاجأ منه بأسباب شقائه !..

فتصوَّر ، وقدِّر حال نفس إنسانية تشعر بأنها أمام مائدة قمار لا خيار لها في الإعراض عنها أو الإقبال عليها ، وهي ليست مقامرة بمال يذهب ويعود ، بل بمضمون هذا العمر كله . فإما أن تكتسي منه بُرد السعادة والنعيم ، ثم يأتيها الموت وفي نفسه منها أصداء اللّذائذ وآثار النَّشوة ؛ وإما أن ينغمس منها في عذاب وشقاء ، ثم يتخطَّفه الموت ، وهو يعاني من غصّة أنه رأى بوارق السعادة ولم يذقها ، ولاحت له مظاهر النعيم دون أن تدنو إليه فيلمسها !.. تصوّر حالة هذه النفس كم تكون هائجة ومضطربة ، وكم ينال منها القلق بكل ماله من عواقب الألم والأسقام !..

وإنك لتعلم أن صاحب هذه النفس الملتاعة ، سيكون بعد ذلك أحد رجلين :

فإما أن يطالعه من الحياة حظ عاثر ـ كما يراه هو طبعاً ـ فتطوف به النَّكبات ،

وتمسّه المصائب والآلام ، ويمضغه الفقر والأسقام . فشأن هذا الإنسان عندما يجرّ نفسه جرّاً في فجاج الحياة ، كشأن من قضي عليه أن يسير في نفق مظلم طويل ، وقد أيقن أنه مسدود النهاية . هل تتربّص به سوى اختناق أو انتحار ؟

وإما أن تقبل إليه الحياة بأسباب الرغد والنعيم ، ويتيسر له سبل السعادة ولذائذها ، والشأن في مثل هذا الإنسان أن يهيج نحوها بنفس ثائرة ، مسابقاً إليها احتمالات الزمن ، وطوارئ الأحداث والظروف . ولا بدَّ أن يبعث طاقته كلها أوزاعاً هنا وهناك ، ليلملم ويلتقط كل ما يلوح له من مظاهر اللذة وأسباب النعيم في أسرع وقت ممكن . ولا بدَّ أن يتفنَّن ويستنجد بالحيل المختلفة لإبداع مظاهر وأنواع جديدة من المتعة واللذة ، بحيث كلما تقادمت في حياته متعة مما قد ألفه وملّه ، تجاوزه بحثاً عن لذة مستحدثة ، لم تملّها النفس بعد .

غير أن الواقع الذي يفرض نفسه ، أنه لا بدَّ أن يصل إلى عصارة النعيم وزبدة اللذائذ ، فيضطره الحال إلى أن يقعد ويجترّ متعته التي استعصت على مزيد من التطوير والاعتصار . وعند ذلك يبدأ فيشعر بالسآمة والملل ؛ ضرورة أن لذائذ الحياة محدودة ، والنفس الإنسانية بطبيعتها ملولة . وقد استنفدت الحياة ذخرها ولذائذها ، حتى عادت من كثرة اجترارها والتكرار لها عصارة تافهة ، ليس من ورائها شيء !.. هنالك لا بدَّ أن تغشّي السآمة على القلب ، وأن يستبدَّ به الضَّجر ؛ فيضيق صاحبه ذرعاً بالحياة ، ويختنق ضمن ما قد سئمه من مظاهر التَّرف والنعيم ، كما يختنق دود القزّ وسط لفافات الحرير . ثم إنه لا بدَّ أن يَلجأ بعد ذلك إلى إحدى نهايتين :

إما أن يسلمه الضجر والضيق إلى اضطراب فكري يسلمه أخيراً إلى لون من ألوان الانتحار .

وإما أن تزجَّه حاله تلك في بعض الأمراض العصبية أو العقد النفسية ، وتستحكم به عوادي القلق والاضطراب ، فيتخذ من العيادات النفسية ملجأ ومثابة له ، ويتنقل من واحدة إلى أخرى .

والعيادات النفسية (وما أكثرها اليوم في تلك الربوع) لا تعالج مرضاها إلا بالكلمات الخادعة والأوهام الباطلة . فلا يتحول عنها المرضى إلا وهم أسوأ مما كانوا . وإنما مردّ أحدهم بعد ذلك أن يصبح كلاً على مجتمعه ، يعيش مع الشاردين والشاردات ، على هوامشه وبين جنباته بدلاً مما كان يرجى له : أن يكون عضواً عاملاً في مجتمعه .

ولست أنسج حديثي هذا من خيال يتوهم كما يشاء . بل إنني أنقل بإيجاز شديد ، وبعد اختصار لحقائق الأمور ، وتصغير لصورها إلى أجزاء أجزائها ـ : أنقل صورة الحياة القائمة اليوم في كل من ربوع أوروبا وأمريكا . يعلم هذا كل من له زاد من الثقافة والدّراية ، لأحوال العالم وأوضاعه اليوم .

وإلاّ فمنذا الذي يجهل أن الإحصائيّات التي تتكرر كل عام عن أعداد المنتحرين في الولايات الأمريكية تتزايد عاماً إثر عام ، وأنه وباء استشرى في صفوف الأثرياء والمترفين والمثقفين أكثر مما يظهر في بيوت الفقراء والجهّال والعاطلين .

ومن الذي يجهل أن أزمة الهيبّيين والمتشرّدين ، وجمعيات المجرمين المحترفين ، وأرباب الشذوذات النفسية والجنسية ، وهستيريا الفلسفات الجنونية البعيدة عن ضوابط المنطق والعقل ـ : من الذي يجهل أن أزمة انتشار هذه الفئات واتّساع عدوانها ، إنْ هي إلاّ بعض من آثار الضياع عن معرفة حقيقة الذات ، وهوية العمر الذي يتمتع به الإنسان ، وعن معرفة مصدره ومنتهاه وعلاقته بما سيفجأ الإنسان بعد موته من حقائق وأحداث !!..

ومن الذي يجهل ـ لو أحبَّ أن ينصف ولا يتجاهل ـ أن من شأن هذه المآسي التي هي آثار طبيعية للذي قلناه وأوضحناه ، أن تقوض مدنية الغرب وحضارته من أساسها ، وأن تستعجل الزمن قدوم يوم تنظر فيه إلى تلك البلاد والديار ، فلا ترى عليها من مظاهر هذه الحضارة إلاّ الآثار والذكرى ، ولا تسمع من بقايا ضجيجها سوى الأصداء .

ويـا عجبـاً !.. هـل الحضـارة في أهم مـا ينبغي أن تمتـاز بـه من الفـوائـد إلا أداة لتحبيب الحياة إلى الإنسان . ووصْل ما بينهما برباط الأنس والابتهـاج .. ولكن هـا هي ذي تنفّر أهليهـا من الحيـاة بـدلاً من أن تشوقهم إليهـا وترغبهم فيهـا . بـل هـا هي ذي وسـائل الانتحـار تتطور وتتحسن ، وهـا هم أولاء الـلاهثـون وراء المـزيـد من المـال ، يتنبهون إلى إمكان استغلال موارد ماليّة جديـدة ، من وراء اختراع وسـائل حـديثـة ، لطيفـة ، ومريحـة للتخلص من الحيـاة !.. بـل إن حـديث النـاس بعضهم لبعض عن الانتحار ، غدا شيئاً مألوفاً لا يثير أي غرابة أو اشمئزاز ، ولا يقبل في باب اللياقـة ، أي تدخل أو اعتراض !..

تقول السيدة إميلي براملت ، وهي تروي موجزاً عن قصة حياتها وآلامها النفسية ، قبل أن تهتدي إلى ملاذ الإسلام وهديه :

« .. لقد ذهبتُ إلى الطبيب النّفساني التابع للجـامعـة ، فقـالت لي المرضـة : إن مواعيده قد مُلِئَتْ لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم سـألَتْ : هل أسجِّل اسمـك في الـدور ؟ فقلتُ لهـا : لا تسجِّلي . فـإمـا أن تتغير الظروف التي لا أطيقهـا ، وإمـا أن تُحلَّ المشكلـة عن طريق الانتحار !.. فكانت ممتنّة لهذا التَّسهيل مني ، لأن الطبيب مشغول جداً »[1] .

شيء طبيعي جداً (كما ترى) أن تسمع المرضة من فتاة في ريعان الشبـاب عزمهـا على الانتحار دون أن تبدي أي اهتمام أو تقوم بأي استفسـار . وليس في الأمر مـا يـدعو إلى أي دهشة . بل لعل المرضة شعرت أنـه ليس من الليـاقـة أن تتـدخل فيما ليس من شأنها وتسألها : لِمَ ؟ لذا لم تشعر إلا بواجب تقديم الشكر والامتنان لهـا ، أنْ حلَّت لهـا المشكلة ، وأخرجتها ـ في مجال اللياقة الأخلاقية التي يجب أن تعـامل بهـا الزبـائن ـ من مأزق حرج !!

فهذا الوباء النفسي المذهل ، الذي ملأ ديـار الغرب بـالعيـادات النفسيـة ، وجعل

---

(١) انظر كتاب (آمنت بربكم فاسمعون) لإميلي براملت ، التي أسلمت وسمّت نفسها (أم محمد) ص ٧١ .

التحول إلى مهنة التطبيب النفسي ، أيسر سبيل إلى أعظم ثروة ـ: إنما هو ثمرة طبيعية لضياع أولئك الناس عن معرفة حقيقة هذه الحياة ، وعن إدراك مصدرها ومنتهاها ، معرفة مطابقة للحقيقة والواقع .

وهذا الوباء النفسي ، هو الذي يفسِّر خضوع كثير من الناس في تلك المجتمعات ، لدين لا يسايره العقل ولا يؤيده العلم . إذ إنهم يرون في الخضوع له ما يشبه المسكّن لآلامهم واضطراباتهم النفسية ، حتى وإن ظلت عقولهم محجوبة عن فهمه والاقتناع به .

بيد أن الاستسلام لدين لا يتَّفق معه العقل ، مبعث لمشكلة نفسية واجتماعية أخرى ، يطول شرحها والحديث عنها . فلذلك انشطرت المجتمعات الغربية تجاه ذلك إلى قسمين : قسم يتمثل فيمن فضلوا الخضوع النفساني للدين ، حتى وإن رفضه العلم والعقل ، وهم الذين يُسمَّون هناك الاعتقاديين . وقسم يتمثل فيمن فضلوا البقاء مع مقتضيات المنطق والعلم ، حتى وإن اقتضاهم ذلك التضحية بطمأنينة الدين وفضله . وهم الذين يُسمَّون عندهم بالعلميين .

ومن صراع ما بين هذين الفريقين ، ظهرت مذاهب اجتماعية وفلسفية شتى . كالمذهب الذرائعي ، الذي رفع لواءه وليم جيمس[(١)] ، وكالمذهب الوجودي الذي قاده جان بول سارتر ، وكالمذاهب الماركسية المتنوعة التي اتخذت مؤخراً أشكالاً فكرية واقتصادية شتى .

وهذه المذاهب ، في مجموعها ، تعبير دقيق عن هذه المشكلة النفسية الخطيرة ، التي تعصف بالمجتمع الغربي أجمع ، وليست بحال من الأحوال تعبيراً عن أيّ حلّ لها .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فتلك هي الآثار الحضارية ، التي تركتها التجربة القرآنية ، في نطاق

---

(١) عالم نفساني ، وأستاذ علم النفس بجامعة هارفرد بأمريكا . وصاحب كتاب الذرائع ، وإرادة الاعتقاد .

تعريفه الإنسان على حقيقة هذه الحياة التي يعيشها ، رأيناها واضحة نيّرة من خلال المجتمع الإسلامي وعصره الذهبي .

وهذه هي الآثار الحضارية الأخرى ، التي جاءت نتيجة ضلال الإنسان عن تلك التبصرة القرآنية ، وأثراً من آثار جهله لهوية حياته وحقيقة عمره الذي يتمتع به ، رأيناها هي الأخرى ماثلة بمآسيها وآلامها في المجتمعات العربية التي تعيش اليوم ـ بكل تأكيد ـ نهاية عمرها الحضاري .

وعليك أن تعلم بعد هذا ، بطبيعة الحال ، أن الشعوب الإسلامية ، بمقدار ما تتعرض لهذا الضلال ، الذي يعصف بالمجتمعات الغربية ، تائهة عن تبصرة هذا الكتاب الرباني ، يتسلل إليها من ذلك المرض ، بل الوباء النفسي ، ما يتكافأ مع قدر ضلالها الذي تنغمس فيه ، وبمقدار ما تقترب إلى ضياء هذه التبصرة القرآنية ، وتتشبع به ، تنال بنسبة ذلك حرزاً ووقاية من تلك الآفات المهلكة .

فانظر ... وقس ... وحلل الظواهر والأسباب ... وتأمل حالة الدول الإسلامية وشعوبها ، قديماً وحديثاً ، تجد الأمر تابعاً بدقة لهذا المقياس ، ولكن مع ملاحظة واحدة : هي أن تأخذ بعين الاعتبار مسألة موقف الإنسان من الكون الذي يعيش فيه ، وحديث القرآن له في ذلك .

وهذا ما سنباشر الحديث عنه فوراً بتوفيق الله .

مَا هُوَ ٱلْكَوْنُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

يتحدث القرآن عن الكون[1] حديثاً مسهباً ، من جوانب متعددة .

فهو يعرّفنا ، قبل كل شيء ، من الكون ، على صفحة نقشت عليها براهين وجود المكوِّن ودلائل وحدانيته ، نقشاً يتبيّنه العالم والجاهل ، والأمي والقارئ .

ثم يلفت نظرنا إلى أنه جملة مخلوقات ومظاهر ، سُخِرّتْ لخدمة الإنسان وتحقيق مصالحه ورعاية أسباب حياته ورفاهيته .

ثم ينبهنا إلى أن هذه المكونات مع ذلك مظاهر أخاذة خادعة ، ويحذّرنا من الانخداع بها والركون إليها .

ولكنه يعود فيدفعنا إلى استخدامها والاستفادة منها ، ويبصرنا بأنها ذات أهمية لإقامة أسباب عيشنا وترسيخ مجتمعنا ، ويحذرنا من تجنبها أو التحرج من التمتع بها .

تلك هي خلاصة عن الجوانب التي يتناولها القرآن من حيث الكون ، بالشرح والبيان ، فلنبدأ بتفصيل هذا الإجمال ، وتحليل قرارات القرآن بالنسبة لكل من هذه الجوانب على حدة ، على أن نتحدث بعد ذلك عن صلة هذه الجوانب بعضها ببعض ، وعن وجه التكامل والتناسق بينها ، ثم عن أثر معرفة الإنسان لذلك كله في تبصيره بالجادة المثلى إلى إنشاء الحضارة الإنسانية الراسخة .

☆ ☆ ☆

إنّ أهم ما يلفت القرآن نظرنا إليه ، من حقيقة هذه المكونات المحيطة بنا ، هو أنها

---

(١) الكون هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، فهو بمعنى المكوَّن ، والمقصود به كل ما عدا الإنسان من المظاهر الكونية التي نراها من حولنا .

لسان ناطق وبيان قاطع ، ينادي نداء يفهمه كل ذي عقل وفكر ، بأن هـذا الكون من صنع صانع وتـدبير مـدبر ، فهو عنوان جليّ بـارز على وجود هـذا المكون ووحـدانيتـه ، وعلى أنه متصف ـ بمقتضى ذلك ـ بسائر صفات الكمال مبرأ عن جميع صفات النقصان .

ذلك لأنك تتأمل هـذه المكونـات ، فتراهـا منطويـة على أبرز مظـاهر الحكمـة في الإبداع ، وعلى أدق معاني التدبير الهادف في علاقة ما بينها ، وهما ، فيما يجمع عليه علماء الفلسفـة والحكمـة والمنطق ، من أبرز مستلزمـات وجود الإرادة والقصـد ، وهل تتحقق إرادة بدون مريد أم هل يتحقق قصد بدون قاصد ؟

والآيات التي تلفت أنظارنا وأسماعنا إلى بيان الكون هذا ، كثيرة ومتنوعة ، نذكر منها هذه الآيات :

ـ ﴿ قُلِ انظُروا ماذا في السَّمواتِ والأَرضِ ﴾ [يونس : ١٠/١٠١] .

ـ ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّـذينَ كَفَروا أَنَّ السَّمواتِ والأَرضَ كانَتـا رَتْقـاً فَفَتَقْنـاهُما ، وَجَعَلْنـا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حَيٍّ أَفَلا يؤمِنونَ ، وَجَعَلْنَا في الأَرضِ رَواسِيَ أَن تَميـدَ بِهِمْ ، وَجَعَلْنـا فِيهـا فِجـاجـاً سُبُلاً لَعَلَّهُم يَهتَـدونَ . وَجَعَلْنَـا السَّماءَ سَقْفـاً مَّحْفوظـاً ، وَهُم عَن آيـاتِهـا مُعْرِضونَ . وَهوَ الَّـذيْ خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهـارَ والشَّمسَ والقَمَرَ ، كُلٌّ في فَلَـكٍ يَسْبَحونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١/٣٠ ـ ٣٣] .

ـ ﴿ إنَّ اللهَ فـالِـقُ الْحَبِّ والنَّـوى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مَنَ الْمَيِّتِ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذلِكُمُ اللهُ فأنّى تُؤفَكُونَ . فالِقُ الإصْبـاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنـاً والشَّمس والقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ . وَهوَ الَّـذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَـدوا بِهـا في ظُلُماتِ الْبَرِّ والبَحْرِ ، قَد فَصَّلْنا الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمونَ ﴾ [الأنعام : ٦/٩٥ ـ ٩٧] .

فأنت ترى أن هذه النماذج الكونية سيقت في هذه الآيات مساق الاستدلال بها على وجود المكون جلّ جلاله . ومناط الاستدلال بهـا على ذلـك ـ كما يلفت القرآن نظرنـا ـ

هو ما يلاحظ من أنها تؤدي في حياة الإنسان عللاً غائيـة جليّـة لكل ذي بصيرة وفكر ، وأنت تعلم أن العلة الغائية لا تصدر إلا عن القصد والتدبير ، والربط والتقدير .

والآيـات التي سيقت في كتـاب الله هـذا المسـاق ، كثيرة ، كما أوضحنـا ، ولكن لا يعنينا أن نتوسع في الاستدلال بها ، والحديث عنها في هذا الصـدد ، إذ هي مما يجـدر تفصيل القول فيه عند الحديث في الأمور الاعتقاديـة وعرض البراهين على وجود الله عز وجل .

ولكن لا بـــدّ أن نلفت النظر ، إلى أن تثبيت اليقين بـوجـود الله عـز وجـل ووحدانيته في عقل الإنسـان وفكره ، ـ سواء أكان ذلـك بـالبراهين الكونيـة أو البراهين العلميـة الأخرى ـ هـو الخطـوة الضروريـة الأولى على طريـق السعى لتكـوين الأسرة الإنسانية السليمة ، أو الحضارة الإنسانية المثلى إن شئت أن تسميها كذلك .

فمن دون هذه الخطوة الأساسية ، التي تعدّ بالنسبة إلى ما يليها بمثـابـة الجـذور من الشجرة ، لا يستقيم شيء من الخطوات أو المراحل التـاليـة على أي نحو مفيـد ، وسنجـد أدلة ذلك فيما بعد .

إذ من الطبيعي أن الإنسان لن يلقي أذناً صاغيـة إلى التعليمـات التي يتلقـاهـا عن هويّته ، وحقيقة العمر الذي يتمتع به ، وكيفية استفادتـه من المكونـات التي حولـه على الـوجـه الصحيـح ـ : إلاّ إذا وقر في نفسـه واستقر في عقلـه أن الـذي يلقي إليـه هـذه التعليمات إنما هو خالق هذا الكون كله رب العالمين .

ولكي يوقن بـذلـك ، لا بـدّ من أن يستيقن أولاً وجود الله ووحـدانيتـه ، فـاقتضى الأمر ، من أجل ذلـك ، أن تكون فـاتحـة الحـديث القرآني عن الكـون لفت النظر إلى ما ارتسم عليـه بجلاء لا مزيـد عليـه ، من براهين وجود الله عز وجل ، لكل ذي بصيرة حرة وعقل سليم .

ثم إن القرآن ينقلنا ، بعد ذلك ، إلى بيان آخر عن الكون ، يلي البيان الأول في الأهمية والترتيب .

إنه ينبه الإنسان إلى أنّ جل ما يراه حوله من أشياء الكون ومظاهره ، مسخّر من قبل الله عز وجل ، لخدمة الإنسان ، وتدبير أسباب عيشه ، وتحقيق شروط رفاهيته وأمنه ، وإلى أن الله تعالى قد أقام بينها وبين الإنسان نسباً من الفكر والعقل ، فهي ليست مستغلقة على النظر والفهم ، بل خاضعة في معرفة كلياتها ودقائقها لجهر التأمل والبحث .

وهو يلفت النظر ، من خلال ذلك ، إلى أن أكثر هذه المكونات خاضع للتطوير والتحوير حسب ما يقتضيه السير مع مصلحة الإنسان ، إذا ما اتجه الإنسان بما أوتيه من فكر وقدرات إلى ذلك ، فلا عليه إذن أن يسعى سعيه للتأمل فيها والاستفادة منها وإدخال ما قد يراه مناسباً من أسباب التطوير عليها .

تأمل في هذه الآيات ، وهي طائفة يسيرة من حديث القرآن لنا عن الكون من هذا الجانب :

ـ ﴿ أَلَمْ تَرَوا أَنَّ اللهَ سَخَّر لَكُم مَّا في السَّموات ومَا في الأرضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً ، وَمِن النَّاسِ مَن يُجادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلمٍ وَلا هُدًى ولا كِتابٍ مُّنيرٍ ﴾ [لقمان : ٣١/٢٠] .

ـ ﴿ هوَ الَّذي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَّكُم ، مِّنهُ شَرابٌ وَمِنهُ شَجَرٌ فيهِ تُسِيمونَ . يُنبتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرعَ والزَّيتونَ والنَّخيلَ والأَعْنابَ وَمِن كُلِّ الثَمَراتِ ، إنَّ في ذلِكَ لآيةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ ، إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلُونَ . وَما ذَرَأَ لَكُم في الأَرضِ مُختَلِفاً أَلوانُهُ ، إنَّ في ذلِكَ لآيةً لِقَومٍ يَذَّكَّرونَ ﴾ [النحل : ١٦/١٠ ـ ١٣] .

- ﴿ وَجَعَلْنا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيَتَينِ ، فَمَحَونا آيَةَ اللَّيل وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُم وَلِتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ ، وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلْناه تَفصيلاً ﴾ [الإسراء : ١٧/١٢] .

- ﴿ أَوَلَم يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدينا أَنْعاماً فَهُم لَها مالِكُونَ ، وَذَلَّلْناها لَهُم ، فَمِنْها رَكُوبُهم وَمِنْها يَأكُلونَ ، وَلَهُم فيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشكُرونَ ﴾ [يس : ٣٦/٧١ ـ ٧٣] .

- ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً ، فامشُوا في مَناكِبِها ، وكُلوا مِنْ رِزْقِهِ وَإلَيهِ النُّشورُ ﴾ [الملك : ٦٧/١٥] .

- ﴿ وَلَقَد مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرضِ ، وَجَعَلْنا لَكُم فيها مَعايِشَ ، قَليلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧/١٠] .

تأمل ، في كلمات ثلاث ، تدور مع التعبير القرآني ، في هذه الآيات عن علاقة ما بين الإنسان والمكونات التي من حوله ، وهي : التسخير ... التذليل ... التمكين ... تجدها تعبّر فيما يقرره علماء اللغة العربية ، عن أبلغ معاني الإخضاع والإخدام .

فهي تقرر بأبلغ وسائل التعبير والبيان ، بأن الله تعالى قد أخضع المظاهر الكونية المختلفة للإنسان أيما إخضاع ، وحسبك من ذلك أنها تعكف على وظائف كونية شتى ، كلٌّ حسب ما أقامه الله فيه وهيأه له . ولكن هذه الأعمال والوظائف المختلفة كلها ، تدور على محور المصلحة الإنسانية ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وانظر إذا شئت في نظام الأفلاك وحركتها ، والكواكب مع أبراجها ، والأرض ودورانها ، وتأمل في السحب والمياه والبحار ، والتراب والدواب والأنعام ، وفي مسرى الرياح ونمو النبات والأشجار تجدها جميعاً ، عاكفة على خدمات نوعية شتى ، من شأنها أن تنسج مقومات الحياة الآمنة ، والعيش الرغيد للإنسان .

وهي تقرر أيضاً أن الله عز وجل ، قد أذلّ هذه المكونات لمعرفة الإنسان ، ثم أمكن القدرة الإنسانية من التحكم بها والتطوير لها واستخراج الجديد من وجوه الفائدة منها . إذ إنك لا تقول : إن فلاناً تمكن من كذا ، إلاّ إذا امتدت قدرته إلى التحكم به واستغلاله على الوجه الذي يريد .

فالآيات تنصّ إذن ، بدلالة لا تقبل الريب ، على أن الله تعالى أخضع هذه المكونات لكلتا القدرتين : العضلية والفكرية في الإنسان ، وأذلّها لكثير من آماله ومطامحه .

ألا ترى إلى كلمة « ذلولاً » في قوله عز وجل ﴿ هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً ﴾ وهي صيغة مبالغة بمعنى مذلَّلة : كيف صورت الأرض ، وكأنها مائدة وضعت بين يدي الإنسان ، بكل ما في باطنها من ذخر ، وبكل ما على ظاهرها من خير ، ليعمل فيها قدرته العضلية ومواهبه الفكرية ، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفع !.

وإلى كلمة « ذللناها » من قوله تعالى ﴿ أَوَلَم يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم مِّمّا عَمِلَتْ أيدينا أنعاماً فَهُم لَها مالِكُون ، وذَلَّلناها لَهُم فَمِنْها رَكُوبُهم وَمِنها يَأكُلونَ .. ﴾ كيف صورت إخضاع الله هذه الحيوانات المختلفة لحاجات الإنسان ومنافعه ، وذلك على الرغم مما تتمتع به من قوة تجعلها تستعصي على الخضوع والانقياد ، لو أن الله أمكنها من استعمال هذه القوة في مجابهة الإنسان !..

وأنت لا تستطيع أن تتصور المدلول العظيم لكلمة « ذللناها » في هذه الآية ، إلا عندما تعلم أن معظم هذه الحيوانات : كالبغال ، والأبقار ، والخيول ، يتمتع بقوة تفوق التي يتمتع بها كثير من السباع الهائجة الضارية ، ولكنها تنقاد ، مع ذلك ، للطفل الصغير ، وتخضع للزمام الذي يقودها الإنسان منه إلى حيث يشاء !..

وهكذا يُطمْئِنُ اللهُ الإنسان ، من خلال تقريره هذا عن المظاهر الكونية التي من حوله ، ومن خلال تبصيره بها وتعريفه عليها : إلى أن هذه المكونات المختلفة ليست إلا خدماً وحشماً له ، فهي تنتظر إشارته ، وتسعى في رعايته ، فلا يستوحشن منها ، بسائق جهل أو بدافع استعظام أو استغراب ، وإن له في هداية العقل الذي يتمتع به ، والعلوم التي هي تحت سلطانه ، ما يبدد عنه آثار أي وحشة أو ظلام أي غاشية .

وبهذا تعلم أن علاقة ما بين الإنسان وهذه المكونات ، لم تكن يوماً ما ، علاقة تحدٍّ وصراع ، مهما أوغلت بخيالك في الماضي البعيد ، واقتحمت بفكرك مع الإنسان إلى أغوار تاريخه السحيق ، فما صارعها الإنسان في أي عهد من الدهر ، ولا صارعته ، وما حجب عنها يوماً ما بغير حجاب غفلته وجهله ، على أنه لم يكن محكوماً عليه يوماً ما بحجاب هذه الغفلة والجهل ، بل كان ولا يزال أمر هذا الحجاب ، إرخاء وتمزيقاً ، عائداً إليه هو ، بقطع النظر عن عقيدته ودينه .

ولذا ، فليس لما يعبّر به بعض السطحيين أو بسطاء الباحثين ، من كلمة « تحديات الطبيعة » أيّ مدلول في ميزان العلم أو الوقائع والأحداث التاريخية ، فلا الإنسان عاش يوماً ما مجرداً عن مزية العقل والفكر[1] ولا التي يسمونها « الطبيعة »

---

(١) يقول الأسطوريون : إن الإنسان عاش دهراً طويلاً ، لا يتمتع بأي فكر أو عقل ، وأنه كان خلالها متوحشاً يأوي إلى الكهوف ، ويعيش في الغاب ، ويتقلب مع الحيوانات المختلفة ، ثم إنه انخرط في بوتقة المجتمع الإنساني ، فأورثه ذلك بعد حين (بواسطة عوامل الاحتكاك والمشاعر التي تنبهت في كيانه) عقلاً يفكر به ولغة ينطق بها !..

فجرد نفسك ما استطعت من نعمة العقل والمنطق ، ثم قل لي أفتستطيع أن تهضم هذه الأسطورة وأن تلزم نفسك بالاقتناع بها ؟!..

لماذا لم تنخرط الحيوانات المختلفة هي أيضاً في مجتمعات لها ، حتى تكسب هي الأخرى العقل والفكر واللغة ، مادام أنهم جميعاً كانوا يعيشون في مستوى واحد من الصفات والإمكانات ؟ ثم ها هي ذي الحيوانات الأليفة تنخرط في مجتمعات إنسانية عاقلة ، وتظل على ذلك طول حياتها ، فما لها لا تكتسب من ذلك ثقافة ولا علماً ؟... ومع هذا كله فمن الذي يجهل أن إنشاء المجتمع المتعاون يتوقف على أعمق درجات الفكر والذكاء لدى الإنسان ، بقدر ما يتوقف على غريزة دقيقة لدى الحيوانات الأخرى ؟ =

وقفت تجاه الإنسان بأي تحد أو تمرد . بل النسب قائم ومتين بينهما منذ أن أبدع الله كلا الخليقتين . وليس ثمة إلا شرط واحد لتغذية هذا النسب القائم بينهما واستخراج ثماره ، ألا وهو إعمال الفكر والعقل ، واستخدام وسائل البحث والعلم .

على أن هذا الشرط ، ليس وقفاً بدوره على مؤمن من دون كافر ، أو صالح دون فاجر بل هو عام شامل للناس جميعاً بقطع النظر عن أديانهم ، وعن قربهم أو بعدهم عن الله عز وجل .

فكل من مزق حجاب الجهل بينه وبين هذه المكونات ، أو ما يسمونه هم بالطبيعة ، بواسطة أسباب الدراية والعلم ، خليق به أن يستدر الكثير من خيراتها ، وأن يقف على الكثير من أسرارها .

وكل من قبع تحت خباء جهله ، وأغمض العين عن النظر ، وأوقف العقل عن التأمل ، جدير به أن يبقى في غفلة عن الدنيا التي تطيف به ، أياً كانت نحلته ودينه .

☆ ☆ ☆

غير أن البيان الإلهي استثنى طائفة من الظواهر والأنظمة الكونية ، عن عموم هذه المسخرات والمذللات (على حد التعبير القرآني) بين يدي الإنسان . وأكد لنا أن هذه الطائفة المستثناة باقية وستبقى بعيدة عن أن تطولها يد أي تبديل ، مستعصية على كل أسباب التغيير أو التطوير ، فهي إذن لا تدخل في جملة ما قد ذلله للإنسان ، وأخضعه لإمكاناته الفكرية أو قدراته العضلية .

☆ من ذلك ظاهرة الموت التي جعلها الله تعالى قضاء مبرماً في حق كل من دخل في عالم الأحياء فليس من سبيل إلى التحرر منها أو القضاء عليها ، مهما كانت الوسائل

= والعجيب أن يتشدق هؤلاء الأسطوريون بعد هذا كله بألفاظ العلم ، وأن ينعتوا أمثالنا بالغيبيين !... واقرأ تفصيل هذا البحث في كتابنا نقض أوهام المادية الجدليه ص١٤٦ فما بعد .

والأسباب ، وليس من سبيل إذا نزل الموت بساحة إنسان إلى صرفه أو تأخيره عنه بأي طريقة أو علاج [1] .

وحسبك لتدرك مدى شمول هذا القرار الرباني أن تتأمل قوله تعالى : ﴿ أَيْنَما تَكونوا يُدْرِكُّكُم الْمَوْتُ وَلَو كُنْتُم في بُروجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨/٤] .

☆ ومن ذلك ما قد قضاه الله عز وجل لحكمة يعلمها من حجب حقيقة الروح عن مدارك الإنسان وعلمه ، مهما ابتغى إلى ذلك من سبيل ومهما أوتي من العلوم والأسباب ، وحسبك دلالة على هذا قوله تعالى :

﴿ وَيَسْألونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ومَا أوتيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥/١٧] .

وأنت تعلم أن علماء الحياة حاولوا جاهدين أن يعلموا شيئاً عن خبيئة الروح أو جذور الحياة وبذلوا لذلك كل ما في وسعهم ، وجندوا له كل علومهم وأجهزتهم ، فانقلبت إليهم جهودهم كلها كليلة خاسئة ولم تأت من سعيها بشيء .

وليس الغريب أن يعترف علماء الحياة واحداً إثر آخر ، بعجز العلم عن الخوض في قضايا الروح والحياة ، ولكن الأغرب أن يقرّ « إنجلز » زميل ماركس وشريكه في وضع الفلسفة المادية الجدلية ، التي أُرغمت على القول بأن الحياة من مادة نشأت وإليها تعود ، بما يناقض فلسفته هذه ويحطمها تحطيماً ، فيقول ما نصه :

« إنه - يقصد العلم الطبيعي - لم ينجح بعد في إنتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى ، وفي الحقيقة أنه لم ينجح بعد في إنتاج الهيولى البسيطة أو

---

(١) لا يدخل في شيء من هذه الطرق ، استعمال تلك الأجهزة التي تصل إلى القلب ، فتطيل من حركته ونبضه فإن استمرار حركة القلب بهذه الطريقة الآلية لا تسمى حياة بوجه من الوجوه ، ولا يتمتع صاحبها بشيء من ثمرات الحياة من شعور أو إحساس أو إدراك أو نحو ذلك ، غير أن الحياة الحقيقية لا تزال في بعض الأحيان باقية ، فتأتي عملية ضخ القلب بهذه السبل الصناعية نوعاً من أنواع العلاج ، قد يكون له جدواه وأثره ، ما دامت شعلة الحياة الأصلية باقية .

الأجسام الآحينية الأخرى ، من العناصر الكيميائية ، وبالتالي فإنه ليس في مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة »[١] .

☆ ومن ذلك تلك السنة الكونية التي أبرمها الله عز وجل ، سواء فيما يتعلق بشخص الإنسان وكيانه ، أو فيما يتعلق بالظواهر الكونية التي من حوله ، مما أوضح الله في القرآن ثباته مع الزمن ، وتأبّيه على كل محاولات التطوير والتغيير ، مثل السنة الإلهية في سير الحياة الإنسانية من ضعف إلى قوة فضعف وشيبة . ومثل القانون الرباني الذي أخضع به الإنسان الحاجة الماسة إلى نبت الأرض وقطر السماء وضروع الأنعام . ومثل قانون حركة الكواكب والأفلاك ، فإن الإنسان لا يستطيع أن يغير شيئاً من نظام الشمس أو القمر أو الأرض ، مهما أوتي علماً ، ومهما ابتغى إلى ذلك من سبيل ، نعم يستطيع أن يتحكم في طاقة الشمس دون ذاتها ، وأن يستعمل علمه ومداركه في تطويرها وتوسيع سبل الفائدة منها ، وذلك هو المقصود بتسخير الشمس للإنسان في الآيات التي مر ذكرها .

ومن الدلائل على هذا ، آيات من كتاب الله عزّ وجل ، منها :

- ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قوَّة ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : ٥٤/٣٠] .

- ﴿ وَمَن نعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الْخَلقِ أَفَلا يَعْقِلونَ ﴾ [يس : ٦٨/٣٦] .

- ﴿ لا الشَّمسُ يَنبغَي لَها أَنْ تُدْرِكَ القَمَر وَلاَ اللَّيلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبحَون ﴾ [يس : ٤٠/٣٦] .

ثم إن هذا الاستثناء الذي يوضحه البيان الإلهي من عموم الآيات التي تتحدث عن تسخير المكونات للإنسان ، ينطوي على تنبيه للإنسان إلى أن الإذلال الذي أخضع الله به المكونات لمصلحة الإنسان وسعيه ، إنما رتّبه وفق سنن ثابتة ونظام لا يتبدل ،

(١) أنتي دوهرنغ لإنجلز ، ترجمة فؤاد أيوب ص٩٠ .

فلا يأتي التسخير والتمكين والتذليل إلا ضمن سلطان هذه السنن الثابتة ، وبعد الانضباط بقيود الأنظمة الراسخة ، وذلك كي يكون الإنسان على بينة من السبل التي يسلكها ، عند سعيه ومحاولاته ومغامراته التي يقوم بها ، حتى لا يصطدم بتضاريس هذه الأنظمة الثابتة ، فيعالجها ويكدّ نفسه وفكره في شأنها دون جدوى .

وإنها لحكمة كبيرة من البيان الإلهي ، أن يعرف الإنسان من الكون على الثوابت التي فيه ، والتي لا جدوى من محاولة تغييرها أو زحزحتها ، وعلى المتغيرات التي أخضعها الله تعالى لقدرات الإنسان وعلمه ووجود الحيلة لديه ، وذلك كي لا يطول عليه الوقت بدون موجب ، ولا يذهب جهده هدراً عندما يريد أن يسعى سعيه إلى تسخير هذه المكونات لما هو بصدده ، من إقامة الحضارة الإنسانية المثلى .

وقد كنت أقرر هذه الحقيقة مرة في بعض المؤتمرات ، وأوضح هذه النواميس الكونية الثابتة في قرار الله تعالى وحكمه . فقام أحدهم يقول :

إن من شأن هذا الكلام أن يثبط الناس عن المحاولة ... وأن يقيد عزائمهم عن الاتجاه إلى الأنشطة العلمية ، وعن الدخول في ميادين التجربة والبحث !..

فهل الأمر في الحقيقة كذلك ؟

إن الواقع (كما أوضحت آنذاك) أن هذه القرارات القرآنية المبرمة عن النواميس الكونية ، إنما تبعث المرتاب على التجربة وتدفعه إلى المحاولة من خلال كونها تحديات لأصحاب الريب والشكوك ، على نقيض ما يتوهم هذا القائل وأمثاله .

بل إننا نقول : إن الذين يسمعون هذه القرارات القرآنية ، أحد فريقين :

إما فريق جاحد ، فهؤلاء يهيجون ويندفعون إلى النظر والتجربة أملاً في أن يكسروا طوق هذا التحدي القرآني ، ليعلنوا بذلك للناس أنهم من كفرهم وجحودهم بالله على حق !..

وإما فريق موقن ومصدق بالله عز وجل ، فالشأن في هؤلاء أن ينشدوا مزيداً من الطمأنينة في الإقبال على النظر والبحث والتجربة ، ومعاذ الله أن يكون ذلك منهم دليل جحود أو ارتياب .

وقد سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يُحيي الموتى ، وقد علمنا أنه لم يكن يعاني من أي شك أو ارتياب ، ولكنه كان ينشد بذلك مزيداً من الطمأنينة[1] ، وقد استجاب الله دعاءه وأراه تطبيق قراره الغيبي ، وقد كانت هذه الاستجابة دليلاً على أن تطلع إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى معرفة الكيفية التي يتم بها إحياء الموتى ، ليس مخالفاً لليقين الغيبي الذي لا بدّ منه .

وقد علمت أن تأكيد القرآن بأن أحداً من الجن والإنس لن يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن ولا بمثل سورة منه ، لم يثبط العرب عن محاولة الإتيان بمثله ، ولم يمنعهم من التجربة ، بل الذي تم عكس ذلك تماماً ، فقد حاولوا وسعوا جاهدين ... ولولا سعيهم هذا لما ظهر لهم صدق التحدي الإلهي ، ولما ثبت لهم فعلاً أن كلا الثقلين من إنس وجن ، لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وهكذا ، فليطمئن كل باحث وعالم إلى أن شيئاً من هذه الآيات التي تقرر ثبات النواميس الكونية واستعصائها على أي محاولة للتغيير والتطوير ، بل استعصاء بعضها حتى على الدراية والفهم ، أقول : إن شيئاً من هذه النصوص لا يأمر الناس بأن يغلقوا معاهد البحث والنظر ، ولا ينهاهم عن مواصلة تجاربهم ومحاولاتهم العلمية على اختلافها ، كما لا يأمرهم بأن يغضوا الطرف عن هذه النواميس وأن يسدلوا عليها حجاب الخشية والرهبة ، أدباً واحتشاماً مع قرارات الله تعالى في حقها ، بل العكس هو

---

(١) الطمأنينة هي التخلص من إلحاح الفكر وتساؤلاته : كيف يتم هذا ، وعلى أي نحو ؟.. ولا يشترط أن يكون مبعث تساؤلاته شكا أو جحوداً ، بل هو بالنسبة للمؤمن بالله عز وجل ، لا يزيد على كونه تطلعاً عقلياً إلى معرفة كيفية وقوع أمر غريب .

الصحيح ، عليهم أن يبحثوا ... ولهم أن يقلبوا ويجربوا ... وأن يحاولوا معرفة مدى احتمال أن يكون هذا الكلام غير مطابق للحقيقة .. فإن ذلك خير ما يحملهم أخيراً على تصديق بيانات الله تعالى وعلى اليقين بأنها من كلام الله عز وجل ، إن كانوا قبل ذلك شاكين أو منكرين ، وهو خير ما يزيد إيمانهم رسوخاً ، ويبعث فيه روح الطمأنينة إن كانوا قبل ذلك مصدقين وموقنين .

☆ ☆ ☆

فإذا تعرف الإنسان على هذه المكونات التي يراها من حوله ، وأدرك صلة ما بينه وبينها ، وأيقن بأن الله عز وجل ، ما أقامها إلا في خدمة الإنسان وتحقيق مصالحه ، وأنها لذلك مذللة ومسخرة له على أتم وجه . فإن القرآن يبدأ فينبهه إلى حقيقة قيمتها وإلى مدى أهميتها ، ويحذره من أن ينخدع بها أو يعرض عنها ، فيضعها بسبب ذلك فوق مرتبتها الحقيقية أو دونها .

وإنك لتنظر فتجده يؤكد بأن معظم هذا الذي يبرق في الأعين مرآه ، وتستهوي النفس لذته ، إنْ هو إلاَّ سراب باطل ، وظل زائل ، وخيال عابر : وأنه أشبه بالرؤى التي يمرّ بها النائم ، يظن وهو في نومه أنه أمام حقائق يمارسها ويتقلب فيها ، فما هو إلا أن يستيقظ حتى يعلم أنه كان في حلم لا حقيقة له .

وإن القرآن ليفيض بالآيات التي تتفنن في إبراز هذه الحقيقة ، وتبالغ في تحذير الإنسان من الاغترار بالدنيا ومظاهرها ومغرياتها ، وإليك طائفة من هذه الآيات :

ـ ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والْخَيلِ الْمُسَوَّمَةِ والأَنْعامِ والْحَرْثِ . ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنيا واللهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآب . قل أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيرٍ مِّن ذلِكُم لِلَّذينَ اتَّقوا عِندَ رَبِّهِم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدين فيها وأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ ورِضْوانٌ مِّنَ اللهِ واللهُ بَصيرٌ بالعِبادِ ﴾ [آل عمران : ١٤/٣ ـ ١٥] .

ـ ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذين كَفَرُوا في البِلادِ مَتاعٌ قَليلٌ ثُمَّ مأْواهُم جَهَنَّمُ وبِئسَ المِهادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦/٣ ـ ١٩٧] .

ـ ﴿ قُلْ مَتاعُ الدُّنيا قَليلٌ والآخِرَةُ خَيرٌ لِّمَنِ اتَّقى ولا تُظْلَمونَ فَتيلاً ﴾ [النساء : ٧٧/٤] .

ـ ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أزْواجاً مِّنْهُم زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُم فيهِ ، ورِزْقُ رَبِّكَ خَيرٌ وأبْقى ﴾ [طه : ١٣١/٢٠] .

ـ ﴿ وَيَومَ يُعْرَضُ الَّذين كَفَرُوا على النَّارِ أذْهَبْتُم طيِّباتِكُم في حَياتِكُمُ الدُّنيا واسْتَمتَعْتُم بِها فاليَومَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنتُم تَسْتَكبِرُونَ في الأَرضِ بِغَيرِ الْحَقِّ وبِما كُنتمُ تَفْسُقونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠/٤٦] .

ـ ﴿ فما أوتيتُمْ مِّن شَيءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنيا ، ومَا عِنْدَ اللهِ خَيرٌ وأبْقَى للَّذينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُون ﴾ [الشورى : ٣٦/٤٢] .

ـ ﴿ المالُ والبَنون زينَةُ الْحَياةِ الدُّنيا والباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٦/١٨] .

ولو أنا تأملنا هذه الآيات ، ووقفنا عندها في السعي إلى معرفة الموقف الذي يجب اتخاذه من الدنيا وأسبابها ، إذن لوجدنا أنفسنا أمام ضرورة نبذها واطّراحها ونفض اليدين منها ، ولما كان يحقّ لنا أن نأخذ منها إلا قدر الضرورة وبُلْغة الحياة وسدّ الرمق .

وهو الخطأ الذي انجرف فيه بعض ممن وقفوا عند حدود هذه الآيات وظاهرها ، ولم يصلوها بما يتم بيان المقصود منها ، من آيات كثيرة أخرى ، ففسروا الزهد على غير وجهه المطلوب ، ثم تعلقوا منه بصورة لم يأت بها كتاب ولا أيدتها سنة ، إذ هجروا العمران . وانساحوا في القفر من الأرض ، واتخذوا من الكهوف مثابة لهم ، ولم يحملوا

أنفسهم مؤنة أسرة ينشئونها ، أو رزق يكـدحون من أجلـه ، ثم راحوا يزعمون أن ذلـك هو معنى الزهد الذي أمرت به تلك الآيات وأمثالها [1] ...!

فلو أن الناس جميعاً شايعوهم في هـذا الفهم ، لبطل معنى الأمر الإلهي في قولـه عز وجل : ﴿ هُوَ أَنْشأكُم مِّنَ الأَرضِ واسْتَعْمَرَكُم فيها ﴾ [هود : ٦١/١١] ، ولعـادت الأرض خراباً ، ولبطلت الحكمة من تسخير الله مكوناته المختلفة للإنسان .

فلكي لا ننزلق إلى هذا الفهم الخـاطئ ، ولكي لا نقف عنـد شطر المعنى المطلوب : لم يقف بنـا البيـان الإلهي في شرح حقيقـة هـذه الـدنيـا وبيـان قيمتهـا عنـد حـدود هـذه الآيات ، بل عاد الخطاب الإلهي فندبنا إلى التعامل مع الدنيا وهـذه المكونـات التي من حولنا ، ودعانا إلى مدّ يد الاستفادة منها ، بل حـذرنـا من التـأثم من الإقـدام عليهـا ، ونهانا من الحكم على ذلك بالحرمة ، ومن أن نستقل من عندنا بوصفه بالعصيان .

---

(١) يتضح لك من هذا الكلام أن محط الإنكار الشرعي على هؤلاء النـاس ، ليس في أنهم اختـاروا لأنفسهم العزوف عن المجتمع والعمران ، وفروا من الناس إلى حيث يشـاؤون ، فليس من ضير في أن يميل إنسـان ـ لطبع خـاص بـه ـ إلى مثـل هـذه العـزلـة ، فيفعـل مـا تميـل إليـه نفسـه . وقـد كان في عصر رسـول الله ﷺ ، من ينزعون إلى قريب من مثل هـذه الحيـاة ، كأهل الصفـة . غير أن هؤلاء كانوا يمرون من هذه العزلة بمرحلة يسيرة فقط من حيـاتهم ، ثم يعودون إلى دنيـاهم وأعمـالهم ، ولـذلـك فقـد كان « أهل الصفـة » يتبـدلون بـاستمرار مـا بين حين وآخر ، ثم إن عملهم لم يكن تفسيراً لمعنى الزهـد الـذي يجب أن يتحلى بـه كل مسلم ، ولم يكن تنفيـذاً لأمر صـدر إليهم من النبي عليـه الصلاة والسلام ، بل كان ذلـك شأناً عائداً لأنفسـهم ، فهو كدورة تدريبية يمارسها من قد يشعر من نفسه أنه بحاجة إلى هذه الدورة .
ولكن محل الإنكار هنا أن بعضاً من هؤلاء الذين اعتزلوا الدنيا ، اتخذوا ذلك ديدنـاً مستمراً لهم أولاً ، ثم راحوا يحاولون إقناع الناس أنه العمل الذي يجب أن يجنح إليه عامة المخلصين في دينهم ثانيـاً ، وأنـه هو التفسير الذي لا محيد عنه للزهد المطلوب شرعاً !... مع أن الزهد في حقيقته ليس يعني الفرار من الدنيا بهذه الطريقة المخالفة لقوله تعـالى : ﴿ هو أَنْشَـأَكُم مِّن الأرضِ واسْتَعْمَرَكُم فيهـا ﴾ [هود : ٦١/١١] ، ولكن أن يمارس ممارسة الإنسان البصير بسمومها وترياقها ، فيلقي سمومها جـانبـاً ، ويستعمل التريـاق فيما يرضي مولاه عز وجل ، وهذا ما سيتم بيانه عندما نستعرض الطائفة الثانية من الآيات المتعلقة بهـذا البحث .

ولنصغ إلى طائفة من هذه الآيات ، ولنتأمل كيف تبدو وكأنها استدراك على ماقد يفهمه الإنسان من الآيات السابقة ، وهي آيات متنوعة الدلالة ، ولكنها محصورة ضمن عموم هذا المعنى الاستدراكي الذي تلتقي جميعاً في التعبير عنه .

ـ يقول الله تعالى : ﴿ قُل مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ ؟ قُلْ هيَ للَّذينَ آمَنُوا في الْحَياةِ الدُّنيا خالِصَةً يَومَ القيامَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢/٧] .

ففي الآية ـ كما ترى ـ استفهام إنكاري بل زجري ، يعقبه تأكيد بأن ممارسة شيء من نعيم الدنيا وملاذها ، لا تدخل في أصناف المحرمات ، وأن الله لم يمنع عباده من أن يتقلبوا فيها ويأخذوا حظوظهم منها ، ويوضح البيان الإلهي بأن الله إنما أخرج هذه المظاهر الدنيوية بأنواعها ، ليتمتع بها الناس في دنياهم ، ثم لتكون من نصيب المؤمنين يوم القيامة أيضاً ، خالصة من الشوائب والمنغّصات التي كانت ممزوجة بها في دار الدنيا .

ـ ويقول الله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذي خَلَقَ لَكُم مَّا في الأَرضِ جَميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩/٢] ، وهذه الآية تدلّ ـ على إيجازها ـ أبلغ دلالة على المعنى الذي نحن بصدده ، ذلك أن اللام في لكم للاختصاص ، أي خلق كل ما في الأرض من أسباب العيش ومظاهر المتعة من أجل الإنسان وفي سبيل تحقيق سعادته ورخائه ، وهي من أجل دلالتها على هذا المعنى عمدة علماء الشريعة الإسلاميّة في أن الأصل في الأشياء كلها الإباحة ، وإنما الحرمة صفة عارضة .

ـ ويقول أيضاً : ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا لا تُحَرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُم ﴾ [المائدة : ٨٧/٥] ، والآية هنا نهي صريح عن أن يترفع الإنسان (تديّناً) عن الطيبات التي أكرم الله بها الإنسان إذ وضعها بين يديه ليتمتع بها ويستشعر فضل الله عليه فيها ، وأسوأ من هذا أن يحكم من عنده بالحرمة على استعمال هذه الطيبات والإقبال إليها ، مع أن الله قد أباحها ، وقدّمها إلى عباده على موائد التفضل والإحسان ، وأنت خبير بأن

الإعراض عن مائدة الكريم إنما يفسر بالاستغناء عنها ، وإذا جاز هذا للإنسان تعففاً ما بين إنسان وآخر ، فإنه لا يجوز إطلاقاً عندما يكون المتفضل رب العالمين والمعرض عنه عبداً من عباده المفتقرين .

ويقول أيضاً : ﴿ هُو الَّذي جَعَلَ لَكُم الأَرضَ ذَلُولاً فامْشُوا في مَناكِبِها ، وَكُلوا مِن رِّزْقِهِ وَإلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥/٦٧] وقد سبق أن استشهدنا بهذه الآية في معرض ما كنا بصدده من بيان إخضاع الله الأرض وما عليها لحاجة الإنسان ومقتضيات عيشه ، ولكنّ محل الشاهد الآن إنما هو ذيل الآية . وهو قوله تعالى : ﴿ فامشُوا في مَنَاكِبِها وكُلُوا مِنْ رِّزْقِه .. ﴾ وهو أمر إلهيّ صريح موجه إلى الإنسان ، بأن يقبل إلى الأرض فيستخرج منها مكنوناتها ويجني منها خيراتها ، وأن يتمتع بأرزاقها ، ولا ريب أن هذا الأمر ينطوي على النهي عن نقيض ذلك ، وهو الإعراض عن ذلك كله ، والانقطاع في أودية الحرمان[1] .

ويقول الله تعالى في معرض التنويه بحرمة الأموال وأهميتها والتنبيه إلى ضرورة حمايتها وعدم العدوان عليها : ﴿ لا تَأكُلوا أَمْوالَكُم بَيْنَكُم بالباطِلِ إلاَّ أنْ تَكونَ تِجارَةً عَن تَراضٍ مِّنْكُم ﴾ [النساء : ٢٩/٤] ، ولولا حرمةٌ يوليها الله تعالى لتربية المال واستغلاله في تحقيق وجوه الرخاء ، وعمارة الأرض ، وتشجيع الناس أن يتعاونوا في سبيل ذلك ، لما وضع العدوان على الأموال في هذا الموضع من الأهمية والخطورة .

وقد علمت أن الله تعالى سمى الدنيا عاجلة ، وحذر من الركون إليها ، إذ قال : ﴿ مَّن كانَ يُريدُ العاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُّريدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذمُوماً مَّدْحوراً ، ومَنْ أرادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُم مَّشكوراً ﴾ [الإسراء : ١٨/١٧ ـ ١٩] ، ولكن البيان الإلهي استدرك مباشرة ، كي لا يفهم

(١) يجب ملاحظة أن الأوامر والنواهي الشرعية هنا تتعلق بالجماعة ، لا بالأفراد ، أي فقد يرخص للفرد أن يعرض عن الدنيا وينعزل عنها إلى حيث يشاء ، ولكن لا يجوز اتخاذ أسباب لتعميم ذلك في المجتمع أو بين الناس ، وهذا مما يدخل في القاعدة الشرعية : ليس كل ما يرخص للفرد يشرع للجماعة .

أحد هذا الكلام على غير وجهه السديد ، فقال : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء : ٢٠/١٧] ، أي ولكنّ هوانها على الله تعالى لا يستلزم أن يحرم الله عباده الصالحين منها أو يأمرهم بالبعد عنها ، بل هي مائدة مبسوطة أمام الناس جميعاً ، بما فيهم من مؤمنين وكافرين ، وإنما تتعلق الأهمية بوجه الاستفادة منها وكيفية النظر إليها .

ثم إن معاني هذه الآيات كلها تتجمع في الوظيفة التي حمل الله الإنسان مسؤولية النهوض بها ، في هذه الآية الوجيزة الجامعة : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ الأَرْضِ واسْتعمَرَكُم فِيها ﴾ [هود : ٦١/١١] ، وهل تتحقق عمارة الأرض بمعناها الحسي والمعنوي ، إلا بعد الإقبال على سائر المكونات المتنوعة من حولنا بالتسخير لها والاستفادة منها ، بأوسع معنى وعلى أتم وجه .

فقد تبين إذن ، أن تلك الآيات التي أوضح الله فيها هوان الدنيا وتفاهة مظاهرها ، ما ينبغي أن تفهم بمعزل عن هذه الآيات الأخرى التي بيّن الله تعالى فيها واجب الإنسان تجاهها .

ولكن تبيّن في الوقت ذاته أن هذه الطائفة من الآيات الأخرى التي أوضح الله فيها واجب الإنسان تجاه المظاهر الكونية وخيرات الدنيا ، وضرورة السعي نحو الاستفادة منها : ما ينبغي أن تفسّر إلاّ على ضوء تلك الطائفة السابقة من الآيات التي قد توهم العكس .

ولكن ما الحكمة من هذا المد والجزر في التحليل والبيان ؟... وكيف السبيل إلى التوفيق بين هاتين الطائفتين من الآيات ؟... أي كيف يتأتى للإنسان أن يغرس في نفسه القناعة التامة بأن الدنيا بكل ما فيها ظل زائل وسراب باطل ووهم لا يجوز الانخداع به ، ثم يُقبل عليها مع ذلك متتبعاً خيراتها مستفيداً من ذخرها ، يبني لنفسه من ظلها وسرابها قصوراً شامخة وينشئ منها جناناً وارفة ؟!... أغلب الظن ـ فيما

يبدو ـ أن الذي يتقلب في نعيمها ويمارس لذائذها ، لا بدّ أن يركن إليها وينخدع بمذاقها ، وأن الذي يستيقن تفاهتها وضرر الركون إليها ، لا بدّ أن يعرض عنها وينفض يديه منها ، ولن يأخذ منها إلا قدر الضرورة القصوى .

والجواب : أن الحديث عن هذه الحكمة حديث طويل ، وهي بجملتها تنطوي على الحلّ الوحيد لتلك العقدة الوحيدة الكبرى التي كانت وما تزال تقف في طريق السعي إلى إنشاء مجتمعات أو حضارات إنسانية مثلى تحمل في داخلها أسباب بقائها . وقلَّ من تنبه إليها من الناس والأمم بعد ، فضلاً عن أن يتنبهوا إلى سبيل علمي صحيح لحلها ، بل قلَّ من تنبه إليها ممن درسوا المنهج الرباني إلى إنشاء المجتمعات والحضارات ، فما سمعنا من أكثرهم إلاَّ وصفاً وتصنيفاً للآثار الحضارية والعمرانية التي تركها الرعيل الأول من المسلمين هنا وهناك ... حتى غدت المؤلفات التي تتحدث عن الحضارة الإسلامية وتاريخها ـ على كثرتها وضخامتها ـ لا تُعنى منها إلا بتصوير هذه الآثار وتجميع أحاديث الإعجاب بها والإكبار لها !..

ولكن كيف قامت هذه الحضارة ؟ وبأيّ سر استقرت ثم استصلبت ؟.. ثم كيف انهارت وأَفَل نجمها ، حتى لكأننا لسنا ورّاث تلك الحضارة والأمجاد ؟!.. هذا ما لا يلفت إليه أكثر الباحثين بأيّ تأمل أو اهتمام !.

أمّا آخرون ، فيتوقفون ويتساءلون ، ولكنهم لا ينتهون من تساؤلهم إلاَّ إلى حيرة ترتسم على كلماتهم أو كتاباتهم ، وربما حاول بعض منهم أن يلتقط عللاً وأسباباً ، فوقف من ذلك عند نظرات سطحية وتحليلات جزئية مبتسرة ، لا تورث قناعة ولا تفيد عبرة ، أو غاص من ذلك في بحر من الفلسفات النظرية والتحليلات الكلامية التي لا تورث العقل إلا صداعاً ، ثم تدع الإنسان الباحث في حيرة من أمره ، فلا يدري ماذا يفعل وكيف يسير !...

ولنعد الآن إلى الإجابة عن السؤال الذي طرحناه .

إن القرآن ، بهذين البيـانين المتوازيين في تكافؤ دقيق ، عن المكونـات التي تطوف بـالإنسـان ، يحلّ هـذه العقـدة الهـامـة التي طـالمـا استعصى حلّهـا على الأمم والبـاحثين والمتخصصين بهذا الشأن ، إمّا لأنهم لم يكترثوا بها فلم يتنبهوا إليها ، وإما لأنهم لم يهتـدوا إلى حلّ سليم لها ، فكان أن وصلوا من جرّاء ذلك إلى جدار موصد ألجأهم إلى ذلـك الزعم السخيف الذي ينأى عنه كل من المنطق وأصول الدراية التاريخية لحياة الإنسـان . وهو القول بأن الحضارات كلها تخضع للمراحل العضوية التي يمرّ بها الإنسـان ، فهي تنشـأ في مهـد من الضعف ، ثم تشب وتقـوى ، ثم تشيـخ فتهرم ، ثم تمـوت ، متـأثرة بسلطـان القانون ذاته الذي تخضع لـه حيـاة الإنسـان ، أي بقطع النظر عن العوامل المختلفـة التي يفترض أن تمدّ من أجلها أو تعجل بالقضاء عليها .

ومعنى هـذا أن على البـاحثين أن يريحوا أنفسهم ولا يتعبـوا أفكارهم بـالتفتيش عن العلل والأسباب ، داخلية كانت أم خارجية ، فـإن الشجرة التي استنفـدت طـاقتهـا في البقاء ومقاومة الطبيعة ، لا بدّ أن تتكون في داخلها عوامل موتها [١] .

غير أن القرآن أوضح لأولي الألباب أن الأمر ليس كذلك ، وإنما المسـألـة تكمن في أن ثمة شرطاً أساسياً ، وعلى جانب كبير من الأهمية والصعوبة معاً ، إن أفلحت أمـة مـا في تطبيقه على وجهه الصحيح ، بصدد انهاكها في إنشاء الحضـارة الإنسـانيـة ، فيستحق لها من ذلك الشرط ما يدفع بحضارتهـا في طريق سليم إلى الـذروة ، ثم إنـه سيتحقق لهـا من ذلك الشرط نفسه ما يحصّن حضارتها ويحميهـا من كل آفـة وضعف ، وستبقى تلـك الحضارة باسقة شابّة قوية ، ما بقي ذلك الشرط في مركز العنـايـة والتنفيـذ على وجهـه السليم .

هذا الشرط ، يتمثل في أن يمارس الناس دنياهم وأسبـاب عيشهم وتقـدمهم ، بـدافع وظيفي ، وبروح استشعار المسؤولية ، لا بدافع التعليق أو التعشق النفسي .

---

(١) من أبرز من يتبنى هذا الرأي الفيلسوف الألماني « أوزوالد شبنجلر » .

ولن يتحقق ذلك ، بطبيعة الحال ، إلا إذا اجتثت الدنيا ومغرياتها من قلوبهم ، وأدركوا تفاهتها وخطورة الاغترار بها ، وهيهات أن يتم ذلك إلا بعد اليقين بوجود الخالق عز وجل ، ثم الإصغاء ، بدافع من هذا اليقين ، إلى بيانه عن حقيقة هذا الكون وقيمته وفائدته ومدى أهميته .

فإذا استيقن الناس ذلك ، فإن أفئدتهم لن تقع في أسر الدنيا ومغرياتها ، وستتحرر نفوسهم ولا ريب ، من بلاء التعلق بها والتعشق لها ، فـإذا كلفهم الله بعـد ذلـك باستخدامها لعمارة الأرض وإنشاء المجتمع الإنساني السليم ، فسيقبلون على أشياء الدنيا وأجهزتها ومظاهرها وسائر ما فيها من أسباب المتعة ، إقبال من قد كُلِّف بأمر ، فهو ينشط في سبيل تحقيقه وإنجازه .

صحيح أن من شأن النفس البشرية ، إذا ذاقت ملذاتها ومارست نعيمها ، أن تهفو إليها ثم تتعلق بها ، وأن يتبدد في ضرام ذلك التعلق النفسي تدبير الفكر وقرار العقل ، ولكنّ هذا يمكن أن يتم بالنسبة لمن لم يفهموا بعدُ حقيقةَ الدنيا وقيمة المكونات التي فيها ، أو فهموها ، ولكن بميزان عقلي مجرد ، أي بعيداً عن سلطان العواطف والوجدان .

غير أن الأسلوب القرآني لا يقف بالنسبة إلى هذه المسألة الخطيرة ، عند إقناع العقول ، بل يضيف إلى ذلك توجيه النفوس بسائق من الرغبة والرهبة إلى ما هو خير وأبقى ، فهو يظل يؤكد بأساليب تربوية شتى أن الدنيا مهما كانت تفور بمظاهر المتعة وأسباب اللذة ، فإن على كل عاقل أن يدرك بأنها حلُم يوشك أن ينقضي ، وبأنّ نعيمها سيتحول عما قريب إلى غصص تأخذ بالنفس وبالحلق ، وأن على كل ذي رغبة وهوى أن لا ينسى بأنه إن ترفع اليوم فوق هذه المظاهر الفانية ، واستخدمها أداة لتحقيق المصلحة الإنسانية العامة ، فإنّ له في الغد القريب ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، في حياة خالدة لا انقضاء لها ، ولا تحوّل عنها .

وقد علمت أن مستند اليقين بهذه الإخبارات القرآنية ، التي تخاطب كلاً من العقل والنفس ، هو اليقين بوجود الله عز وجل ، وبأن القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فإذا رُبِّي الإنسان على هذه التبصرة القرآنية التي تستهدف ، كما قلنا ، كلاً من العقل والوجدان ، فإنه مهما تذوق من نعيم الدنيا ألواناً ، ومهما لاح له بريقها ، على البعد أو القرب ، فسيبقى كل من عواطفه وأفكاره ويقينه العقلي ، مشدوداً ومتجهاً إلى النعيم الأكبر الذي لا ريب عنده في قدومه . وستظلّ نفسه مشرئبة إلى اليوم الذي يبلغه فيه النداء المبشر : ﴿ هذا يَوْمُكُمُ الَّذي كُنتُم توعَدونَ ... ﴾ [الأنبياء : ١٠٣/٢١] ، ﴿ فَهوَ في عيشَةٍ رَّاضيَةٍ في جَنَّةٍ عاليَةٍ ، قُطُوفُهَا دانِيَةٌ ، كُلوا واشْرَبوا هَنيئاً بِما أسْلَفْتُم في الأَيَّامِ الخالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢١/٦٩ ـ ٢٤] .

ومن ثم فإنه يمارس الدنيا ممارسة الحاكم عليها ، المستخدم لها ، طبق نظام معين ، وضمن حدود مرسومة ، ومن أجل الوصول إلى هدف عالٍ مقدس ، على حين لن تستطيع الدنيا أن تسكره فتستخدمه وتستعبده ثم تطوح به .

وعند هذه النقطة الهامة الحرجة ، يختبئ مفتاح الحضارة ... وعندما يكمن السر الذي يمدّها بأسباب الاستقرار والبقاء ، فلا تقع تحت طائلة القانون الوهمي الذي تخيله شبنجلر وأشياعه ، وهو بعينه المفتاح الذي عثر عليه ـ من خلال بيان الله عز وجل ـ الرعيل الأول من هذه الأمة ، بعد أن بحثوا عنه تحت نبراس الكتاب الرباني ، فافتتحوا به مغاليق الدنيا في أقرب زمن وبأيسر جهد .

ألا ، فلتعلم أن كل ما على الأرض من خير وأن كل ما في باطنها من ذخر ، أداة وأيُّ أداة لعمارة هذه الأرض على أفضل وجه ، ولنسج برد السعادة الإنسانية المثلى فوق جنباتها وذراها ، ولكنّ الشرط الوحيد لذلك ، أن لا يمارس الإنسان هذه الأدوات

ولا يعالجها إلاَّ بعد أن تفرغ نفسه من غوائل التعلق بها ، فيقبل عليها عندئذ إقبال من امتلأ شبعاً ، إلى طعام يبيعه أو يتاجر به .

ألا ترى إلى الرجل يضع بين يديه أطباقاً من الحلوى يبيعها ليستغني بأثمانها ، إن الشرط الأساسي لنجاحه في مسعاه ، ألاَّ تهفو نفسه إلى تلك الأطباق ، ولا يسيل لعابه عليها وألاَّ يتشهاها كلما نظر إليها . فأما إذا كانت نفسه تندلق عليها ، ولا تبصر عنها ، فهو يتذوق منها بين كل حين وآخر ، ويتخذ منها إفطاره إذا أصبح ، وغداءه إذا أضحى ، وعشاءه إذا أمسى ، فإنه لن يعود من مسعاه إلا بالخيبة والخسران ، وسيضيع كلاً من الجهد والمال معاً .

غير أن أكثر الشعوب والأمم ، لما كانت غافلة عن هذه الحقيقة ، تائهة عن معرفة هذه الدنيا على وجهها ، بعيدة عن حديث القرآن وبيانه ، أقبلت على الدنيا بنفوس متعشقة لها ، قبل أن تتأملها بعقول مدبرة .

فكان من جراء ذلك أن سعت تلك الأمم إلى بناء مدنياتها وحضاراتها ، بدافع النهم النفسي أكثر من التدبير الفكري ، ولا بد أن ينشأ عن مثل هذا السعي في العادة ، السباقُ بين أصحاب الدوافع المتشابهة ، ولا بدّ أن ينشأ عن السباق الصراع ، وأن ينشأ عن الصراع الخصومات والحروب ، ذلك لأن النفس إذا تعلقت بالشيء تعلق نهم ورعونة ، خيل إليها أنها لن تنال حظها منه ، إلا إذا انفردت به ، مهما كانت حاجة النفس إليه قليلة ، ومهما كان بحدّ ذاته كافياً وافياً لحاجات الناس جميعاً .

لذا فإنك لا تكاد تجد أمة سعت إلى بناء حضارتها من هذا الطريق ، إلا وشغلت يداً واحدة لها بإنشاء الحضارة وأسبابها ، بينما انصرفت بيدها الأخرى إلى إيقاد نيران العداوات والحروب بينها وبين الآخرين .

وقد عبر المتنبي عن هذه الحقيقة بأصدق بيتين له ، هما :

كلمـا أنبت الـزمـان قنـاة ركب المرء في القنـاة سنـانـا
ومراد النفـوس أهـون من أن نتعـادى فيـه وأن نتفـانى

وقد تنجح هذه الأمم أخيراً في إنشاء مدنياتها وحضاراتها ، من خلال سباقها اللاهث ، وعراكها الدامي ، ولكن لا بدّ أن تحمل تلك الحضارات في أعماقها ـ منذ اللحظة الأولى ـ بذور تدميرها وعوامل فنائها ، وذلك طبقاً للمراحل التالية التي لا بدّ أن تمر بها سائر المدنيات والحضارات الجانحة ، وإليك صورة سريعة عن تتابع هذه المراحل :

تتفتح أمام تلك الأمم أبواب الثروات والغنى ، فتتقلب من ذلك في دنيا اللذائذ والأهواء ثم ما هو إلا أن تستمرئها وتركن إليها ، وتطوف برؤوسها من ذلك سكرة النعيم ، وتتقاذفها عندئذ حياة الدعة والترف ، وتستحوذ عليها دواعي الركون إلى ما نسجته حولها من مظاهر الشهوات ، فينسيها ذلك واجب النهوض بأعبائها الجسام ، وضرورات السعي إلى الواجبات ، وسدّ الثغرات وحماية الممتلكات ، وما هو إلا أن يتبين الرقباء من أعدائها ، سواء في الداخل أو في الخارج ، مظهر هذا الضعف فيها ، ومستقر هذا المرض من بنيتها ، فيتوكؤون عليه ، ويتخذون منه غرضاً لسهامهم ومبعثاً لنيرانهم ، وأساليب ذلك واضحة غير خفية ، رددها التاريخ على أسماع المعتبرين مرات ومرات ...

والمصير الذي لا بدّ منه ، على أعقاب ذلك ، هو أن يستشري الضعف فالذبول ، ثم يحيق الموت والدمار .

وغني عن البيان أن مراحل استفحال هذا المرض ، تتوالى في مواقيت زمنية متناسبة مع أعمار الدول والحضارات ، فلا جرم أن العين المجردة ، وأجهزة الأمراض الجسدية ، لا تستطيع أن تكتشف حركة هذه الجرثومة الحضارية ، ومراحل نموّها و « توضعها » وكيفية سير المرض نحو الاستفحال ، ثم التدمير والافتراس .

فمن ثم ، قل من يتنبه إلى الأمراض الاجتماعية التي تعاني منها الأمم والدول ، بل قلّ من يُحسّ أو يقتنع حتى من أعضائها ورجالها بأنّ مرضاً وبيلاً يفتك في بنيانها الحضاري .

ولكن أيّاً كان الأمر ، فتلك هي الجرثومة الوحيدة التي تفتك في جسم الحضارات الجانحة ، وبها تمرض ثم تموت !... هكذا زالت حضارة الرومان ، وهكذا قضي على حضارة الفرس ، وهكذا انتهت دولة ملوك بني الأحمر في الأندلس ، وهكذا تقوض عرش القياصرة في أقصى الشرق ، وعلى الدرب ذاته تسير اليوم حضارات جانحة نحو الزوال والانمحاق .

والمهم أن تعلم أنّ هذه الحضارات لم تفاجئها عوامل الضعف والهلاك من خارج بنيانها ، بل نشأت معها بذور هلاكها وعوامل دمارها من ذاتها ومنذ يوم ميلادها .

وتتمثل هذه البذور والعوامل في أن رجالها لم يقبلوا على إنشاء مجتمعهم وحضارتهم بدافع الفكر الوظيفي ، والشعور الصافي بتحمل المسؤولية ، وإنما تسابقوا إلى عواملها وأسبابها الدنيوية بسائق النهم النفسي ، والشهوة الغريزية ، وما كانت الأفكار والعقول إلا أداة مستخدمة في طريق تلك الرعونات فكان ذلك مهاداً طبيعياً لاستفحال الداء الذي تحدثنا عن سيره ومراحله وكيفية القضاء على أصحابه .

وهكذا استحال الغذاء بسبب سوء استعماله إلى داء ، وغدت مظاهر القوة والغلبة هي نفسها عوامل ضعف وهزيمة ، وتحولت أبنية كانت قصوراً باذخة بالأمس إلى قبور مظلمة اليوم ، مع العلم بأن الحضارة هي الحضارة ، وأسباب النعيم التي كانت بالأمس ، هي ذاتها أسباب النعيم اليوم ، ولكن سوء الاستعمال حوّل الشيء إلى نقيضه وجعله ينتج عكس آثاره .

فما أشبه قصة أصحاب هذه الحضارات ، بقصة الشره النهم : يقوى بصنوف الطعام

والإكثار منها أولاً ، ثم يمرض فيموت بها ثانياً !.. مع أن الطعام هو الطعام في فائدته للجسم وحمايته له من عوادي الأمراض والهزال !..

ولما كان سائر الحضارات معرضة لهذا الوباء (لا يستثنى منها ! إلا تلك التي نشأت في ظلال الوعي الإسلامي وأنشأها رجال ربّيت عقولهم ونفوسهم بتبصرة القرآن وهديه ، ثم استقرت أجيالها على ذلك) ولما كان جل علماء التاريخ والاجتماع لا يتمتعون بشيء من هذه المعرفة القرآنية لكل من الكون والإنسان والحياة ، فضلاً عن أن تهديهم هذه المعرفة إلى آفة الحضارات وسر انهيارها ، بل كانوا هم أنفسهم يعانون من هذه العقدة والمشكلة ذاتها ـ :

أقول : لما كان الأمر كذلك ، استغلقت عليهم السبل إلى معرفة الأسباب الحقيقية لما قد يلحق الحضارات من ضعف ثم هلاك على حين غرة ، على الرغم مما لا تزال تتمتع به من قوة ورفاهية وثراء !... وعجبوا من أن يروا دولة بلغت الذروة في غناها وقوتها وسلطانها ، وإذا هي تتهاوى فجأة من تلك الذروة إلى نهاية من الضعف والانمحاق ، دون ظهور ما قد يستدعي ذلك من الأسباب والعوامل المعروفة لديها !...

فكان أن تفرق هؤلاء الباحثون ، في تفسير هذه الظاهرة التي أدهشتهم ، إلى شيع ومذاهب شتى ، وكان من أبرزها ذلك المذهب الذي كنا قد أشرنا إليه ، والذي وجد فيه أصحابه خلاصهم من مشكلة لم يعثروا على حلّ لها . فقد أراحوا أنفسهم وقرروا بأن للحضارات أعماراً كأعمار الأشخاص ، فهي الأخرى تولد في ضعف ثم تشتد وتشب عن الطوق ، ثم تبلغ أوج القوة ، ثم تعود إلى الضعف ، فالذبول فالموت !... قالوا ولا حيلة للعوامل الداخلية أو الخارجية أياً كان نوعها وشأنها في تغيير هذا المسار وتعطيل هذا القانون !... إذ المسألة أشبه ما تكون ـ في تصورهم ـ بالتلف العضوي إذ يلحق الجسم في مرحلة معينة ، من جراء الممارسة المستمرة لوظيفته التي أنيطت به ، مع محدودية الطاقة التي يتمتع بها .

ولكن هـذا الكلام لا يتماسـك عليـه أي منطق أو قـانون فكري ، وإنما هـو محض تخلص وهمي من مشكلة لم يعثر القائلون بهذا الرأي على أي حلّ لها[1] .

ذلك لأن الحضارة إنما تتكون من جملة معارف وممارسات معينة ... وهي بحدّ ذاتها لا تشيخ ولا تهرم ، إذ إنّ المقومات المعنويـة لشيء مـا تبقى في مزايـاهـا وصلاحيتهـا كما هي . ولكن الـذي قـد يتبـدل ويتغير ويشب ويشيخ هـو ذاك الـذي يجب أن ينهض بتلك المقومات ورعايتها ، وهو الإنسان ، فالحل كامن في النظر إلى حال روّاد الحضارة وحراسها وبناتها ، وفي موقفهم الثابت أو المتبدل أو المنحرف من مقوماتها ، ثم في معالجة الأمر على هدي تلك الحال دون غيرها . ولما كانت الأجيال المتعاقبة تتناوب في رعايتها وحراسة مقوّماتها ، فليس ثمة ما يمنع من بقاء الحضارة ثابتة عند ذروة شبـابهـا وقوتهـا ، بفضل ثبات تلك الأجيال المتناوبة على المبدأ القرآني السليم في رعاية المجتمعات الإنسانيـة وحمايتها من أسباب التفسخ والانهيار .

☆ ☆ ☆

لقد تبيّن لنـا إذن ، من خلال هـذا الـذي أوضحنـاه ، سرّ ذلـك المـد والجزر ، في حديث القرآن عن الدنيا وخيراتها وما سخره الله للإنسان من مظاهرهـا ، إنهـا معـادلـة دقيقة بين صفتين ثابتتين لمغريات هذه الدنيا وخيراتها ، كل منهما علاج لما قد يكون في الثاني من مخاطر وأضرار ، وكل منهما أداة ، في الوقت ذاته لنيل مـا قـد يكون في الثـاني من الحوافز أو الخيرات .

فمن أجل ذلك يحرص البيـان الإلهي على أن يتشبع فكر الإنسـان وعواطفـه بمزيج متكافئ من هاتين الصفتين للمكونات الدنيوية التي تزخر من حوله ، فهو يحـدثـه دائمـاً

---

(١) من أعـاجيب سـوء الفهم ، مـا يعزوه بعض المعجبين بهـذا المـذهب إلى ابن خلـدون ، من أنـه من أبرز القائلين بهذا الرأي !.. وهؤلاء اكتفوا من كلام ابن خلدون في هذا الصـدد بعنوان بحثـه (إذ هو عنوان موهم) وضربوا صفحاً عن حـديثـه المسهب تحت هـذا العنوان ، وهو يلتقي جملـة وتفصيلاً مع كلامنـا الذي نذكره في هذا الصدد ، انظر مقدمة ابن خلدون ص٨٣ فما بعد الطبعة البولاقية .

عن تفاهة الدنيا ويحذره من الاغترار والانخداع بها ، ويلفت نظره إلى ما هو خير وأبقى ، ولكنه يظل يحدثه أيضاً عن ضرورة الاستفادة منها واستخدامها في عمارة الأرض وترسيخ الحضارة الإنسانية المثلى فوقها .

وإنك لتعلم أن الإنسان إذا ربي على هذا التصور المتكامل ، وتشبع كل من فكره ووجدانه بالحقيقة المكوّنة من كلا هذين الجانبين ، فإنه لن يفرّ من الدنيا ومسؤولياتها ، ولكنه لن يقبل عليها أيضاً بسائق من النهم الغريزي والطمع النفسي ، وإنما يمارسها ممارسة موظف مسؤول ، كلّف أن يقوم بمهمة محدودة معينة ، فهو يحاول أن ينهض بها جهد استطاعته .

وهو عندئذ ، حتى وإن وجد في ممارسته للدنيا متعة نفسه ، فإنها لن تجرفه بتيارها ، ولن تورثه إلا مزيداً من النشاط في نطاق النهوض بالمسؤولية التي كلف أن ينهض بها .

أي إنه يبرع في القدرة على المناورة بها ، إقبالاً عليها وإعراضاً عنها ، حسبما تقتضيه سلامة السير إلى الأهداف السامية والقيم العليا .

وهيهات أن تنطوي الحضارة التي ينهض بأعبائها رجال من هذا القبيل ، على أسباب هلاكها وعوامل دمارها ... بل إنها تنهض عندئذ على ساق مستوية ، وقاعدة راسخة ، وتسير في طريق مأمونة العواقب ، ولا تحمل من البذور والثمار إلا ما يزيد في قوتها ويمدّ من أجلها .

ولن يتم العثور على هذه الضمانة ، في غير سبيل القرآن ، مهما بذل الناس من جهود ، ومهما تفلسف علماء الاجتماع ، وأبدعوا مذاهب جديدة لتحقيق مجتمع إنساني أفضل .

وأعتقد أن قد آن لنا ، بعد هذا التفصيل الذي أتينا عليه ، أن نتحقق من صدق هذا الكلام .

أما الآن فلننقل من العرض النظري ، إلى الكشف عن مصداق ذلك من الواقع التطبيقي .

وغني عن البيان أن أول من اصطبغ بهذه التربية القرآنية ، بصدد النظر إلى الدنيا ومظاهرها الكونية ، إنما هو رسول الله ﷺ ، الذي كان يعلم المسلمين بأقواله وأفعاله كيفية التحقق بتعاليم القرآن وتربيته وآدابه ، فكان بذلك قدوة للناس جميعاً ، ووسيلة إيضاح لكيفية تنفيذ تلك التعاليم .

لنتأمل كيفية انصباغ الرعيل الأول من المسلمين ، بهذه التبصرة القرآنية ، ولنتخذ من حياتهم نموذجاً للتعامل مع الدنيا ومكوّناتها طبقاً للتعليمات القرآنية التي رأيناها ، وتعرفنا عليها .

ثم لنتأمل كيف تحققت من جراء ذلك على أيديهم وبمساعيهم ، حضارة باسقة الأغصان راسخة الجذور ، انبسط سلطانها خلال عشرين عاماً فقط على ثلاثة أرباع المعمورة آنذاك ، وكيف أصبحت المثل الأعلى في نشر القيم الإنسانية ، والمبادئ الأخلاقية ، والسمو الفكري ، والعمق العلمي ، والاتساع العمراني ، ثم كيف غدت بعد ذلك في أفكار الباحثين وعلى أقلام الكاتبين الذين لم يكتشفوا هذه العوامل التي فرغنا من بيانها ، لغزاً من الألغاز التاريخية ، يستعصي على التحليل والفهم !...

فلقد سيقت إليه الدنيا ذات يوم ، وهو يمرّ في أحلك ظروف الدعوة وأشدها عسراً والتواء عليه ، ممثلة في المال والملك والزعامة والنساء ، على أن يتخلى عن الإسلام الذي بعث به وأن يقلع عن دعوة الناس إليه ، وذلك عندما عرض عليه عتبة بن ربيعة (وهو شيخ وقور من شيوخ قريش) باسم المشركين من قريش عامة ، ما يشاء من ذلك كله مقروناً بالمواثيق التي يريدها ، على أن يقلع عن تسفيه أحلامهم وسب آلهتهم ، ويطوي هذا الذي جاءهم به عن النظر والبحث .

ولو أنه ﷺ ، أقبل على هذا الذي عرض عليه ، بسائق الرغبة الغريزية فيه والتعلق النفسي به ، إذن لعثر على مسوّغات كثيرة تسمح له بأن يقبل هذه العروض أو بعضها ، فما أيسر أن تسوّل له نفسه أنه سيستخدمها فيا بعد سبيلاً إلى تحقيق دعوته ورسالته من مستوى القوة والسلطان .

ولكنه لو فعل ذلك لخسر الدعوة ونتائجها ، ولما تمتع بالمال والملك بعد ذلك إلاّ إلى أمد قصير ، أقصاه نهاية حياته عليه الصلاة والسلام ، ثم ينتهي كل شيء ويزول المال والملك دون أن يحققا أي فائدة أو رسالة .

غير أنه ـ وهو رسول الله حقاً والمنفذ لتعاليم ربه ـ نظر إلى الدنيا التي عرضت عليه ، من خلال عقله وتفكيره ، ومن مستوى المسؤولية التي يتحملها ، والمهمة التي كلف بإنجازها ، ولا ريب أن مقام الدنيا ، بكل ما فيها من خيرات ومغريات ، لا يرتفع بالنسبة إلى تلك المهمة العليا فوق درجة المستخدم والأداة المسخَّرة ، وبحكم هذه النظرة والشعور بتلك المسؤولية ، استطاع النبي ﷺ أن يزيح عن طريقه إلى تلك المهمة ميول النفس وأهواءها ، حتى ولو فرضنا أنها كانت هائجة بين جوانحه ، كما هو الشأن بالنسبة إلى غيره من الناس ، وذلك في سبيل أن يسلم له الطريق إلى إقامة المجتمع الإنساني السليم الذي بعث لبنائه ، طبقاً للمنهج الذي رسمه له القرآن إلى ذلك .

ثم إن النبي ﷺ كرر هذا الموقف ، أمام أصحابه ، في تجارب كثيرة أخرى ليجلّي هذه الحقيقة في أذهانهم ، وليروض نفوسهم على الانسجام معها ، وليبعث فيها الطمأنينة بأن خير سبيل إلى الاستفادة من الدنيا والهيمنة عليها ، أن يحرر الإنسان نفسه من سلطانها ، ثم يسلم مقادته إلى عقله وتفكيره ، بعد أن يكون كل منهما قد أشبع بالبيانات القرآنية عن حقيقة الدنيا التي تحف بنا وعن طبيعتها وكيفية التعامل معها .

وقد كان أهم هذه التجارب ، تجربة الهجرة إلى المدينة المنورة ، فقد شاء الله تعالى ، في نطاق المنهج التربوي الذي أخذ به عباده ، أن يقوم تعارض حادّ بين

ما يمتلكه أصحاب الرسول ﷺ من وطن وعقار ومال ، وما وقر في نفوسهم من حقائق الإسلام ، وضرورة النهوض بها ، بصدد تحمل مسؤولياتهم التي حمّلهم الله إياها في بناء الحضارة الإنسانية السليمة ، ورأوا أن ليس أمامهم إلا واحد من اختيارين لا ثالث لهما ؛ فإما أن ينفضوا أيديهم من المال الذي يملكونه والدور التي تؤويهم ، والوطن الذي تعلقوا به ، ليسلم لهم يقينهم الإسلامي ، وليتيسر لهم النهوض بواجبهم الحضاري ، وإما أن يفرّطوا في العقيدة التي استيقنتها عقولهم ، والواجبات التي حملهم إياها مولاهم وخالقهم ، فيسلم لهم المال والوطن والعقار .

فماذا يصنعون ؟

لقد فضل لهم المنهج القرآني في الأمر ... وأعانهم على الخضوع لحكمه ، انصباغهم الفكري والوجداني ببيانات القرآن لهم عن الكون والإنسان والحياة ، فنظروا إلى الدنيا التي تطولها أيديهم ، من خلال قناعاتهم الفكرية ومبادئهم الاعتقادية ، لا من خلال ميولاتهم النفسية وما قد يشعرون به من جموحات الشهوات والأهواء .

وسرعان ما اهتدوا إلى أنه لا جدوى من بقاء الوطن أو المال في حوزتهم ، إن هم تجردوا عن سلاح اليقين الذي يتمتعون به ، وانقطعوا عن سعيهم إلى بناء الأمة ، وإنشاء المجتمع السليم ، فسيتبدد كله ويذهب عما قريب . ولكن لن يكون أي خطر عليهم من ذهاب الدنيا كلها من أيديهم ، إن هم نجحوا في مساعيهم إلى استثمار العقيدة التي يتمتعون بها ، واستنبات المجتمع الإسلامي السليم من تربتها ، فسيعود إليهم بدلاً من المال الذاهب أضعافه ، وسيرتد إليهم الوطن المتروك ومعه أوطان كثيرة أخرى ...

وكيف لا يستيقنون ذلك ، وقد أيقنوا صدق قول الله عز وجل لهم : ﴿ ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ على الَّذينَ استُضْعِفُوا في الأَرضِ وَنَجْعَلَهُم أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥/٢٨] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذين آمَنُوا مِنكم وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم

فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّــــذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ الَّــــذِي ارتَضَى لَهُم ، وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوفِهِم أَمْناً .. ﴾ [النور : ٢٤/٥٥] .

فاتخذوا قرارهم بقيادة رسول الله ﷺ ، وهجروا الوطن والعقار والمـال ، بل تقطع كثير منهم حتى عن الأهل والأولاد .. واتجهـوا شطر « يثرب » التي كانت تعـاني آنـذاك من سوء المناخ ، وتفوح بأنواع الوباء .

فماذا كانت نتيجـة التجربـة ؟... إنـك لتعلم أن قرار القرآن صــدق في حقهم أدق ما يكون الصدق وأتمـه ، فقـد عـاد إليهم الوطن الـذي تركوه وامتـدّت لهم منـه أوطـان كثيرة أخرى في شرق الدنيا وغربها . وفتح الله عليهم بدلاً من الأموال القليلـة التي تخلوا عنها ، أبواباً عريضة من الثروة والغنى ، ودان لهم أولئـك الـذين أخرجوهم من الـديـار وساموهم ألوان العذاب .

ولنعرض في هذا الصـدد لمشهـد تربوي آخر ، فريـد من نوعـه ، وقف فيـه القرآن العظيم من خطـأ انزلق فيـه بعض الصحـابـة ، موقف الـزجر والتـأنيب ، وانتشلهم من منزلقهم في عملية تربوية دقيقة ، من شأنها أن تلفت النظر إلى أن خطـأ مّـا ، ينجم في نطاق الافتتان بمغريات المال ، من شأنه أن يجرّ إلى سلسلـة من الأخطـاء والانحرافـات المتفاقمة ، وأن يحدث في أفراد الأمة ، نظير ما تحدثه الجرثومة الفتاكة إذ تستقر في جهـة ما من أنحاء الجسد .

وخلاصة هذا المشهد أنه لما وضعت الحرب أوزارهـا في غزوة بـدر ، وانقشع القتـال عن هزيمـة المشركين ، وعن غنـائم كثيرة خلفـوهـا وراءهم ، فـوجئ المسلمـون من هـذه الغنائم بمشهد يرونـه لأول مرة في حيـاتهم ... فـإذا تصورت مـدى الحرمـان الـذي كانوا يعـانون منـه ، برضى وطواعيـة ، في سبيـل هجرتهم ، أدركت أن خطـأ مـا ، يمكن أن يصـدر منهم بـالنسبـة لتلـك الأمـوال التي تركهـا المشركـون وراءهم ، وأنـه احتمال غير مستبعد .

وقد وقع ذلك فعلاً ... فقد أسرعوا إلى تلك الأموال يتجادلون في كيفية اقتسامها ، ولمّا لم يتفقوا فيما بينهم على رأي ، أسرعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه الحلّ ... فأنزل الله عز وجل هذه الآيات :

﴿ يَسألونَكَ عَنِ الأنْفالِ ، قُلِ الأَنْفالُ للهِ والرَّسولِ ، فاتَّقوا اللهَ وأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُم وأطيعوا اللهَ ورَسولَهُ إنْ كُنتُم مُّؤمِنينَ . إنَّما المؤمِنونَ الَّذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُم إيماناً وَعَلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلون ، الَّذين يُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُم يُنْفِقونَ ، أولئكَ هُمُ المؤمِنونَ حَقَّاً لَّهُم دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِم ومَغْفِرَةٌ وَرِزقٌ كَريمٌ ﴾ [الأنفال : ٨/١ ـ ٤][(١)] .

فأنت ترى أن هذه الآيات لا تتضمن جواباً عن سؤال ، وإنما تتضمن لوناً واضحاً من ألوان التقريع والتأنيب ، ولكأنّك تسمعها كلماتٍ ينطق بها مُربٍّ ، بعد أن كرر على سمع تلاميذه ، درساً سلوكياً ، في أمر بالغ الأهمية أكثر من مرة !.. فها أنت ترى كيف تأمر الآيات هؤلاء السائلين ، أن يتركوا الغنائم في أماكنها ، ويذهبوا إلى شؤونهم !.. فإنها عائدة إلى الله ورسوله ، وليس لهم من علاقة بها ... كل ما ينبغي أن يعرفوه هو أنَّ واجبهم أن يعودوا فيصلحوا ما بينهم ، وأن يتذكروا أنهم لم يقاتلوا لمغنم ، وأن المؤمنين الصادقين هم أولئك الذين إذا ذُكِرّوا بالله وأوامره ، أنستهم خشيته الدنيا بكل أموالها ومغرياتها ، ثم انصرفوا إلى تنفيذ أوامره وتعليماته ، معتمدين في رزقهم وحاجاتهم الدنيوية على من بيده الأمر كله .

ولقد تأثر أولئك الذين نزلت هذه الآيات في حقهم ، تأثراً بالغاً ، وأخذ هذا الأسلوب التأنيبي بمجامع أفئدتهم ؛ فطردوا حديث الغنائم عن ألسنتهم ، وقطعوا

---

(١) روى الإمام أحمد ، عن عبادة بن الصامت أنه سُئل عن سبب نزول هذه الآيات ، فقال : فينا أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ... الحديث . وروى بمثله الترمذي وابن ماجه .

علائقها عن نفوسهم ، وتبادلوا المعذرة فيما بينهم ، وكأنهم صحوا إلى أنهم قد انجرفوا من حيث لا يشعرون في أمر لم يكن من شأنهم ، ثم انصرفوا مستغفرين نادمين .

ولكن ... هل وقفت التربية الربانية لهم عند هذا الحد ؟

أي هل كانت هذه هي الغاية : أن ينفض المسلمون أيديهم من المال ، ثم يعرضوا عنه ، ولا يتعاملوا به ، بحجة أن المال مال الله وليس ملكاً لأحدٍ منهم ؟

معاذ الله ... لم يكن هذا هو الهدف ، وإنما الغاية أن لا ينصاع المسلمون في تعاملهم مع الدنيا إلى وحي رعوناتهم النفسية وأهوائهم الغريزية ، بل أن يقبلوا عليها بإرشاد من عقولهم التي آمنت ببيان الله عز وجل ، واستيقنت حديثه لهم عن الكون والإنسان والحياة ، وعن سبيل التعاون الذي يجب أن يتم ما بين هذه العناصر الثلاثة .

لذا عاد البيان الإلهي ، بعد مرور حين من الزمن ، أخرج المسلمون خلاله أمر الغنائم من أذهانهم ، يخاطبهم قائلاً :
﴿ واعْلَمُوا أَنَّما غَنِمتُمْ مِنْ شَيءٍ فأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وللرَّسولِ ولِذي القُربى واليتَامى .. ﴾ الآية [الأنفال : ٨/٤١] ، وأوحى الله إلى رسوله بياناً تفصيلياً بكيفية توزيع الغنائم على المسلمين والمقاتلين .

وإنك لتعلم أنه كان من اليسير أن يتنزل هذا البيان من أول يوم ، ولكن لو تم ذلك ، لجاء استجابة للنفوس المتطلعة والأهواء الهائجة ، فيكون ذلك تعويداً ، بل إغراء لها ، على السعي في هذا السبيل ، فلما جابهم البيان الإلهي بذلك التأنيب سكن جماح النفوس ، واستيقظ في مقابلة الفكر المؤنب ، وجاشت المشاعر الإيمانية بالندم ، ولما عاد البيان الإلهي بعد حين يجيبهم عن ما سألوا عنه ، ويفصل لهم كيفية توزيع الغنائم ، استقبلوا الجواب بعقولهم المؤمنة المتبصرة ، دون أن يكون عليها أي خطر من غوائل النفس وأهوائها .

وهكذا فإنّ بوسعك أن تجد تجارب سلوكية كثيرة ، في حياة النبي ﷺ مع أصحابه ، جاءت تطبيقاً ، وإن شئت قل : تمريناً على التعليمات القرآنية التي تلقوها نظرياً من كتاب الله تعالى ، عن كيفية تعاون الإنسان على أفضل وجه مع الكون والحياة .

ولقد تمرس الرعيل الأول من المسلمين على تطبيق هذا القانون في حياتهم الاجتماعية ونظمهم التربوية ، فكانت آثاره الإيجابية العظيمة متجلية في حياتهم وفتوحاتهم ، وفي المدّ الحضاري الذي تحقق على أيديهم في مدة يسيرة ، وعلى غير توقع .

ولعلّ سياسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، أبرزت تطبيق هذا القانون على أتم وجه ، حتى لكأنه كان يعلّم أئمة المسلمين وحكامهم بعد رسول الله ﷺ ، كيف يستخدمون الدنيا لمصالح الأمة إلى أبعد مدى ممكن أيضاً .

فلقد مصّر ، رضي الله عنه ، الأمصار ، وبنى الكوفة والبصرة ، ودوّن الدواوين ، وشرع في إنشاء أسطول من السفن ، ورتب لأول مرة نظاماً لصادرات الدولة ووارداتها ، وسهر على رفع مستوى الدخل ، وسد حاجات الجند ، ولكنه ظل على الرغم من انهماكه في ذلك كله لا يؤثر على مرقعته البالية أي ثوب ، وبقي يسير في حياته الشخصية على صراط من الزهد والاخشيشان ، والابتعاد عن مظاهر النعيم وأسباب المتعة والرفاهية .

وهو لو شاء أن يتجمل في لباسه ، ويرفه عن نفسه ، ويعطيها حقها من الدنيا ، ضمن حدود الاعتدال ـ لما وجد ما يمنعه من ذلك ، غير أنه ـ وقد تمثلت في ذهنه الحقيقة التي أوضحناها ـ خشي إن هو أرخى لنفسه الزمام إلى شيء من الدنيا وشهواتها ، أن تتذوقها فلا تصبر عنها فتجمح به ، وتركب إلى بلوغ أهوائها كل صعب وذلول ، فيتحول عندئذ أسيراً في يد الدنيا بعد أن جعلها الإسلام أسيرة في يديه ، ولو لم تكن الدنيا قد فتحت عليه من أطرافها ، لما كان لهذا التخوف من موجب ، ولكن اندلاق الدنيا عليه فرض عليه تلك المخاوف وحمله على أن يلجأ إلى كوابح الحيطة والحذر .

ثم إنه (وقد رأى بعينه كيف أعطى الله تلك الجماعة القليلة الفقيرة المستذلة مفاتيح الدنيا ومقاليد النصر ، بفضل الصياغة القرآنية التي صيغت بها أفئدتهم ونفوسهم) كان يحرص كل الحرص أن تتبيّن فيها الأمم الأخرى هذه الحقيقة ، وأن يأخذوا منها لأنفسهم هذه العبرة ، وأن لا يخطئوا فيظنوا أنّ العرب إنما اندلقوا إلى الدنيا التي حولهم ، من جزيرتهم التي طالما ظلوا قابعين فيها ، لجوع دنيوي عضّ على بطونهم ، أو لشهوة للنعيم هاجت في نفوسهم ، فكان يصرّ إصراره على أن يبصّر العالم كله بسعي الدنيا وراءهم على الرغم من إعراضهم عنها ، وبخضوعها لسلطانهم على الرغم من تزهدهم فيها ، وفاء مع الدين الذي كان إليه الفضل في إعزازهم ، وإرشاداً للناس أن يسلكوا مسلكهم ، فيتعرفوا على هويّاتهم ، ثم يتعاملوا على أساس ذلك مع أنفسهم ومع كل من الكون والحياة .

فمن أجل هذا ، لم يبال حينما قدم إلى الشام أن يستقبله أجنادها وبطارقتها ، وهو يرتدي جبته البالية التي كان قد ألصق بها ما يزيد على اثنتي عشرة رقعة بعضها من جلد ... ولما همس في أذنه أبو عبيدة : الآن يلقاك بطارقة الشام يا أمير المؤمنين ، وأنت على هذه الحال ، قال له : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلّنا الله [1] .

ولولا اصطباغ أفئدة ذلك الرعيل الأول بهذه التربية القرآنية ، لعشيت أعينهم من مرأى المجوهرات النادرة والأعلاق الثمينة وأمواج الذهب والاستبرق ومظاهر البذخ العجيبة ، التي فوجئوا بها أيام القادسية [2] ولدخل أفئدتهم من ذلك الهلع والاستعظام ، ولارتدّوا على أعقابهم ، يقيناً منهم بأن رجال الصحراء لن يستطيعوا التغلب على الحضارة الفارسية التي تتهادى وسط عباب من ماء الذهب والاستبرق .

---

(١) فتوح الشام لزيني دحلان ٣٥٣/٢ .

(٢) حشد رستم مظاهر هائلة من ذلك كله أمام أبصار المسلمين ، آملاً في أن ترهبهم ، فتفتّ في عضدهم ، فينصرفوا عن قتال الفرس ، ولكنه لم يعلم أنهم لم يتجهوا لفتح تلك البلاد إلا بعد أن اتخذوا من التبصرة القرآنية مصلاً واقياً ضد حربهم الجرثومية تلك .

ولكن استهانتهم بذلك كلـه ، هي التي أخضعت لهم مملكـة الفرس بـأسرهـا ، وهي التي جعلتهم يستاقون آلاف الملايين من تلك الجوهرات والنفـائس النـادرة ، وكأنهم إنمـا يستـاقون أكوامـاً من حجـارة الأرض وترابهـا ... فتركوهـا بين يـدي أمير المؤمنين ، ثم انصرفوا لا يلوي أحد منهم على شيء .

ولو لم يستهينوا بها لوقعوا في فلـك جـاذبيتهـا ، ولمـا نـالهم منهـا إلا سيلان لعـابهم عليها ، ولارتدوا إلى أوطانهم خاسرين وخائبين .

ودونك فانظر إلى تلك الدولة الإسلاميـة الراسخـة التي أمكن الله من إقـامتهـا في قلب الظلام ، رجلاً واحداً هو عبد الرحمن بن هشام الـداخل[1] دون أن يكون لـه أي عون مادي من حوله ، ودون أن يلقى معه أي شريك معه يقاسمه في جهده .

فما الذي مزق من طريقه العقبات ، وأزاح مما حولـه سحب الغربـة ، وأخضع لـه أهم بقاع أوربا آنذاك ، حتى أشاد فوقها ، ووسـط محيـط من الظلام الـدامس ، وفي أقل مدة من الزمن ، حضارة إسلاميـة متكاملـة المرافق والبنيـان ؟ وهل تتبـاهى الأنـدلس اليوم بحاضرها كله ، كما تتباهى بأمجاد تلك الحضارة التي ازدهرت بها في ذلك العصر أيما ازدهار ؟.

إنـك إذا درست ترجمـة عبـد الرحمن الـداخـل ومنـاقبــه ، أدركت أنــه ذهب إلى الأنـدلس ، وليس معـه من مقـومـات العمـل السيـاسي والكسب الحضـاري ، إلا تلـك التبصرة القرآنية عن الكون والإنسان والحياة ، قد اصطبغت بها نفسه ، واستحلّت مكان اليقين من فكره وقلبه ، فكانت تلـك التبصرة أروع مفتـاح فتح الله لـه بـه السبيل إلى إقامة مجتمع إنساني سليم يتمتع بحضارة إنسانية مثلى في أقصر حين من الزمن .

---

(١) كان عـالمـاً متعبـداً عـادلاً ، وقف حيـاتـه على الجهـاد في سبيل الله ، توفي عـام ثمـان وثـلاثين ومـائتين (شذرات الذهب ٨٩/٢) ومـا ينبغي أن تعجب إن رأيت من المؤرخين والكتـاب الأوربيين من ينعتـه بصفات أخرى ، بل ما ينبغي أن تتوقع منهم غير ذلك .

وقد ظلت تلك الحضارة مستقرة في أوج قوتها وريعان شبابها ، حتى خلف على رعايتها خلف ، أهملوا تلك التبصرة القرآنية ، فاتجهوا إلى الدنيا والتعامل معها بنفوسهم وأهوائهم ، بعد أن كان يتجه إليها من قبلهم بعقولهم وبصائرهم ، فاستمرؤوا مذاقها ... فاستزادوا من شهواتها ... فسكروا بها ... فكان أن تحول بهم السكر إلى رعونة وطغيان ، وانغمسوا في حياة البذخ والترف ، وانزلقوا إلى المصير الذي طالما خشي منه عمر بن الخطاب على نفسه وعلى المسلمين من حوله وممن يأتون من بعده !!...

فكان أن حقت عليهم سنة الله في عباده ، فهبطت تلك الحضارة من أوج قوتها متدرجة إلى دركات الذبول والضعف ، ثم انحطت أخيراً في وادي الزوال والانمحاق ، كما يخرّ شهاب مضيء اتّجه مختفياً وسط غمد الظلام !..

وإن تعجب لشيء ، فاعجب عجباً لا ينتهي ، من أناس يريدون أن يعبروا عن إكبارهم لتلك الحضارة فلا يجدون ما يستشهدون به على موجبات ذلك الإكبار ، إلاَّ مؤشرات ضعفها وانحدارها نحو الأفول والزوال !... يريدون أن يبرهنوا للناس ـ فيما يزعمون ـ على مدى روعة تلك الحضارة الإسلامية وعظمها ، فلا يقفون بهم إلا على الأمراض التي استشرت في كيانها ، ولا يعرضون أمامهم إلاَّ صور هبوطها واتجاهها نحو الاضمحلال فالفناء ، وهم عن أيام أمجادها وأسباب نشأتها وقوتها معرضون وغافلون !!...

أجل والله إنه لفكر منكس عجيب !!..

يتباهون من حضارة الأندلس بزخارفها وباذخات قصورها ، وهي لم تكن ـ لو علموا ـ إلاَّ مؤشرات الشيخوخة في حياتها ، ونذر اتجاهها نحو التفكك والزوال !... ويُعجبون منها بأصداء الأغاني التي كانت تتعالى من أبهاء تلك القصور ، على طول لياليها المضيئة ، مع أنها لم تكن ـ لو فهموا ـ إلا حشرجة الموت تتعالى من خلال أنفاسها الأخيرة !...

فما أشدّ بلاء أمة ، وصلت من الجهل والبلاهة ، إلى حيث تقف منتشية معجبةً بمظاهر الشحوب في مغرب الحضارات ، وهي تحسب أنها إنما تقف أمام مشرقها ، ومصدر قوتها وتصاعدها !...

وقد يُعذَر أصحاب تلك الحضارات إن جهلوا اتجاه سيرهم ، لأنهم قد لا يستطيعون رصد اتجاهاتهم الجزئية بالعين المجردة أو من خلال حكم فترة زمنية قصيرة ... ولكن لا يعذر إطلاقاً أن يجهل الاتجاهات والنتائج من قد جاؤوا من بعدهم ، وأخذوا يدرسون حياتهم وخطوط سيرهم بشكلها الكلي منبسطة على رقعة التاريخ .



فتلك هي جملة ما يجب أن نعرفه عن حقيقة المكونات ، كما يبّصرنا بها القرآن . وقد أتبعناها باستعراض بعض آثار ذلك التبصر ، بارزة واضحة في صفحات التاريخ ... بل هذه بقايا تلك الآثار قائمة أمام بصر كل مشاهد ، ناطقة بالعبرة أمام بصيرة كل متدبر .

مَا هِيَ ٱلْمَعْـرِفَةُ فِي ٱلْقُرْآنِ ؟

لعلك تسأل : ما علاقة هذا البحث بالبحوث الثلاثة التي خلت ؟

والجواب أننا لم نخرج ، بالانتقال إلى هذا الفصل الجديد ، من حدود تلك البحوث الثلاثة بعد ، إذ إن موضوع المعرفة نسيج تتكون سداه ولحمته من الحديث عن الإنسان والكون والحياة ... فنحن لم نكن نتحدث إلى الآن في شيء آخر غير المعرفة التي يجب أن يتمتع بها الإنسان تجاه هذه العناصر الثلاثة ، ومن ثم ، فإننا لن ننتقل في حديثنا الجديد هذا إلى أي موضوع أو بحث غير الذي كنا نتكلم فيه .

وبوسعك أن تعلم أن السبيل القرآني إلى إنشاء الحضارة الإنسانية المثلى ، يتمثل ـ بكلمة وجيزة جامعة ـ في أن يعرف الإنسان كلاً من هذه الأركان الثلاثة للمكونات معرفة صحيحة ، وأن يعرف وجه العلاقة القائمة فيما بينها .

غير أنا بحاجة ماسة إلى أن نستخلص حديث (المعرفة) ونفرده في فصل مستقل ـ على الرغم من إمكان التنبه إليه وإلى طبيعته وشروطه من خلال كل هذا الذي علمناه إلى الآن ـ لأنّ هذا الحديث لا يزال ، مع الأسف ، بعيداً عن تصور سواد الباحثين والمثقفين ، بل حتى عن مدارك كثير من أولئك المتخصصين الذين أنفقوا أيام حياتهم سعياً وراء العلم والمعرفة .

فالمعرفة الحقيقية لا تتم على وجهها الصحيح ، ومن ثم فهي لا تنتج أهم ثمارها المرجوة ، إلا إذا نهضت على شرط أساسي هام ، طالما لفت القرآن النظر إليه من خلال أحاديثه عن الإنسان والكون والحياة ، فإن فقد هذا الشرط جاءت المعرفة ـ وإن كانت صحيحة بمعناها الجزئي ـ مقطعةً مهتزة مضطربة ، بل هي قل أن تكون عندئذ مرآة صافية صادقة للحقيقة التي يراد أن تشرق على صفحتها !... ومن ثم فإنك تجد أصحاب

المعرفة التي من هذا النوع (وهو النوع الوحيد الذي يتداوله أكثر الناس في هذا العصر) لا يكادون يستريحون إلى شيء من معارفهم التي جنوها ووصلوا إليها ، بعد طول بحث وجدّ ... بل يظلون مشوشين متشككين . بل إن معارفهم تلك لا تزيد صفحة الكون أمامهم إلا تعقداً وغموضاً .

وهذا هو السرّ في أن جلّ العلماء والفلاسفة الذين ملأت أسماؤهم الدنيا ، عادوا بعد رحلتهم الطويلة في سبيل المعرفة ، يشكون الجهل ، وينشدون المعرفة ، ويتبرمون بالحيرة ، ويعانون من الاضطراب !...

لقد رأينا الفيلسوف البريطاني برتراندرسل ، يشكو ، فيما يقصه علينا من سيرته الذاتية ، أنه على الرغم من كونه وصل إلى كثير مما كان يحلم به ويسعى للوصول إليه ، إلاّ أنه لم يعد من سعيه وراء أمنيته الأولى ، وهي المعرفة ، إلا بأوكس الحظوظ !...

كما رأينا من قبله أنشتاين ـ وهو الذي أبدع نظرية النسبية ، وحدد قوانين الفضاء والزمن والجاذبية ـ يشكو المعضلة ذاتها ، ويعلن لصديقه الكاتب الأمريكي جورج فيرك أن كل ما جمّعه من معلومات عن الكون ، لم يستطع أن يقدم له عنه إلا لغزاً مقفلاً يستعصي على الحل !...

ولقد سمعنا الشكوى ذاتها من علماء وفلاسفة آخرين خلوا من قبل !...

بل إنني لعلى يقين بأن ظهور المذاهب الفلسفية المتطرفة ، من مثالية ، ومادية ، ووجودية وذرائعية ونحوها ، ليس إلا ثمرة اضطراب جاء على أعقاب معرفة مقطعة مجزّأة عن تصور الهيكل الكلي لهذا الوجود ، هذا مع التجاوز ، وافتراض أنها جاءت معرفة صحيحة مطابقة .

فلماذا ؟... وكيف ؟... كيف يتأتى لعقل واحد من هؤلاء جميعاً أن يهضم أدق الأصول الرياضية أو يكتشف قانون النسبية ، ويعطيه دستوره الرياضي ، أو يكتشف

أعاجيب المخترعات ... ثم يشكو مع ذلك أنه لم يصل إلى طمأنينة المعرفة ، وأنه ـ بكل بساطة ـ يجهل الحقيقة ؟

والجواب على هذا : أن الشرط الأساسي لتحقيق المعرفة قد فقد عند هؤلاء جميعاً !...

ولسوء حظ هؤلاء الناس ، أن هذا الشرط لم ينبه إليه ولم ينوّه بأهميته إلا القرآن ... ولقد كان القرآن ، ولا يزال ، بعيداً عن تأمل هؤلاء الناس جميعاً .

فما هو هذا الشرط ؟

إن الحديث عنه يتلخص في أن الوجود الكوني وحدة مترابطة المرافق والأجزاء ، فلا تستقيم معرفة أيّ جزء منه إلا ضمن قاعدة واسعة من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها .

وتفصيل القول في ذلك : أن ما قد نراه من العلوم والمعارف المستقلة بعضها عن بعض ، ليست في حقيقتها إلا أجزاء أو أعضاء مترابطة من بناء هذا الهيكل الكوني كله ، فهي في الحقيقة ليست ـ كما يتوهم ـ مستقلة عن بعضها . بل إن بينها من التمازج والتداخل والتفاعل ، ما يجعلك لا تحيط علماً بأيّ منها إلاّ على ضوء ما قد يبصّرك به المجموع الكلي لذلك الهيكل الكوني الشامل .

أرأيت إلى الفصول المتتابعة المستقلة ، من كتاب يعالج موضوعاً علمياً معيناً ؟ إن مما هو واضح لنا جميعاً أن استقلال الفصول التي فيه ليس إلاَّ من حيث الشكل التنسيقي فقط ، أما من حيث المعنى والموضوع ، فهي مترابطة فيما بينها ترابطاً تاماً ، إلى درجة أن استيعاب أي فصل منها وتذوقه ، متوقفان على استيعاب الفصول التي سبقته ، وعلى إتباعه بدراسة الفصول التي تليه ، فمن عكف من قراءة مثل هذا الكتاب على دراسة فصل واحد منه ، فإنه لن يعود من دراسته تلك إلا بمفاهيم مهشمة ومعارف

مبتورة مقطعة ، وهي في الحقيقة لون من أسوأ ألوان الجهل المركب ، وإن تبدّى في الظاهر أنها معلومات جزئية صحيحة .

بل أرأيت إلى الأعضاء والأجزاء المستقلة التي يتألف منها جسم الإنسان ؟ إن مما هو واضح لنا جميعاً أن الجسم الإنساني إنما يتكون من مجموع هذه الأعضاء والأجزاء كلها ، وإنْ ظهر نوع من الاستقلال والاختلاف فيما بينها ، ونظراً لذلك ، فإن حقيقة كل منها لا تتجلى للذهن إلا من خلال معرفة ما يتصل ويحيط به من الأجزاء الأخرى ، فمن صرف كل همه إلى دراسة الكبد وتحليله وعمله ، دون الالتفات إلى بقية أجزاء الجسم ، فإنه لن يفهم من حقيقة الكبد شيئاً ، ولن يتصور منه ومن عمله إلا معاني مهزوزة مضطربة ، ولن يرصد من حقيقته إلا ظواهر خفية مبتورة عن أسبابها ونتائجها .

فتأمل في بنيان هذا الهيكل الكوني ، ثم قل لي ، ألا تراه فصولاً متتالية من كتاب ذي موضوع واحد ، أو أجزاء مترابطة متكاملة من كلٍ يفسره جسم واحد ؟... وأليس هذا بعينه ما يعنيه العلماء بقولهم : إن هذا الكون وحدة متناسقة تؤكد وحدة خالقه ؟.

فإذا تصورت هذه الحقيقة ، وأدركتها بيقينك العقلي ، فإن من السهل عليك حينئذ أن تعلم بأن لا قيمة لأي معرفة جزئية يكتسبها الإنسان عن الكون إذا كانت بمعزل عن معرفة ما يتصل بها من الأجزاء والجوانب الأخرى ، وإن من السهل عليك أن تستيقن بأن الشرط الأساسي لصحة المعرفة الجزئية المتعلقة بأيّ فرع من فروع هذه المكونات ، أن تفرش تلك المعرفة فوق قاعدة تشكل معرفة كلية شاملة للوجود الكوني في جملته .

وقد علمت أن بنيان هذا الوجود الكوني يتألف من أركانه الثلاثة الكبرى : الإنسان ، والحياة التي يتمتع بها ، والمكونات التي تموج من حوله ، فما ثمة فن من الفنون

المختلفة أو علم من العلوم المتنوعة ، إلا وهو دائر في فلك من هذه العناصر الثلاثة الكبرى ... ثم إنك قد علمت أن هذه الأركان الثلاثة متصلة ببعضها ، متفاعلة فيما بينها ، يتقوم كل منها (في مظهره ووظيفته وآثاره) بالركنين الآخرين .

لذا ، فإن على من أراد أن يتجه إلى دراسة أيّ علم من العلوم الكونية ، كالفلك ، والنبات ، وطبقات الأرض ، والهندسة بفروعها ، والذرة ، والاليكترونيات ، أو إلى أي علم من العلوم الجسمية أو الإنسانية ، كالطب والتشريح والأجنة ، والخلايا الحيوانية ، والتاريخ ، والتربية ، والقانون ، والأديان .

أقول : إن على كل من اتجه إلى دراسة أي فرع من هذه الفروع ، أن يتخذ إلى ذلك مفتاحاً أساسياً ، لا بدل عنه ولا بدّ منه ، ألا وهو التبصر بالحقيقة الكلية ، المتمثلة في مجموعة : الإنسان والكون والحياة ، والتأمل في مظهر العلاقة السارية فيما بينها ، الشأن في ذلك تماماً كشأن من بسط أمامه خارطة ليطّلع من خلالها على موقع بلد أو مجرى نهر أو سلسلة جبال ، فمن البداهة بمكان أنّ عليه قبل كل شيء أن يتصور الرسم الكلي للخارطة ، وموقعها من الاتجاهات الفلكية المحيطة بها ، وما يتقاسمها من خطوط الطول والعرض ... فإن هو لم يبدأ بذلك ، لم تتحقق أي قيمة لتصوراته الجزئية عن خطوط تلك الخارطة وما انتثر فوقها من أسماء المدن والأنهر والجبال ، وإنْ هو توهمها معرفة وعلماً .

ثم إنّ على هذا الذي يريد أن يعكف على دراسة فرع من فروع المعارف الكونية التي ألمحنا إليها ، أن يبني دراسته المعمقة التي هو بصددها على ثقافة علمية عامة ، تتمثل في التنبه إلى علاقة العلوم المختلفة بعضها ببعض ، وفي اليقين بأن هذه العلوم متشابكة مترابطة ومترتبة بعضها على بعض ، كترتب فصول الكتاب الواحد بعضها على بعض ، وإن ظهرت لأول وهلة أنها متباينة ، وهذا يستدعي أن تكون لدى هذا الإنسان

المتخصص معرفة عامة وإن لم تكن معمقة بطبائع العلوم المختلفة ، وكيفية تسلسل المعرفة من صلة ما بينها .

فإذا سار الباحث عن المعرفة على هذا المنهاج ، وتحقق بهذا الشرط ، فلن تبقى آمال المعرفة غصة في صدره ، وأمنية متأبية على التحقيق في حياته ، بل سيتاح له أن يكشف عن الحقيقة أسْجافها ، وأن يتعرف على هذا الوجود الكوني الذي يدور في فلكه ، معرفةً قد تكون غير عميقة ، ولكنها تبعث الطمأنينة في نفسه بكل جزم وتأكيد .

إذ المهم في معرفة الشيء ، بادئ ذي بدء ، أن تكون شاملة لمجموعه الكلي محيطة بإطاره الذاتي ، ولا ضير في أن تأتي مرحلة المسح والتعمق متراخية من بعد ذلك . والسطحية إنما تتمثل في أن يعمد رائد المعرفة إلى مجهره وأدوات بحثه ، فيغوص بها إلى كنه جزء معين من أجزاء شيء ما ، قبل أن يتصور الهيكل الكلي لذلك الشيء ، وقبل أن يعلم موقع ذلك الجزء الذي يغوص إلى تحليله ، من كلّه الذي هو أساسه ومصدره .

ولنتأمل الآن ، كيف تتحقق المعرفة السليمة التي تبعث على الطمأنينة الفكرية والنفسية معاً ، من وراء اتباع هذا الشرط :

ها أنا ذا واحد ممن يتعشق المعرفة ويبحث عن حقائق الأشياء وكنهها ... وقد علمت ، كما قد يعلم كل الناس ، أنّ الإنسان بعقله الذي يتمتع به وتطلعاته التي تجيش في كيانه ، إنما هو الجهاز الأول والعدّة الكبرى لتحقيق هذه المعرفة ، فما من ريب إذن أنّ عليّ أن أبدأ فأتعرف على هذا الجهاز الذي سيكون أداتي الأولى في هذا الطريق الشاق ، لذا فلأبدأ بمحاولة التعرف على الإنسان .

ولحسن الحظ ، فإنني لن أحتاج إلى جهد كبير ... فقد سبق أن تعرّفت على الإنسان في أحد الفصول السابقة من هذا الكتاب .

ولكنّ حقيقة كبرى قد تجلت لي خلال عكوفي على معرفة الذات الإنسانية ، أو على معرفة ذاتي من خلال التأمل في الحقيقة الإنسانية ، فقد تجلت في كياني حكمة خالق باهر القدرة جليل الصنع ، كما تجلّت مالكية هذا الخالق لكياني ووجودي ، بمقدار ما تجلى خضوعي الكلي لسلطانه وتقديره .

ولقد أتيح لي ، من خلال اتضاح هذه الحقيقة الكبرى ، أن أتبيّن معنى الحياة التي أتمتع بها ، وأن أقف إجمالاً على مبدئها ومنتهاها ... ولحسن الحظ أنني وقفت على تفاصيل ما يتعلق بهذه الحياة أيضاً ، في فصل آخر من فصول هذا الكتاب .

والآن ، حان أن ألتفت إلى المكونات الهائلة الكثيرة التي تحيط بي ، وأن أسعى إلى معرفة هويتها بصورة عامة وشاملة ، بقطع النظر عن التأمل في أي مظهر من مظاهرها الجزئية الكثيرة والمثيرة ، ولدى التأمل ، وعلى ضوء ما قد وصلت إليه من اليقين بوجود الخالق عز وجل ، ومن التعرف على هوية الإنسان وحياته ، أتيح لي أن أدرك المعنى العام لوجود هذه المكونات المختلفة التي تطوف بالإنسان ، وأن أتبين صلة ما بينه وبينها ، وكيف أنها خاضعة لتسخيره مهيأة لخدمته ، ولن أطيل الكلام في هذا أيضاً ، فقد سبق بيان ذلك بشكل موسع في الفصل السابق .

لقد علمتُ إذن أن بنيان هذا الوجود الكونيّ بأسره ، إنما ينهض على دعامة من خلق الله ابتداء ، ورعايته استمراراً ، وأن هذا البنيان إنما هو الإنسان ، وأن المهمة التي أنيطت به ، إنما هي عمارة هذه الأرض ، وإقامة مجتمع إنساني عليها ، تشرق فيه العدالة ، وتشيع في أنحائه الرحمة ، ولما كان الإنسان عاجزاً عن إبداع موازين العدل السليم ، وعن تفجير ينابيع الرحمة ، من داخل فكره ووجدانه ، نظراً لما رُكّب فيه من الصفات التي أتينا على ذكرها في الفصول السابقة ، فقد أنجده الله تعالى بمنهج لإقامة العدل ، ودلّه على سبيل لاستثارة أسباب المحبة والتراحم ، ثم ألزم المؤمنين بذلك إلزاماً

وحملهم على ذلك حملاً ، وشدّهم إلى تنفيذ ذلك المنهج بعوامل الترغيب والترهيب ، وكلفهم أن يكونوا رقباء على بعضهم في رعاية العدل وإقامة سلطان الرحمة والتآلف .

لقد تمثل الهيكل الكوني كله إذن أمامي ، كما تتمثل شجرة باسقة عظيمة أمام عيني ، عندما أنظر إليها قائمةً على أرض مستوية ، عن كثب ، ليس بيني وبينها أي سحاب أو حجاب ، فهي جلية أمام العين في هيكلها ، وفي ضخامة جذعها ، واتساع فروعها ، وفيما تحمله من ثمر بين أوراقها ، ثم هي بارزة متميزة في موقعها وبالنظر إلى ما حولها .

نعم ، هكذا يتمثل الوجود الكوني كله ، أمام بصيرة كل من أقبل على هداية القرآن ، وتأمل في بياناته وإرشاداته ، فاتحاً له عين قلبه ، معرضاً عن مشوشات عصبيته وأغراضه ، وعندئذ لا بدّ أن يزول الاضطراب عن النفس ، وتشيع في مكانه الطمأنينة والسكينة .

ولا عليه بعد ذلك أن يبدأ فيتعمق فيما يشاء أن يتعمق في علمه ، من الجوانب والأجزاء التي يجب أن يتعمق في معرفتها ، أو أن يتخصص بدرايتها ، فإنه لن يضيع عندئذ في المتاهات ، ولن يخدع منها بألوان الطيف المنبعثة من تكسّر تلك الأجزاء وانفصالها عن الكل المتقومة به ، بل سيكون له من الخارطة الكلية التي انطبعت في بصيرته ، ما يخرجه من المتاهات ويردّه عن الضلالات ، ولسوف يدفعه فهمه الكلي السابق لحجم البنيان الكوني وتركيبه الإجمالي ، إلى الربط بين الجوانب والأجزاء التي قد تبدو له أنها مستقلة بعضها عن بعض ، بل ستبصره تلك المعرفة الكلية السابقة بشرايين التفاعل السارية فيما بينها .

أي إن صاحب هذه البصيرة الكلية ، لا يمكن أن يطاوعه عقله ، على دراسة التاريخ أو التاريخ الطبيعي مثلاً ، بمعزل عن يقينه العلمي بحقيقة الكون والإنسان والحياة ، ولا على دراسة النشأة الإنسانية وتطورها ، بمعزل عن التأمل في النشأة الكونية في مجموعها والنظر في وجود الله وخالقيته للكون ، كما لا يمكن أن يطاوعه عقله

على دراسة الشريعة الإسلامية من حيث هي قانون ، للمقارنة والنقد ، دون أن يـدرس شيئاً كافياً عن سيرة سيدنا محمد ﷺ ، وحياته الشخصية ، من المصادر العلمية الأصلية ، ودون أن يتعرف على حقيقة القرآن وسماته ... وهكذا .

غير أن الذي ضلّ أول الطريق عن الدعامة التي ينهض عليها هـذا الوجود الكوني بأسره ، وهي خـالقيـة الله عز وجل ، لا بـدّ أن تتسلسل الأخطـاء بعـد ذلـك مقتحمـة تصوره وفكره من كل جهة وصوب ، ولا بـدّ أن ينظر إلى هـذه المكونـات المتنـاثرة من حوله (وقد تاه عن السلك الذي ينظمها جميعاً مع بعضهـا) على أنهـا وحـدات متفرقـة مستقلة عن بعضها ، نسجتها رياح العشوائية ، وجمعت بينها المصادفة ، ولكنه يتأملهـا جيداً فيصل منها إلى عمق يحيّر الألباب ، ولا يجد لهـا في مبلغ علمـه تحليلاً ولا تـأويلاً ، فتسلمه الحيرة إلى القلق والاضطراب ، وربما إلى الجزع والجنون .

ثم إنه ، وقد ضل عن رؤية ذلك السلك الـذي ينظم أجزاء الكون ومعـارفـه أجمع في وحدة مترابطة ، يدرس كل قطعة فيه على حدة ، ثم يحملق في أجزاء منها آملاً في أن يدرك منها كنه أعماقها ، مع أنه لم يتصور بعدُ حتى موقع تلك الأجزاء من الكل الـذي هي داخلة في قوامه !... فلا بدّ أن توقعه تلك الطريقة الخاطئـة في تصورات بـاطلـة ، ومفاهيم مضطربة ، وتدفعه إلى سدود من الحيرة لا سبيل لاقتحامها والتخلص منها .

ولنضرب على ذلك مثلاً من الوقائع المشاهدة :

يهتم كثير من الباحثين بدراسة قصة النشـأة الإنسـانيـة الأولى وفرضيـة تطورهـا ، مبتدئاً من بنيـة الوجود الكوني كلـه بهـذه النقطـة ، ومعرضـاً عن تحقيق الشرط الـذي أوضحنـاه للسير في طريق المعرفـة ، فكيف يسير هـذا البـاحث في بحثـه العلمي هـذا ، وإلى أي نتيجة يصل ؟؟

إنه يستعرض آراء ذوي النظريات المختلفة في ذلك ، فيبدأ مثلاً بنظرية لامارك ،

الـذي يرى أن أنـواع الأحيـاء كلهـا كانت ممتازجـة في أصـل واحـد ، ثم إنهـا تفـاوتت واختلفت تبعاً لتأثير الوسط والبيئـة والحـاجـات العضويـة المختلفـة ، ولكنـه مـا يكاد يستوعبها حتى يبصر سيلاً من النقد الكثيف قد أغرقها .

وتطالعه بعد ذلك ، نظرية ما يسمى بالداروينية القديمة ، وهي التي تفرض بـأن الإنسـان تطـور من كائن بسيـط تحت سلطـان القـانـون الـذي يعطي أولـويـة البقـاء للأصلح ، ولكنه ما يكاد يتفهمها حتى يفاجأ بسيل آخر من النقـد الجـارح عليهـا : من الذي وضع مقياس الأصلح وفرق بين الصالح والفاسـد وعلى أي أسـاس ؟... وأين هـذا القانون المزعوم من الطبيعة التي تجفف مستنقعـات شـائعـة ، أو تحسر ميـاهـاً غـامرة ، فتنطفئ على أعقاب ذلك حيـاة ملايين الأرواح التي كان من الممكن أن تواصل سيرهـا في فجاج الحيـاة مستظلـة بحمايـة القوة والصلاح ؟... بل أين هـذا القـانون من الـدنيـا العريضة التي ترى كيف يزدحم فيها جميع أشكال الموجودات ، بدءاً من أصغر الهلاميات وأضعفها ، إلى أرقى نمـاذج الأصلح والأقوى ، دون أن ينسخ الصـالح منهـا الفـاسـد عن الوجود ؟...

وينتهي الباحث من دراسة هذا النقد الذي لا جواب عليه ، لتطلّ عليه في أعقابها نظرية ثالثة ، تسمى بالداروينيـة الحـديثـة ، تقول : فلنقرر إذن بـأن الإنسـان تطور تطوراً عشوائيـاً على أسـاس الطفرة ، لا على أسـاس الرقيّ في سلّم نحو مـا هـو الأصلـح ، ولكن المنطق يعود مرة أخرى ، ليتسـاءل : فهـلا شـدّت الطفرة الإنسـان ذات مرة إلى الخلف ، بـدلاً من أن تنهض بـه دائماً إلى الأعلى ...؟ وهـلا تجـاوزت الطفرة بـه مرة واحـدة ، خـط النظـام الـدقيق الـذي يسير وفق سبيل مرسوم إلى تحقيـق علـة غـائيـة مرسـومـة ، وقـد علم جميـع العقـلاء أن العلّـة الغـائيـة تمثـل أعقـد عمليـات التنظيم والتدبير ؟!..

فماذا فهم هذا الباحث ، وإلى أي قرار علمي انتهى ؟.

إنه لم يقف ، كما رأيت ، إلا على مدافعات فكرية ، يفنّد فيها اللاحق السابق ، وجميعها خاضع لنقد علمي ومنطقي مكشوف لا يغفل عنه أي متأمل عاقل ، ولا ريب أنه لم يعد من تأملاته التي أرهق نفسه بها ، إلا بحيرة مطبقة لا مفرّ منها .

وإنها لنهاية مسدودة لا مناص منها ، ولا مفر من الحيرة عندها ، ما دام أن البحث لم يبدأ قبل ذلك ، بدراسة مسألة أسبق منها في الشمول والترتيب الطبيعي أو العلمي ، ألا وهي البحث في النشأة الكونية الكبرى قبل كل شيء ، والنظر من خلال ذلك في إمكان أن يكون هذا الوجود الكوني قد ظهر وتناسق بدون خالق ومنسق ؟

وهذه النهاية من الحيرة ، هي بذاتها النهاية التي وقف عندها أصحاب تلك النظريات أنفسهم ، وإن ظهر لك من كلامهم أنهم يقررون ، كما لو كانوا على يقين مما يقولون : ومن قرأ كتاب أصل الأنواع لداروين ، وقف على مبلغ الحيرة التي اصطبغ بها فكره ، وهو يعالج هذه الفرضية ويجيب عن أسئلة المستشكلين وانتقاداتهم ...

ولو أن هؤلاء الباحثين أقبلوا أولاً إلى التأمل في هذه الحقيقة الكونية الشاملة ، لانتهوا إلى معرفة ثابتة تسلّمهم المفتاح الذي يمكنهم من أن يكشفوا خوافي تلك المسألة الجزئية التي أهمهم شأنها ، ولنجوا بذلك من دوّامة الحيرة التي لا مخرج منها .

أريد أن تتنبه من خلال هذا المثال الواقعي ، وأمثلة كثيرة أخرى ، إلى أن المعارف والعلوم الكونية مهما اختلفت عن بعضها في الظاهر ، فإنها متشابكة ببعضها في الحقيقة وواقع الأمر ، وليس من سبيل إلى أن تتصور شيئاً منه تصوراً صادقاً سليماً يبعث الطمأنينة في الفكر والنفس ، إلا إذا استعنت على ذلك بمعرفة قاعدته التي هي أسبق منها وأشمل .

ولا ريب أن القاعدة الكبرى التي تنهض عليها شتى فروع المعارف والعلوم ، هي التأمل في إمكان أن يكون هذا البنيان الكوني كله ، قائماً دون أن يستند إلى دعامة

خلق أو تدبير ، من قبل فاطر حكيم أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فإذا انتهى الباحث من ذلك إلى يقين علمي سليم ، انسكب له من ذلك ضياء اليقين إلى الحلقات العلمية الفرعية الأخرى .

ولاحظ أنني إنما أعبر عن القاعدة العلمية الكبرى ، التي تنهض عليها شتى فروع المعارف والعلوم بـ « التأمل في إمكان أن يكون هذا البنيان الكوني قائماً بذاته دون استناد إلى وجود مكون ومبدع » أي فأنا لا أدعو الباحث إلى الاعتقاد والتسليم بادئ ذي بدء ... إذا لا خير في عقيدة لا يمسكها رباط من علم سليم . وإنما أدعوه إلى أن يدرس دراسة علمية ، مدى احتمال أن يكون هذا الكون قائماً بدون مكون ، ثم أن لا يقيم قراره الاعتقادي إلا على أساس هذه الدراسة المستوعبة الدقيقة .

ويتحصل من هذا الكلام كله قانون علمي يجب أن يسترعي انتباهنا ، وهو أن دراسة (٢٠٪) من كتلة ذات أجزاء متراكبة ، ليس من شأنها أن تؤدي حتماً إلى معرفة (٢٠٪) من حقائق تلك الكتلة ، بل إن مثل هذه الدراسة قد لا تؤدي حتى إلى معرفة (١٪) من تلك الحقائق ، أو قد توصل إلى تصورات خاطئة ومشوشة عن مجمل تلك الكتلة ، ولا عبرة بما قد يعود به هذا الباحث من أوهام يحسبها معارف وعلوماً ... وإلا فأخبرني : كم هي نسبة المعارف الصحيحة التي يعود بها ذاك الذي وضع منظاراً مكبراً على رقعة صغيرة من خارطة كبيرة ، ثم راح يحصر نظره وفكره في دائرة ذلك المنظار ، ويتأمل في الألوان الساطعة والخطوط الكبيرة التي تلوح تحت عينيه ؟... نعم إنها تسمى في اللغة معرفة ، أن يدرك الألوان على حقيقتها ، وأن يقرأ أسماء المدن قراءة صحيحة ، وأن يتبيّن تعاريج الخطوط كما هي ، ولكنها تسمى في هذا المقام معرفة ميتة ، إذ لا صلة لها بشيء من المعارف التي تتضمنها تلك الخارطة في مجموعها الكلي .

فتلك هي حقيقة « المعارف » التي يعود بها من قد حصر فكره من بنيان هذا الوجود الكوني ، في زاوية من زواياه ، أو جزء من أجزائه !... إنها بكل تأكيد معارف

ميتة ، لا صلة لها بشيء مما توحي به المجموعة الكونية كلها من المعارف والمعلومات ... وهي لذلك أعجز من أن تمدّ صاحبها بشيء مما ينشده الباحث من طمأنينة اليقين والعلم .

ومن أجل ذلك : شكا أمثال براتراندرسل وانشتاين ، وكثير ممن خلوا من قبل ، بعد الرحلة الشاقة الطويلة التي قطعوها سعياً وراء المعرفة ، من أنهم لم يعودوا منها بشيء ذي بال !... ولقد كان كلٌ من هؤلاء بصيراً جداً ، إذ لم يغترّ بالمعارف المبتورة المجتزأة التي حصّل عليها ، ولم يركن إليها ، ولكنه كان في الوقت ذاته غافلاً جداً ، إذ لم يدرك سرّ عدم وصوله إلى المعرفة ، ولم يقف على الشرط الذي افتقده في الطريق إلى نيلها .

☆ ☆ ☆

نعود بعد هذا البيان فنقول : إن السبيل إلى اكتساب المعرفة الكلية الشاملة التي من شأنها أن تبعث الثقة بالمعلومات الفرعية والجزئية التي تأتي على أعقابها ، لا يتحقق إلا عن طريق كتاب الله عز وجل ، فهو الذي يقدم للإنسان خارطة إجمالية لبنيان هذا الوجود كله ، وهو الذي يعرّفه على مرافق هذا البنيان ، وعلى صلة ما بينها وسبل الاستفادة منها [(١)] .

---

(١) هنالك علم ظهر حديثاً بالنسبة للعلوم الأخرى ، بوسعنا أن نتصور أنه يقف على عتبة هذا المنهج القرآني إلى المعرفة الشاملة التي يجب أن يتم الانطلاق منها إلى شعب العلوم الجزئية المختلفة ، وهو ما يسمى بعلم الأنثربيولوجيا ، ويمكن أن نعرّفه بأنه علم يتحدث عن الإنسان من حيث هو ، أي من حيث هو كائن طبيعي واجتماعي معاً ، فهو يتسم بشمول نسبي ـ بالنظر إلى الإنسان وحده ـ تندرج فيه علوم إنسانية شتى .

ومصدر اهتمام الأوربيين بهذا العلم ، استشعارهم الحقيقة التي نشرحها في هذا الفصل ، واقتناعهم بأن على الإنسان أن يحرز وعاء كلياً شاملاً من المعرفة قبل كل شيء ، حتى يتاح له أن يجمع فيه منثورات العلوم والمعارف الجزئية التي يقتطفها من هنا وهناك ، ويطمئن إلى حقيقتها .

ولكن طبيعة الشمول المطلق الذي تتسم به هذه المعرفة ، تجعل من الممكن أن يستقل الإنسان برسم =

وإن فيما استعرضناه في الفصول السابقة ، من تعريفات القرآن لكل من الإنسان والحياة والكون ، وكشفه عن صلة ما بينها ـ ما يغني عن إعادة الشرح والبيان .

فإذا وقفت بعد هذا على مثل قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِن شَيءٍ ﴾ [الأنعام : ٦/٣٨] ، وعلى كلام العلماء بأن القرآن قد حوى كل المعارف والعلوم ، وأعوزك أن تعلم معنى ذلك ، فإن فيما قد تم بيانه ما يكشف لك عن حقيقة المعنى المراد . إذ إن القرآن قد حوى فعلاً أصول المعارف كلها ، عند وضع الإنسان أمام الرسم البياني الشامل للوجود الكوني بأسره ، إلى درجة أن اكتشاف أي حقيقة علمية لا تكتسب قيمتها العلمية الصحيحة ، إلا إذا تمت ضمن تصور سليم لذلك الرسم البياني .

وهذا هو المقصود بالعلم الذي ينوه القرآن بأهميته وشرفه في كثير من الآيات ، من مثل قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنْكُم والَّذين أوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ ﴾ [المجادلة : ٥٨/١١] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَستوي الَّذين يَعْلَمونَ والَّذينَ لا يَعْلَمونَ ﴾ [الزمر : ٣٩/٩] ، وقوله : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُولوا العِلْمِ ﴾ [آل عمران : ٣/١٨] . وقوله : ﴿ إنَّما يَخْشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ [فاطر : ٣٥/٢٨] .

فإذا تبين لك ذلك ، اضمحل الإشكال الذي قد يقوم في ذهنك ، كما قد يقوم في أذهان كثير من الناس ، من أن الدنيا مليئة اليوم بالعلماء الأفذاذ ، ومع ذلك فإن

= حدودها وحجمها ، وعلم الأنثربيولوجيا لا يمكن أن يكون أكثر من محاولة خائبة في هذا السبيل ، غير أن قيمته تتجلى في شيء واحد فقط ، هو اعتراف جلّ العلماء المعاصرين ، بأن كل ما جمعوه من نثار المعلومات لم يغنهم عن معرفة الإطار العام لهذه البنية الكونية شيئاً ، وشعورهم بالحاجة الماسة إلى أن يتصوروا هذا الإطار العام ، قبل الغوص العابث في جهة من جهاته .

أما إذا شاء الإنسان أن يبحث حقاً عن سبيل إلى هذه المعرفة الشاملة ، فليتأكد أن لا سبيل له إلى ذلك غير سبيل القرآن الذي هو بمثابة الخارطة العامة لبنيان هذا الوجود كله .

الكثيرين منهم لا يؤمنون بالله ، فضلاً عن أن يخافوه ، فكيف يتفق هذا مع قوله عز وجل : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ ؟ .

إذ إن هؤلاء ليسوا (فيما قد تبين لنا الآن) علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة ، وإنما هم نموذج من أولئك الذين يضعون المكبرات على رقعة صغيرة من قلب خارطة كبيرة ، ثم يحملقون في تلك الرقعة وهم عن الخارطة ذاتها غافلون !.... وهم نموذج من أولئك الذين يحصرون أنظارهم من الجسم الإنساني كله في الكبد وحده ، وهم عن مجموع جهازه العضوي معرضون !...

وليس أدل على ذلك من أنهم أنفسهم يعترفون ، بعد كل ما يستحصدونه من المعارف والعلوم ، بأنهم يعانون من وطأة الجهل وأنهم بحاجة ماسة إلى المعرفة ... ثم إنهم لا يجدون أي طمأنينة يركنون إليها ، من ما حصلوه من علومهم ومعارفهم المختلفة ، مهما دقت وتعمقت ، بل يظلون نهباً لدوامة حيرة تطوف بأنفسهم وأذهانهم .

ولقد أوضح القرآن بذاته الإجابة عن هذا الإشكال ، عندما قال عن أمثال هؤلاء العلماء : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا .. » .

وقد يخيل إليك أن كلمة « ظاهراً » تعني المدارك السطحية للشيء ، بالمعنى المتعارف عليه بين الناس ، ولكن الحقيقة أن المعرفة السطحية للشيء تتمثل ، أول ما تتمثل ، في المعرفة التي يُزهى بها من لم يعلم بعدُ شيئاً عن حجمه وحقيقته ، ولكنه انطلق يغوص ، بدلاً من ذلك ، بأجهزته وتأملاته في إحدى زواياه التائهة الضئيلة ، وسط حجمه الفسيح .

أليست هذه هي السطحية الطريفة جداً والمضحكة حقاً ، والتي تجسّد لنا قصة تلك الأسطورة التي تنسب إلى السندباد ، أو إلى أحد أبطال ألف ليلة وليلة ، وهي أنه رأى في إحدى سياحاته قبة بيضاء على جانب كبير من الضخامة تتلألأ أمام عينيه ،

ولَمّا لم يجد منفذاً فيها ، رأى أن لا سبيل إلى أن يعلم خبرها ، ويستظهر أمرهـا ، إلا أن يعمد فينحط بمعوله في إحـدى جهاتهـا يحفر ويمخر ، وبـذلـك يستطيع أن يسبر ـ فيما يـزعم ـ غـورهـا ويستقصي خبرهـا وعلمهـا ، ولكنـه كان كلمـا أوغـل فيهــا ازداد حيرة وضياعاً !... لقد كان عمله مضحكاً حقاً ، فإن تلك القبة لم تكن في حقيقتهـا إلا بيضـة لطائر عملاق ، صادف أن ألقاها أرضاً هناك .

والمهم أن مثـل هـذا العمـل ، وإن كان يبـدو في ظـاهره سبراً للغـور وتعمقــاً في الفهم ، ولكنه في واقع الأمر وحقيقته سطحية متنـاهيـة !... وهـذا هو بـالضبـط معنى قول الله عز وجل عن أصحـاب هـذه الطريقـة في المعرفـة والفهم : يعلمـون ظـاهراً من الحياة الدنيا .

ثم إن من أعـاجيب هـذه المعرفـة القرآنيـة الشـاملـة ، أنهـا لا تحـوج صـاحبهـا إلى ممارسات علمية مجهدة ، ولا إلى تخصص في فنون الدراية ، ولكنها تحوجه إلى شيء واحـد فقط ، هو أن يكون على بيّنة من أين يبـدأ وكيف يسير . فلقـد اصطبغ بهـا الصحـابـة رضوان الله عليهم ، مع أن كثيراً منهم كانـوا واستمروا أميين ... ولـولا تلـك المعرفـة التي هُدُوا إليهـا ، لمـا تحررت نفوسهم من غوائل الضعف والقلق ، ولا نجـذبوا إلى أحـد قطبي الحضارة الفارسية أو الحضـارة الرومـانيـة ، ثم ذابوا في فلكهـا ، كما آل إليـه حـال الأمـة الإسلاميـة اليوم : لمـا ضلت عن رشـد تلـك المعرفـة القرآنيـة تمزقت بين قطبي الحضـارة الغربيـة والحضـارة الشرقيـة المـاركسيـة ، إذ فتنت بمـزق العلـوم المتنـاثرة التي هي كل ماأثمرته الحضارتان[1] ، ولم تعتبر بالحيرة التي تلفّ أصحـاب تلـك العلوم في دوامتهـا ، ولا وقفت عند اعترافاتهم المتكررة بأنهم لا يزالون يتيهون في أودية العماهة والجهل .

(١) هما حضارتان في الظاهر فقـط ، أمـا في واقع الأمر وحقيقتـه ، فهما حضارة واحـدة ، سمها غربيـة إن شئت أو شرقية ، وسمتها الكبرى أنها تؤلّه المادة واللذة الدنيويـة ، تـأليهـاً عقليـاً متفلسفـاً ، أو تـأليهـا نفسياً متغلباً على كوابح الفكر والعقل ، فهي تشمل تلك التي تأتي بها التبعية للغرب المـادي والتي تـأتي بها التبعية للشرق الشيوعي .

ولكن إذا أتيح للأمة الإسلامية ـ في مجموعها لا بالنسبة لبعض أفرادها ـ أن تصطبغ بهذه المعرفة القرآنية للبنية الإجمالية المتمثلة في تركيبة الكون والإنسان والحياة ، فإنها تتحصن من هذه المعرفة في حصن منيع ، وسيحق لها عندئذ أن تجتهد ، دون أي خوف ، في أن تصطفي لنفسها من المنجزات الحضارية التي تراها من حولها ، ما تراه حقاً وصالحاً ثم تدع ما تراه باطلاً وفاسداً ، وأن تأخذ الحكمة لأنها حكمة ، دون أن يضيرها من أي وعاء خرجت .

الفصل الأخير

لِمَاذَا تَحَجَّرَتِ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَازْدَهَرَتِ الْحَضَارَةُ الْغَرْبِيَّةُ ؟



فَكَيْفَ تَنْبَعِثُ الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ جَدِيدٍ ؟

لماذا تحجّرت الحضارة الإسلامية وازدهرت الحضارة الغربية ؟

هذا سؤال سطحي جداً .. وتزداد سطحيته جلاء ، بعد الذي تم إيضاحه في الفصول السابقة . ولكن عامة الناس يكثرون ـ مع ذلك ـ من طرحه ، كلما دعت المناسبة ، ويبنون عليه مشكلة ، في غاية الصعوبة والتعقيد ، فيما يتوهمون !..

والمؤسف أن الإجابة عن هذا السؤال ، تأتي في غالب الأحيان ، أكثر سطحية من السؤال نفسه فأكثرهم يجيبون بأن سبب تخلف الحضارة الإسلامية ، يتمثل في انطواء المسلمين على أنفسهم ، وعدم التفتح على الحضارات الأخرى ، وانغلاق باب الاجتهاد ... الخ .

والعجيب أن هؤلاء الذين يتبرعون بهذه الإجابة الارتجالية ، لا يدركون أنهم إنما يستثيرون بها مزيداً من أسباب التخلف ، ويحملون الناس على مزيد من الضياع ، والبعد عن سبيل استعادة شأنهم وبعث حضارتهم !.. فإن التخلف الذي يعاني منه المسلمون إنما يتمثل في أنهم تحولوا من الإبداع إلى التبعية ، وأن أمرهم آل ، بعد الإنتاج والتصدير ، إلى الاستيراد والاستهلاك[1] فهم في الحقيقة مندلقون لا متقوقعون . وإنهم لينـدفعون إلى التبعية والتقليد ، دونما انتظار لمن يجتهد لهم ويفتي .. فالقول ـ مع ذلك ـ بأن سبب تراجع الحضارة الإسلامية ، يتمثل في عدم الانفتاح .. وفي انغلاق باب الاجتهاد .. وما يدخل في هذا المضمار ، من الكلام الذي لا حصيلة له ، ليس إلا ترديداً لقول الشاعر : فداوني بالتي كانت هي الداء .

وإنه ليخيل إلى من يصغي إلى هذه الإجابة الارتجالية ، التي تتكرر على أفواه

---

(١) لا أقصد إنتاج أو استهلاك السلع . وإنما أقصد عموم المبادئ والقيم ، وكل ما تشمله منجزات الحضارة .

كثير من الباحثين وأقلامهم ، أنه قد بلغ قادة المسلمين وعامتهم ، من الحيطة والورع في دين الله ، أنهم لا يريدون أن يتجهوا حتى بخطوة واحدة نحو الاستفادة من العلوم والمدنية الغربية ، إلا إذا تلقوا فتوى بذلك من علماء المسلمين ، تطمئنهم أنهم في حلّ من سخط الله إن هم أقدموا على هذه الخطوة !.. ويخيل إليه أن عامة المسلمين قد بلغ خوفهم من الله وعقابه ، أنهم قطعوا صلة ما بينهم وبين العالم الغربي ، لينطووا على تراثهم القديم وعاداتهم البائدة ، كي لا يتسلل إليهم من ذلك العالم أيّ مفسدة أو شرّ لا يرضى عنه الله عز وجل !.. وكأنهم ليسوا ، بحال من الأحوال ، أولئك الذين يتطوحون بسُكْر الحضارة الغربية ، ولا تطوّح السكير بالخمر ، ويتباهون بشارات تلك المدنية ، ولا كما تتباهى أنثى الطاووس بريش الذكر وألوانه !..

إنني لا أشك أن هذه الإجابة الغبية على ذلك السؤال السطحي ، هي الأخرى مظهر من مظاهر التبعية الذليلة ، والاستعاضة عن الإبداع بالاتباع . فهي بحدّ ذاتها دليل آخر من أدلة التخلف الحضاري الذي ران على حياة هذه الأمة .

ذلك لأنها ليست إلا ترديداً يأتي طبق نصيحة الغربيين أنفسهم . فإنهم لا يفتؤون يكررون هذه النصيحة على مسامعنا في كل مناسبة !.. وما يجد واحد منهم ماضي الحضارة العربية والإسلامية ، ويستعرض مظاهر روعتها ، إلا لينفذ من ذلك إلى هذه « النصيحة » في معالجة حاضرها ، ألا وهي نصيحة الانفتاح .. والتلاقح .. ومد جسور الاجتهاد ..

وبوسعك ، وأنت تلاحظ كيف أن جميع الكتاب الغربيين ، من مستشرقين وغيرهم ، لا يتحدثون عن ماضي الحضارة الإسلامية إلا حديث إطراء وإعجاب ، أن تُدرك بأنهم لا يفعلون ذلك ، إلا ليهيؤوا نفوس المسلمين من خلال ذلك لقبول النصح الذي سيتقدمون به على أعقاب ذلك ، إذ إنهم يعلمون أنه « نصح » خطير ، لا بدَّ لقبوله من جرعة مخدرة كبيرة تؤخذ بين يديه .

والحـق ، أنني مـا رأيت كاتبـاً أجنبيـاً ، مستشرقـاً أو غيره ، تطرق إلى البحث في تاريخ الحضارة الإسلامية ، إلا واتّسم بحثه بظاهرتين :

الظـاهرة الأولى : أن الكاتب يحصر حـديثـه حصراً تـامـاً ، في استعراض منجزات الحضـارة الإسلاميـة ، لا سيا المـاديـة منهـا ، من عمران ، وصنـاعـة ، وفنـون ، وعلـوم إنسانية وكونيـة ، ونحو ذلـك . ويحـاذر أن يعرّج من خلال ذلـك على ذكر شيء يتعلق بأساس تلك المنجزات والروح الباعثة عليها والنواة التي انفلقت عن غراسها !...

الظاهرة الثانية : أنه ينهي مديحه وإعجـابـه بتلـك المنجزات الحضـاريـة ، بطرح السؤال الذي يحوك وراء صدور جميع المسلمين اليوم ، وهو : فلماذا تحجرت هذه الحضارة اليوم بعد ذلـك الازدهـار العجيب ؟ ليجيب عن هـذا السؤال قـائلاً : إنـه التقوقع على الذات ، وعدم الانفتـاح على العـالم الآخر !.. وآخر من نعـده مثـالاً على ذلـك الكاتبـة والمستشرقة الألمانية « زيغريد هونكه » .

فقـد أخرجت كتـابهـا المعروف « شمس الله تسطـع على الغرب »[١] والـذي تضمن استعراضاً جميلاً لمعظم المنجزات الحضاريـة التي ظهرت في دنيـا العـالم الإسلامي ، أيـام كانت حضارته في تفوق وإقبال . وليس هذا فقط ، بل الحقيقة أنها زادت إلى ذلك عقد مقارنة ، أقل ما يقال فيها أنها موضوعية ، بين تلك المظاهر الحضارية في تفوقهـا العلمي والإنساني ، وما يقابلها من الواقع الغربي في تخلفه العلمي وتدهوره الإنساني !..

ولكن القارئ يصل إلى آخر هذا الاستعراض المتناسق الجميل ، وإنّ في ذهنـه سؤالاً يزداد إلحاحاً عليه ، كلما تابع فصلاً وراء فصل ، وهو :

فما ذلك السرّ العظيم الذي يعود إليه ظهور هذه المنجزات الحضارية كلها ، في أمـة كانت قبـل ذلـك كالمـادة الخـام ، لم تمرّ عليهـا يـد أيّ مـدنيـة ، أو حضـارة ، أو تقـدم

(١) لأمر ما حوّر المترجمون ، مع دور النشر في البلاد العربيـة ذات الحضـارة العريقـة اسم هـذا الكتـاب إلى « شمس العرب تسطع على الغرب » !..

اجتماعي ؟ .. ثم ما هو عامل اختفائها في حياتها ، من بعدُ ، حتى منيت اليوم بهذا التخلف العجيب ؟

ولم تشأ الكاتبة أن تعرّج على البحث في هذا السرّ ، لا في عهد ظهوره ، ولا في طور اختفائه ، لا في مقدمة الكتاب ولا عند نهايته .

غير أنها عادت ، فأجابت عن هذا السؤال في محاضرة مستقلة لها ، كتبتها لأحد المؤتمرات العالمية عقد في أحد البلاد العربية ، ربما بعد إلحاح شديد توجه إليها من قبل كثير من الذين قرؤوا كتابها ، من مسلمين وغير مسلمين .

فبماذا أجابت عن هذا السؤال المزدوج ؟

لقد أجابت عن الشق الأول من السؤال ـ وهو البحث عن العوامل الرئيسية التي نهضت بالأمة الإسلامية إلى ذروة الحياة الحضارية ـ بأنها تتلخص ، بنظرها ، في العوامل التالية :

١ ـ دراسة لغة القرآن ، وتعلم القراءة والكتابة بالنسبة إلى جميع المسلمين .

٢ ـ المهام التي يفرضها القيام بفرائض الدين ، مثل علم الفلك والرياضيات والنظافة والصحة .

٣ ـ التعاليم والإرشادات الصادرة عن الرسول ﷺ ، والتي تحفز إلى طلب العلم ودراسته .

٤ ـ استيعاب المعارف الموجودة .

٥ ـ شرح النصوص اليونانية والهندية ، وتحقيق مدى صحتها والتعليق عليها .

٦ ـ وجوب تحصيل العلوم الأخرى غير الإسلامية ، واتخاذها سلاحاً للدفاع عن الإسلام .

٧ ـ التشجيع على مواصلة البحث الذاتي ، وتدريب الملكات الفكرية .

٨ ـ توسيع الآفاق عن طريق الهجرة والرحلات والمبادلات .

٩ ـ الجو السائد في مجال حرية الرأي والتسامح ، بوجه خاص .

ثم أجابت عن الشق الثاني من السؤال ـ وهو البحث عن العوامل التي أدت إلى الانحطاط والجمود ـ موضحة بأنها تتلخص هي الأخرى في العوامل التالية :

١ ـ الغزاة الأجانب ، وفي مقدمتهم الأتراك الذين اندمجوا (على حد تعبيرها) في الحضارة الإسلامية .

٢ ـ الحروب الصليبية ، وحروب المغول .

٣ ـ التعصب وتقييد الحركة الفكرية .

٤ ـ شيوع الفكر الخرافي الذي تسبب عنه الخضوع والاستسلام ، كما تسبب عنه انتشار النزعة التصوفية والقدرية والجبرية .

٥ ـ عبادة الماضي والإيمان بالمغيبات (على حد تعبير الكاتبة) .

٦ ـ السيطرة العثمانية (ويلاحظ تكريرها لذكر هذا العامل مرتين) التي أخضعت مختلف البلاد العربية ، لنفوذها ؛ وحولتها إلى مقاطعات تابعة لها .

٧ ـ المدّ الاستعماري الذي ظهر فيما بعد ، كالاستعمار الإنكليزي والفرنسي والإيطالي والإسباني .. الخ ثم إنها استدركت ـ بعد تعداد هذه الأسباب ـ فأوضحت بلباقة ، تشكر عليها ولا ريب ، بأن هذه العوامل التي رانت على حياة الأمة العربية والإسلامية ، لا تعني أنها أفرغتها من المضمون الذي سما بها يوماً ما إلى قمة المجد ؛ بل إن عوامل نهضة حضارية أصيلة لا تزال موجودة في أعماقها .

ولم يطل بها البحث للعثور على شواهد تدل على ذلك .. فقد رأت أن من أبرز

هذه الشواهد ، تلك الحركات التحررية والوطنية ، بل القومية أيضاً ، مما يظهر على الساحة العربية هنا وهناك ..

هذه خلاصة محاضرة للمستشرقة الألمانية ، زيغريد هونكه ، جاءت بمثابة ملحق لكتابها « شمس الله تشرق على الغرب » . وهي في مجملها إجابة عن سؤال ألح به عليها كثير من الناس ، وهو : كيف أمكن أن يحلّ هذا التأخر والانحطاط الشامل ، محل تلك الحضارة الزاهرة التي وصفت كثيراً من منجزاتها في كتابها المذكور ؟.

وبوسعك ـ فيما أعتقد ـ أن تلاحظ مدى سطحية الأسباب التي عدتها واحدة إثر أخرى ، لازدهار الحضارة الإسلامية في ماضيها المجيد ، وأن تلاحظ السمة ذاتها في تلك الأسباب الأخرى التي رأت أنها سرّ تراجعها وتحجرها في حاضرها المشاهد اليوم . بل إنك لتلاحظ في كلتا المجموعتين من الأسباب ظاهرة الضحالة في تفسير كل من نهضة الحضارة الإسلامية وكبوتها .

نعم ، أقول : بوسعك أن تلاحظ هذا جيداً ، إن كنت قد استوعبت دراسة الفصول السابقة من هذا الكتاب . فالواقع أن الحقيقة تجثم في وادٍ ، وهذه الملتقطات الفرعية المتراصفة تتجمع من أودية أخرى !..

على أني لا أنحي بشيء من اللائمة على الكاتبة الألمانية ، في تصوراتها هذه . إذ ليس من شأنها ، بل ليس في مقدورها ، أن تعثر على غير هذه الأسباب التي لا ندري كم فكرت حتى عثرت عليها . ولا أستبعد أنها كانت صادقة في التعبير عن مشاعرها عندما ألّفت كتابها الممتع ، ثم كانت صادقة أيضاً في ذلك عندما كتبت محاضرتها التي واجهت بها مجموعة كبرى من كبار العلماء والمفكرين والباحثين .

ذلك لأن تذوق المنهج القرآني للحضارة ، إلى درجة يورث صاحبه اليقين بأنه السر الوحيد في ازدهار تلك الحضارة الرائعة ، فوق تربة كانت قاحلة ، لا تملك أي زاد ثقافي ولا ميراث حضاري ـ: أقول لأن هذا التذوق لا يتم إلا بعد تدبر كتاب الله تعالى

بتجرد ودقة ، وهو يعني كمال الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، أي إنه يعني كمال الاصطباغ بالحقيقة الإسلامية بجميع أركانها .

وإنا لنرى كثيراً من المسلمين أنفسهم ، قد ـ حُجبوا ـ ويا للأسف ـ عن هذا اليقين ، وحُرموا هذا التذوق . فكيف نعتب على باحثة أجنبية ، لعلها لم تطلع على القرآن إلا من خلال نظرة سطحية فيه ، لأنها لم تهتد إلى السر الحقيقي لازدهار الحضارة الإسلامية ، ولم تتذوق أثر البصيرة القرآنية في فهم حقيقة الكون والإنسان والحياة . وإذا كانت محجوبة ، بحكم واقعها هذا ، عن رؤية هذا السر واليقين به ، فماذا عسى أن تجد أمامها لتعليل الأمر والخروج من ورطة السؤال ، غير تلك الأسباب التي استطاعت أن تعثر عليها ؟..

ولكن المصيبة الكبرى ، أن ينطلي مثل هذا التحليل ، من مثل هذه الكاتبة التي لها عذرها الواضح هذا ، على عقول المسلمين أنفسهم ، وأن يتقبلوه بمنتهى القناعة والاستسلام ، لا اعتماداً على سابق برهان عرفوه ، بل ربما لمجرد أن باحثة أجنبية مستشرقة قالت ذلك ، أو ربما لأن أفكارهم فارغة عن تصور شيء من المنهج القرآني الذي فرغنا من إيضاحه ، والذي سلكه الرعيل الأول عن قناعة ويقين ، فوصلوا منه إلى معجزة الحضارة الإنسانية المثلى !.. وتنظر ، فإذا كثير من هؤلاء المسلمين يرددون هذا التحليل السطحي ذاته ، عن أسباب نشأة الحضارة الإسلامية ، وبلوغها أوج القوة والازدهار ، ثم عن أسباب تخلفها وجمودها ، يرددونه في أقوالهم وكتاباتهم في مناسبات شتى ويتخذونه منطلقاً ثابتاً للحوار والنقاش .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فما من إنسان أدرك أثر فهم الأمة الإسلامية في غابر حياتها ، لحقيقة كل من الإنسان والحياة والمكونات ، وللعلاقة السارية فيما بينها ، على النحو الذي بصّر به القرآن ، في دفعها نحو قمة الحياة الحضارية المثلى ـ إلا ويدرك بجلاء ووضوح عوامل

انحطاطها اليوم ، إلى أدنى دركات التخلف الحضاري والاجتماعي ، ولا بدّ أن تثور في مشاعره عوامل المرارة والأسى ، لجهل تلك العوامل أو تجاهلها ، ثم لملمة تلك الأسباب الوهمية ، وجعلها غطاء فكرياً مقنعاً لهذا الانحطاط !..

إن العالم الإسلامي اليوم ، إنما يعاني من وطأة تخلفه هذا ، بسبب الغشاوات والحجب الكثيفة التي أسدلت على بصيرته ، فأقصته عن معرفة حقيقة الإنسان ، والحياة التي يتمتع بها ، والدنيا التي تطوف من حوله ، وعن معرفة المهمة التي خلق الإنسان للنهوض بها في هذه الحياة . ثم إنه لم يرض مع ذلك أن يقف حيث هو ليعترف بجهله ، بل مضى يستعير للتعرف على كل من هذه العناصر الثلاثة ، عقول الغربيين وأبصارهم ، فهو لا يحاول أن يفهمها إلا طبقاً لما يفهمون ، ولا يحاول أن يراها بتلك العيون التي يرونها بها !..

وانطلاقاً من ذلك ، فقد غدا الإنسان ، في نظر أكثر المسلمين اليوم ، بؤرة للملاذ العاجلة ، كما هو مقياس الحضارة الغربية ونظر قادتها تماماً . وتحول معنى الحياة التي يتمتع بها الإنسان ، في نظر هؤلاء المسلمين ، إلى ما يشبه الورقة الوحيدة التي بقيت في يد المقامر ليلعب بها ، ليس له من ورائها مأمل ولا رجاء ، كما هي في ميزان الفلسفة الغربية أيضاً . وغدت الدنيا في أعينهم أشبه ما تكون بالمائدة العامرة بأشهى صنوف الأطعمة ، عندما ينحطّ أمامها إنسان جشع نهم ، لا يحسب أنه سيجلس أمام مثل هذه المائدة مرة أخرى في حياته !..

وباختصار نقول : إن الأمة الإسلامية ، تقع اليوم ، بكل موازينها الفكرية ومشاعرها الوجدانية في منطقة الجاذبية الغربية . فهي مهما تحركت ، لا تتقلب إلا ضمن سلطان التأثر بها والالتفاف حولها !.. يخيل إليها أنها تناقش الأفكار والقيم بكامل التحرر ، وأنها تقوّم مناهج السلوك ومظاهر الحياة بكل تجرد . غير أن مورد التفكير والتمييز في كيانها ، مطبوع بقناعة خفية عميقة . مؤداها أن لا سبيل للتعامل مع الحياة

والكون ، إلا طبقاً للموازين التي تعتمدها الحضارة الغربية في ذلك . فقد فرضت الحضارة الغربية نفسها ـ على حد تعبيرهم أو قناعاتهم الضمنية ـ على مسيرة الحياة الاجتماعية أينما كانت .

ولا نشك أن ثمة أصواتاً تتعالى هنا وهناك ، يقف أصحابها خارج منطقة النفوذ ، أو على حافتها . غير أن هذه الأصوات لم تبلغ إلى الآن أن تشكل تياراً يتمتع بأي جاذبية مكافئة .

ولكني لست أعني بهذه الحقيقة أن الحضارة الإسلامية لم يخْبُ شعاعها إلا بعد أن ازدهرت الحضارة الغربية ، ووقعت الأمة الإسلامية في نطاق جاذبيتها . فإن الحضارة الإسلامية لو بقيت في أوج قوتها وازدهارها ، لما ظهر للحضارة الغربية شعاع ولا وميض ، فضلاً عن أن يشتدّ سلطانها وتقع الأمم في جاذبيتها ، وما رجحت كفة هذه إلا يوم طاشت كفة تلك .

والحقيقة أن الحضارة الإسلامية بقيت في أوج ازدهارها إلى أواسط عهد الخلافة العباسية ، وإن كانت تقع أخطاء وتظهر منزلقات ، هي بين القلة آناً والكثرة آناً آخر ، وبين الظهور حيناً والاختفاء حيناً آخر . ذلك لأن الأخطاء ـ ما دامت أخطاء فقط ـ تنطوي عادة وتذوب في تيار الصلاح الشامل ؛ وكلما كان ذلك التيار أكثر قوة ، كانت الأخطاء العابرة أسرع إلى الاضمحلال والذوبان . غير أن تكاثرها دون رقيب يجعلها تتجمع وتتماسك ، ثم تتنامى في قاع ذلك التيار ، لتظهر في فُرَص الضعف ، ولتشكل تياراً يقاوم جبهة الصلاح ، وقد يصدّعها .

ثم إن الخط البياني لازدهار الحضارة الإسلامية وقوتها بدأ يضطرب ، بعد ذلك ، بين الهبوط والارتفاع . فقد منيت بالضعف والتخلخل اللذين ظهرا في انقسام جسم الدولة الإسلامية الواحدة ، إلى ممالك ودويلات ؛ ثم منيت بمزيد من الإرهاق

والضعف ، بسبب الحملات الصليبية والغزو المغولي .. ولكنها كانت تحتفظ على الرغم من ذلك ، بسر ازدهارها وروح بقائها . فما تكبو إلا لتنهض وما تكاد تغفو حتى تستيقظ .

حتى إذا ظهرت الخلافة العثمانية ، واستصلبت جذورها ، عاد الخط البياني للحضارة الإسلامية ، يتجه نحو الصعود ، واختفى بقدر كبير من ذلك الانقسام ، والتأم التجزؤ في وحدة إسلامية راسخة ، حتى بلغ الخط البياني ذروة الصعود ، في عصر الخليفة الإسلامي العظيم محمد الفاتح .. وازدهرت الحياة في ربوع العالم الإسلامي ، وجنت الأمة ثمار ذلك الازدهار علماً وقوة ووحدة وثراء .

ولكن تسلل إليها في أواسط عمر هذه الخلافة ، ما تسلل إلى الدولة الأموية التي أشاد بناءها عبد الرحمن الداخل في ربوع الأندلس ، من الافتتان بالمال والركون إلى المتعة والانصراف إلى البذخ وإضاعة الوقت فيما لا طائل فيه .. فبدأت تنحدر عندئذ دولة بني عثمان نحو الضعف وظهرت فيما بينها عوامل التنافس فالتصارع ، وغفل الكل بذلك عن العدو المتربص .. ومنذ ذلك الحين اتخذ الخط البياني للحضارة الإسلامية طريقه نحو الهبوط والانحدار . ولا يزال ينحدر إلى يومنا هذا .

فما الذي وقع حتى هوى ذلك النجم ، ثم لم يرتفع مرة أخرى ؟

إن الذي وقع ، هو أن تلك الحضارة تجردت عن سرها ، وانفصلت عن روحها ، وما سرها وروحها إلا أنها كانت تنهض على دعامة من التبصرة القرآنية ، بحقيقة كل من الإنسان والكون والحياة ، وبالسبيل الأمثل إلى التعامل مع كل منها ، وذلك على النحو الذي تم شرحه وبيانه . فلقد حجبت الناس شهواتهم ، وأهواؤهم ، عن الشعور بضرورة وضعهم الحياة الدنيوية في مكانها اللائق ، وضرورة التعامل مع الدنيا وحطامها على النهج الذي دلهم القرآن عليه ، فانتثروا يتسابقون وراء كل رخيص من الملاذ والأهواء العاجلة ، وهم عن جلائل الأمور معرضون .

وفيما هم كذلك ، نهض الغرب من رقاده الطويل ، وتفاعلت الحياة الحضارية في تلك الربوع مع نفسها ، لتزدهر فتسود (وكل ذلك تم طبق سنة إلهية عادلة سأشرحها بعد قليل) وإنما ازدهرت ببريق من مغريات النفس والجسد ، وبقبس من العلم والإبداع .

فكان لا بدّ أن تتكون لهذه الحضارة جاذبية تمتد إلى رقعة واسعة مما حولها ، وكان لا بدّ لأولئك الذين تناثروا في العراء أن تتخطفهم تلك الجاذبية إليها .. فهاهم إلى اليوم يدورون في فلكها ، ويتحركون في نطاق مركزيتها . ومع ذلك فها أنت تراهم يتناقشون ـ وهم على هذه الحال ـ فيما يجب أن يتخذوه من موقف تجاه هذه المدنية أو الحضارة !.. والأطرف من ذلك أنهم ينتهون بعد البحث والنقاش ، إلى أن الذي يعوزهم في حل المشكلة ، هو فتح باب الاجتهاد ، كي يتاح لهم أن ينفتحوا عندئذ على كل صالح ومفيد في تلك الحضارة !.. كأنهم لم ينفتحوا عليها بعد ، وكأنهم لا يدورون بكليتهم في فلكها وضمن جاذبيتها !..

☆ ☆ ☆

بقي أن نجيب عن الشطر الثاني من السؤال ، وهو : فلماذا ازدهرت الحضارة الغربية ؟

أجل ، لماذا ازدهرت الحضارة الغربية هذا الازدهار العجيب ، على الرغم من أنها لم تقم على شيء من دعامة التبصرة القرآنية ، بل ما تصور رجالها وقادتها من معاني الكون والإنسان والحياة إلا خلاف ما قد أثبته القرآن منها ؟!..

علينا أن نتذكر بين يدي الإجابة عن هذا السؤال ، تعريف الحضارة ، كما قد مر بيانه في مقدمة هذا الكتاب .. ولقد سبق أن قلنا : إنها ثمرة التفاعل بين الإنسان والكون والحياة .

ولقد تبين لنا من هذا التعريف أن ليس ثمة أي لزوم بين الحضارة من حيث هي ، وما قد يتوقع منها من تحقيق مبادئ الخير والحق للإنسان . فقد تهتدي حضارة ما إلى سبيل هذه المبادئ فتحققها ، وقد لا تهتدي إليها فتتنكب عنها .. إذ الحضارة ليست ـ كما علمنا ـ أكثر من الجهود المبذولة من قبل الفكر الإنساني للاستفادة من هذه الأجهزة الكونية المتناثرة من حولنا .

ولكن هل يوفق أصحاب هذه الجهود إلى استعمال هذه الأجهزة على وجه مفيد للإنسانية عموماً ، أم هل يمكن أن يتورطوا في استعمالها على وجه غير مفيد ؟.. إن كلاً الاحتمالين متوقع . وإن حقيقة معنى « الحضارة » من حيث هي ليس من شأنها أن تتدخل لتحقيق أحد الاحتمالين وإبطال الآخر .

ذلك لأن توجيه الطاقة الحضارية ، يتوقف على عامل خارجي ، لا شأن له بمعنى الحضارة أو عناصرها . ويتمثل هذا العامل في نوع الرغبة التي تعتلج بين جوانج أولئك الذين يسعون إلى إقامة بنيانهم الحضاري .

ومن المعلوم أن الرغبات متنوعة وكثيرة ، وليس من المحتم أن تتلاقى كلها على استهداف تحقيق السعادة الإنسانية المثلى للمجتمع الإنساني بأسره . على أن ما قد يتلاقى منها على هذا الهدف ، لا بد أن يغمّ عليها السبيل إلى تحقيقه لدى محاولة تحديد معنى الخير والسعادة للجميع . أولم يختلف علماء الفلسفة والأخلاق في تفسير حقيقة الخير والمصلحة وتحديد معناهما ، على الرغم من اتفاق أكثرهم على تمجيد الخير المطلق ودعوة الناس إليه ؟

ثم إن هذا العامل الذي إليه مرد توجيه الطاقة الحضارية ، يتمثل بعد ذلك في شيء آخر ، هو أن يكون بين يدي الأمة التي تسعى لإقامة بنيانها الحضاري ، رسم بياني شامل لكيفية البدء ثم السير في عملية ذلك البناء ، وللطريقة المثلى في الاستفادة من

عناصر الحضارة وموادها الأولية ، كما هو شأن المهندس إذ يعتمد على الرسم البياني بين يدي شروعه في إقامة بناء ما .

فبمقدار ما يكون المخطط سليماً ، والاستفادة من العناصر والمواد الأساسية جارية على أصولها وسننها الصحيحة ، ينهض البنيان الحضاري أكثر استقامة وأشد قوة وأكمل فائدة وعطاء . وبمقدار ما يكون الأمر على خلاف ذلك ، يكون وضع ذلك البنيان أيضاً على خلاف تلك النتائج .

غير أن المهم الذي نريد أن نعلمه في هذا الصدد ، هو أن هذا البنيان ، مهما كان شكله ، وأياً كانت درجة صلاحه واستقامته ، يظلُّ يسمى على كل حال بنياناً حضارياً ، لأنه لم ينهض في حقيقته إلا على ثمرة التفاعل بين الكون والإنسان والحياة .

فمن خلال هذه الاستعادة لتعريف الحضارة وطبيعتها ، يتاح لك أن تتبين قسماً كبيراً من الجواب عن السؤال الثاني .

والخلاصة أن القرآن لم يزد على أن وضع أمام الناس أقوم منهج يمكن أن يتلمسه الإنسان ويعثر عليه ، إلى إقامة أمتن بنيان حضاري يحقق للمجتمع الإنساني أصدق معاني الخير والسعادة الشاملة .. أي فهو لم يحتكر لنفسه السبيل إلى إقامة حضارة ما . فما أكثر الحضارات التي سادت على وجه الأرض ، قبل أن يأتينا القرآن بمنهجه الأمثل إلى الحضارة المثلى . ومع أننا على يقين بأن ما جاءت به الكتب السماوية السابقة ، مع تعليمات الرسل والأنبياء الذين خلوا من قبل ، قد لفت أنظار الناس بشكل أو بآخر ، إلى هذا المنهج القرآني ذاته ، ونبههم إلى حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة ـ فإن كثيراً من الحضارات سادت خلال تلك العصور بمنأى عن التعاليم الدينية .

ولكن ما هي قيمة الحضارة التي تسود بعيداً عن الارتباط بالمنهج القرآني الذي فرغنا من شرحه وتحليله ؟.. هذا هو موضوع بحثنا . وهذا ما يجب أن نتبينه في نطاق

التأكد من أن أي حضارة تنهض بعيداً عن تلك التبصرة القرآنية ، فإنها تحمل في داخلها بذور ضعفها وأسباب دمارها .

وما من ريب في أننا مهما وصفنا الحضارة الغربية بالتألق والازدهار ، فإن ذلك لا يصدق عليها إلا من حيث الطلاء الخارجي لها فحسب . وما يفتتن الناس منها إلا بهذا الطلاء ، وما ينجذبون إليها إلا بسّر من ذلك الطلاء وحده .

لا أريد أن أسود الصفحات الطوال ، في الاستشهاد بأقوال علماء الاجتماع ، وعلماء النفس الأوربيين ، والأمريكيين ، الذين يخرجون كل يوم المؤلفات العريضة ، وينشرون المقالات والتحقيقات المثيرة ، عن الهوة السحيقة التي تقف الحضارة الغربية على حافتها . ولا أريد أن أعرض المشاهد التي تبعث على الأسى وتملأ النفس مرارة ، للمصائب التي تطيف بالأسر الأوربية والأمريكية الممزقة ـ وقد علمت أن الأسرة هي اللبنة الأساسية الأولى في بناء المجتمع الإنساني ـ ولا أريد أن ألفت النظر إلى السبب الذي جعل العيادات النفسية هناك تصبح ضعفي ـ وفي بعض البلاد ثلاثة أضعاف ـ عيادات التطبيب الجسدي .

ولكني أريد أن تعلم مدى الخطورة التي تكمن في احتجاب هذه الحقائق المذهلة الأليمة ، وراء سُتُر من دخان المصانع المنتجة ، وأضواء النيون الساطعة ، وشواهق العمارات الضخمة ، وضجيج الملاهي والأندية الفخمة ؛ بحيث لا يرى الناظر من تلك المدنية والحضارة ، إلا هذه القشور والأشكال ، فتنجذب نفسه إليها ، ويشيع الإعجاب في فؤاده بها ، وهو في غفلة تامة عن النيران التي تتضرم خلف تلك الحجب والأشكال كلها !..

وهذا هو شأن سواد الأمة العربية المسلمة تجاه الحضارة الغربية . تندلق أنفسهم بالتشهي على مظاهرها وأطُرُها وأشكالها . دون أن يعلموا أو يتصوروا شيئاً من البلاء الساحق الذي يختفي وراءها .. ومن خلال هذه الشهوة النفسية يقومونها ويتحدثون

عنها ، ويتناقشون في الموقف الذي يجب أن يتخذوه منها !.. فأي قيمة لحديث نقدي أو تقويمي كهذا ؟ وهل هذا إلا كما يتحدث المخمور أثناء سكره عن مزايا الخمرة وفوائدها ؟

ومع ذلك فإن للسائل أن يعود فيقول :

ولكن مهما يكن ، أفليست الأمة العربية والإسلامية ، بكل فئاتها وعلى اختلاف ما تضم من نزعات واتجاهات ، مسوقة بشكل أو بآخر بيد هذه الحضارة ، منقادة لسلطانها ؟ فكيف أمكن الله أمماً شأنها عبادة اللذة العاجلة ، والخضوع لسلطان المادة وحدها ، من التحكم بناصية العالم الإسلامي الذي شأنه - مهما اعترفنا بانحرافاته وأخطائه - الإيمان بألوهية الله وحده والدينونة لسلطانه وحده ، والاصطباغ بعبادته جهد المستطاع ؟.. وكيف يتطابق ذلك مع قوله تعالى : ﴿ ونريدُ أن نَّمُنَّ على الذينَ استُضْعِفوا في الأرضِ ونَجعَلَهُمْ الوارِثينَ ﴾ [القصص : ٥/٢٨] .

ولطالما حاك في صدور كثير من الناس هذا السؤال . بل لا يبعد أن يكون هذا التساؤل مبعث افتتان وارتياب لدى بعض من هؤلاء المتساءلين .

ونقول في الجواب :

أولاً - لم يلتزم الله تعالى في شيء من آي كتابه ، ولا على لسان أحد من أنبيائه ، أن يمن على الذين استُضعفوا في الأرض ، فجعلهم أئمة وقادة فوقها ، لمجرد كونهم مستضعفين . لو أنه جل جلاله ألزم نفسه بذلك ، لكان علينا أن نرى جميع المستضعفين من الناس والأمم على اختلاف أديانهم واتجاهاتهم وأخلاقهم ، قد تحولوا إلى قادة وأئمة يَرِثون السيادة والحكم .

وإنما ألزم الله نفسه بذلك تجاه من قد ألزموا أنفسهم ، بالمقابل ، أن يضعوا عبوديتهم لله موضع التنفيذ ؛ وأن يتعاملوا مع الحياة التي يتمتعون بها ، والمكونات التي

تحيط بهم ، طبقاً للحقيقة التي أطلعهم الله عليها ، وللمنهج الذي ألزمهم الله تعالى به ؛ على أن يفعلوا ذلك بدافع من الخضوع المطلق لجلال الله وسلطانه ، والخوف من بطشه وعقابه . وتأمل صريح قرار الله تعالى في التزامه بذلك من خلال قوله عز وجل :

﴿ وقالَ الذينَ كَفروا لِرُسُلِهم لَنُخرِجَنَّكُم من أرضِنا أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنا . فأوحى إليهِم رَبُّهُم لَنُهلِكَنَّ الظَّالِمينَ ، ولَنُسكِنَنَّكُم الأرضَ مِن بَعدِهِمْ ، ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وخَافَ وعيدِ ﴾ [إبراهيم : ١٤/١٣ ـ ١٤] .

فإن القيد الذي أتبعه البيان الإلهي بعد قوله : ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، وهو قوله : ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ، أغلق السبيل إلى أي احتجاج أو استشكال .

وإنك لتجد صريح هذا القرار في آيات كثيرة أخرى ، من مثل قوله عز وجل :

﴿ وعدَ اللهُ الذينَ آمنوا مِنكُم وعَمِلُوا الصالِحاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ كما استَخلَفَ الذينَ مِن قَبلِهِم ، ولَيُمَكِنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الذي ارتَضى لَهُم ، ولَيُبَدِّلَنَّهُم من بعدِ خوفِهِم أمناً ، يَعبُدونَني لا يُشرِكونَ بي شيئاً .. ﴾ [النور : ٢٤/٥٥] .

وأنت تعلم أن كلمة « وعملوا الصالحات » قد استوعبت كل مقتضيات دعوى الإيمان بالله واليوم الآخر ، ودخل فيها دخولاً أولياً ضرورة التزام المنهج القرآني ، في التعامل مع الحياة والمكونات ، وسائر بني الإنسان .

فقد خرج إذن ، بمقتضى قيود هذا الالتزام الرباني ، كل من تحولت حقائق الإيمان في حياتهم إلى أُطُرٍ ومظاهر .. وانفصل واقعهم السلوكي عن سلطان ذلك الإيمان في حياتهم ، ليدخل في سلطان الدنيا وشهواتها ، وما فيها من تيار اللذائذ والأهواء .

لذا ، فليس لهم أن يمنوا على الله بإيمان لم يمكنوه من تحقيق أي أثر في مرافق حياتهم ، أو في جوهر سلوكهم وأخلاقهم ، وكيف يكون لهم ذلك وما هم من الذين

خافوا مقام الله ولا من الذين خافوا وعيده [1] . وواضح أننا إنما نتحدث عن الواقع الاجتماعي العام . ولا ننظر في هذا الصدد للالتزامات الفردية التي لم يتكون منها تيار اجتماعي متناسق .

ثانياً - إن من سنن الله ونواميسه الكونية في هذه الدنيا ، أن تظل هذه الأرض معمورة بأهلها ، ماضيةً في أخذ زينتها وزخرفها ، خاضعة لسنة التطور العمراني والاجتماعي ، حتى يأتي وعد الله ، وتحين الساعة المحتومة المحددة لقيام الساعة وانتثار هذا النظام الكوني المتماسك . أي فلا بد من أمم وجماعات تقود حركتها المعاشية والعمرانية والاجتماعية . وقد كانت الأمم منذ غابر الأزمان إلى يومنا هذا ، تتداول فيما بينها قيادة هذه الرحلة الإنسانية ، حتى تبلغ مداها الأخير في علم الله عز وجل .

ثم إن الله جلت حكمته ، جعل شأن المؤمنين القائمين على حدوده وأحكامه ، مع الأمم الجاحدة بالله والباغية على أحكامه وحدوده ، بالنسبة لقيادة المجتمع الإنساني ، مثل كفتي الميزان : إن رجحت إحداهما لا بدّ أن تطيش الأخرى .

فإذا كان المؤمنون بالله صادقين في إيمانهم به ، أمناء على منهاجه وشرعه ، جعل الله قيادة الحياة إليهم ، وأورثهم مقاليد الحضارة ، وأخرج لهم أسباب العزة والتأييد من حيث لا يحتسبون ، وصير الآخرين جنداً لهم ، يسيرون من ورائهم ويخضعون لسلطانهم .

وإذا تحول المؤمنون ، فضيعوا شرعة الله ومنهاجه ، ولم تخلص أفئدتهم لدعاوى ألسنتهم ، وشغلتهم النعم عن شكر المنعم ومراقبته ، جعل الله تعالى قيادة الحياة وعمارتها إلى أي من الأمم الأخرى ، ثم سلطها عليهم بالقهر والتمزيق والإذلال .

---

(١) خوف مقام الله ، يعني امتلاء القلب بجلال ربوبية الله . وخوف وعيده يعني الوجل من عقابه وبطشه . ومن المفسرين من فسر مقام الله بموقف العبد بين يديه يوم القيامة .

وهكذا ، فإن الله عز وجل لم يلتزم أن يوقف حركة الدنيا ، وأن يحيل عمارها إلى خراب ، من أجل عيون الذين شاؤوا أن ينكصوا على أعقابهم وأن يتخلوا عن مسؤولياتهم ؛ لمجرد أنهم يزعمون بأنهم لا يزالون مسلمين له مؤمنين به !.. بل ستظل الدنيا تجدد نفسها ، وستظل الحياة الحضارية تتعاقب في أهلها ، ولكن القيادة تتحول عندئذ من أيديهم إلى أيدي رجال آخرين ؛ طبقاً لقوله عز وجل :

﴿ وإن تَتَوَلَّوا يَستَبدِل قَوماً غَيرَكُم ثُمَّ لا يَكونوا أمثالَكُم ﴾ [محمد : ٤٧/٣٨] .

وليس حتماً أن يكون هؤلاء الآخرون أصلح حالاً منهم . إذ القضية ليست قضية إيثار واختيار لمن هم أحسن حالاً أو أقل سوءاً .. وإنما هي تسليط وتولية ، وما أكثر ما يكون المسلَّط شراً من المسلَّط عليه . وما أكثر ما يكون عكس ذلك .

تلك هي سنة الله في عباده . وعلى المسلمين الذين يظل هذا السؤال يحوك في صدورهم ، أن يتفهموها جيداً من خلال بيان الله لعباده ، ومن خلال سننه السارية في الأرض .

تأمل قول الله عز وجل : ﴿ وكَذلِكَ نُولِّي بَعضَ الظالِمينَ بعضاً بِما كانوا يَكسِبونَ ﴾ [الأنعام : ٦/١٢٩] .

وتأمل قوله تعالى ، وهو يرينا تطبيق هذه السنة في حق بني إسرائيل ، عندما عثوا في الأرض ، وكيف سلّط عليهم بختنصّر وجنده ، مع أنه كان شراً منهم : ﴿ وقَضَينا إلى بني إسرائيلَ في الكِتابِ لَتُفسدُنَّ في الأرضِ مرتينِ ، ولَتَعلُنَّ عُلُواً كبيراً ، فإذا جاءَ وَعدُ أولاهُما بَعَثنا عَلَيكُم عِباداً لنا أولي بأسٍ شديدٍ فَجاسوا خِلالَ الدِّيارِ وكانَ وَعداً مفعولاً ﴾ [الإسراء : ١٧/٤ ـ ٥] .

وانظر إلى قوله عز وجل : ﴿ ولَولا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهُم بِبَعضٍ لفَسَدَتِ الأرضُ ، ولكنَّ الله ذو فَضلٍ على العالمينَ ﴾ [البقرة : ٢/٢٥١] .

ثم تأمل في قوله عليه الصلاة والسلام : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وكرهتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[1] والذل كما تعلم لا يكون إلا بتسلط من يمارس القهر والإذلال .

وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « ستداعى عليكم الأمم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها[2] قالوا أمن قلة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ قال بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . وسينزعن الله الرهبة منكم من قلوب أعدائكم ، وسيقذفن في قلوبكم الوهن قالوا ما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[3] .

وتعال فانظر إلى وصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص ، عند مضيه إلى حرب القادسية ، وهو يحذره ومن معه من الوقوع في مغبّة هذه السنة الربانية الخطيرة ، ويهيب به أن يبعد جيشه عن الانحرافات والمنزلقات التي تجعله عرضة للوقوع تحت قبضة الظالمين . لقد كان فيما قال له :

« يا سعد بن أم سعد : لا يغرنّك أن يقال عنك خال رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن . وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته .. آمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم ، من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة . لأن عددنا ليس كعددهم ، وعدتنا ليست كعدتهم . فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة . وإن لا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا ، فرب قوم سُلّط عليهم من هو شر منهم . كما سُلِّط على بني إسرائيل ، لما عملوا بمعاصي الله كفار المجوس . فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً » .

---

(١) رواه أبو داوود وأحمد .

(٢) أي ستسلط عليكم الأمم بالقهر والإذلال كما يحدق الآكلون بمائدة الطعام العامرة فيما بينهم .

(٣) رواه أبو داوود وأحمد .

والقصد من استعراض هذه النصوص ، أن تكون على بينة من الفرق بين الإعزاز والتسليط .. وأن تنتبه إلى أنّ علو الغرب بحضارته وقوته وعنفوانه على الأمة الإسلامية ، إنما هو من قبيل علو العصا ، إذ يهوي بها الجلاد على ظهر من يسومه العذاب والنكال ، وليس بحال من الأحوال علوّ عز وإكرام .

وهذا يعني أنّ ما يتوهمه الناس ازدهاراً في الحضارة الغربية ، إنما هو في الحقيقة انعكاس لتخلف الحضارة الإسلامية ؛ فانحدار الأمة الإسلامية بالنسبة لمستواها الأخلاقي والاجتماعي . إلى الدرك ، هو الذي خيّل إليها بأن الحضارة الغربية مستقرة في الذروة .

وعندما يتخلص المسلمون من تيه الضلال عن معرفة ذاتهم ، ويتحققون بمعاني عبوديتهم لله عز وجل ، ثم يقبلون إلى التعامل مع الحياة التي يتمتعون بها والدنيا التي تحيط بهم ، طبقاً للمنهج الذي رسمه الله لهم في كتابه ، بدافع من الرغبة في مثوبته والرهبة من عقابه ـ يتاح لهم عندئذ أن ينظروا فيجدوا كيف أن واقع الحضارة الغربية من حيث هي ، قد تحوّل ، فأصبح منهم دون مستوى النظر ، وكيف أن سلطانهم قد تقلص عنهم ، وأنهم قد تحرروا وابتعدوا عن فلكها ونطاق جاذبيتها .

ولكن لا بد أن تعلم ، أن هذه السنة الربانية ، مهما كانت تفرض نفسها على الناس والأمم ، على اختلاف الأزمنة والعصور ؛ ومهما تجلى صدق تطبيقها في الكلام الذي ذكرناه ـ فإن اليقين بها لا يتكامل إلا بعد اليقين بوجود الله عز وجل ، يقيناً علمياً واعياً ، وبعد اليقين بأن هذا القرآن الذي يدور بحثنا هذا على محوره إنما هو كلام الله عز وجل .

فمن فاته هذا اليقين ، لم يقنعه شيء من الحديث عن هذه السنة الكونية قط !..

فمنذا الذي يُصدِّق ـ ممن لا يؤمن بالله عز وجل إيماناً حقيقياً واعياً ـ بأن ازدهار الحضارة الغربية اليوم ، في أعيننا ، وانجذاب الأمة الإسلامية إليها ، ليس إلا مظهراً من

مظاهر الإذلال الذي حاق بهذه الأمة من جراء النفاق الذي استشرى في حياتها وتخليها عن المسؤوليات التي ألقاها الله على كاهلها ، مع ادعائها ـ على الرغم من ذلك ـ بأنها تؤمن بالله واليوم الآخر ، وأنها تملك شرف هذا الميراث الحضاري ، وتعتز بصدق انتسابها إليه !!..

فلا جرم أننا لم نكن نخاطب في شيء مما ذكرناه إلى الآن ، إلا من توفر لديهم هذا اليقين بالله ، وفرغوا من البحث في خالقية الله للكون ، وفي استحالة أن يوجد كون بدون مكون ، ونظام بدون منظم . أما من لم يتوافر لهم ذلك بعد ، فعليهم ألا يضيعوا الوقت في نقاش لا طائل منه ،حول شيء مما قد فرغنا من بيانه . بل عليهم إذا شاؤوا معالجة هذه المسألة بجدّ ، أن يعيدوا النظر في تصورهم للبنية الكونية من أساسها ، وللقضية الكبرى التي تقوم أساساً ومنطلقاً للمسألة كلها ، ألا وهي قضية وجود الله ووحدانيته ، وخالقيته لهذا الكون ، فيضعوها في ميزان دقيق من النظر والتأمل المجردين عن كل العصبيات والأغراض والأهواء .

☆ ☆ ☆

بقي أن نتساءل : ولكن كيف السبيل إلى أن يحقق المسلمون لأنفسهم هذا العود الحميد ؟

هذا ما سنشرحه ، بتوفيق الله ، في الفصل اللاحق . وهو الفصل الذي ننهي به مسائل هذا الكتاب وبحوثه .

فكيف تنبعث الحضارة الإسلامية من جديد ؟

لا بدّ أن ألفت النظر ، قبل كل شيء ، إلى أن العلاج الذي سأضعه ، لتتخلص الأمة الإسلامية به من تخلفها ، ولتستعيد كيانها الحضاري العظيم ، إنما هو علاج جماعي لا يجدي إلا إذا تناولته الأمة العربية والإسلامية بمجموعها ، وليس وصايا فردية يخاطب بها آحاد الناس متفرقين ومتناثرين .

ذلك لأن أي تحرك نحو التحرر من التخلف وأسبابه ، والصعود في مراقي الحضارة ، إنما يعتمد على مجهود جماعي متضافر .. ولا تغني عنه المساعي والمحاولات الفردية في حال من الأحوال . لذا فإن كل ما قد يوصف لهذا المجهود من علاجات وأسباب ، يجب أن يناط بالهيئة الاجتماعية العامة ، متمثلة في أغلبية الناس ، على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم .

ثم إنّ العلاج الذي سأتحدث عنه ، يمكن استخلاصه بسهولة من الفصول التي سبقت . بل إنني لم أخض غمار هذا البحث كله ، إلا ليتضح من خلاله السبيل الذي إن سلكته هذه الأمة ، استعادت حضارتها وشأنها ، وتخلصت من مظاهر ضعفها وتخلفها .

ولكن قد يجدر بي أن أضع أمام القارئ عصارة الكلام الذي فات ، بعبارات موجزة ، وبأسلوب يرسم لمن يبتغي النهوض حقيقة ، كيفية التحرك ، ومراحل السعي ؛ ومرة أخرى أجدني مضطراً إلى أن أذكر القارئ بأن كلمة « من » في قولي « لمن يبتغي النهوض .. » ليست كناية هنا عن الأفراد ، وإنما هي تعبير ـ في هذا المقام ـ عن شخص معنوي يتمثل في الأمة كلها أو أغلبيتها على أقل تقدير .

وليكن معلوماً أنني أتحدث هنا عن العلاج الذي يخصّ الأمة العربية والإسلامية دون سواها .. ذلك لأن الله ، جلت حكمته ، يعامل عباده المسلمين ، في نطاق المعايش

الدنيوية ، معاملة تختلف من وجوه شتى عن معاملته لعباده الآخرين . أوضح الله ذلك في كثير من نصوص كتابه المبين . وقد مر بيان طرف منه في الفصل الذي مرّ . وهذا هو تفسير ما قد تراه من مظاهر التقدم والقوة والغنى ، في أمم لا تدين من الإسلام بشيء ، إلى جانب ما تراه من نقيض ذلك في حياة من يتجملون بالإسلام ثم لا يصدقون في اتباعه والانصياع لأحكامه .

غير أن هذا القانون الرباني ، لا يمكن ـ ويا للأسف ـ أن يتجلى لمن لم يتجاوز بعد ، مرحلة الإيمان بالله ورسوله وكتابه ، إيماناً حقيقياً واعياً .

☆ ☆ ☆

والآن ، ماذا يجب أن يفعله المسلمون ، كي يستعيدوا الحضارة التي متع الله بها أسلافهم عن طريق اتباعهم لمنهج القرآن وتعليماته .

يجب من أجل ذلك ، أن يتحقق المسلمون بالشروط التالية :

أولاً ـ وجود الرغبة الكافية لديهم في السعي إلى استعادة هذه الحضارة . وأنت تعلم أن هذا شرط لبلوغ أي هدف من الأهداف ؛ فإن روح العمل ، أي عمل ، إنما تتمثل في الرغبة الصادقة في النهوض به . وبدون هذه الرغبة لا يمكن أن يعطي العمل شيئاً من ثماره المتوقعة ، وإن تجلت له صورة قائمة . وقد علمت أيضاً أن هذه الرغبة يجب أن تصطبغ بها الأمة كلها أو أغلبيتها العظمى . فلا قيمة لتلك الرغبة المتحرقة التي تجيش في صدور آحاد الناس ، قلوا أو كثروا .

وقد يخيل إليك أن هذه الرغبة موجودة ، وأن الحديث عن شرط وجودها تحصيل لحاصل . فمن من الناس ، على اختلافهم ، لا يرغب رغبة صادقة في أن يرى مجتمعه الذي يعيش فيه ، وقد استعاد شأنه ومكانته في الدنيا ، وتخلص من الآفات التي كان يعاني منها ؟..

غير أن هذه الرغبة إنما تتعلق في الحقيقة بالغايات والنتائج الأخيرة ؛ ولا تتجه ، إلا نادراً ، إلى ممارسة أسبابها وعواملها التي لا بد منها . فاشتراط هذه الرغبة ليس كما يتخيل بعضهم تحصيلاً لحاصل . بل هي مفقودة اليوم ، إلا عند قلة من الناس . وإنما يشغلهم عنها انصرافهم إلى أمانيهم وأهوائهم ، وتنافسهم على الرخيص من المتع والملذات العابرة .

ثانياً ـ القضاء على التجزؤ وأسبابه . وهذا الشرط يلي في الترتيب الوجودي الذي لا بدّ منه ، الشرط الأول مباشرة . ذلك لأن الجهد الحضاري إنما هو ـ كما قلنا ـ جهد جماعي ، لا يثمر إلا إذا كان كذلك . ومحال أن يتحقق العمل الجماعي إلا بعد انصهار الجماعة في وحدة حقيقية مترابطة ، يقيها من التشاكس الذي من شأنه أن يقضي على جدوى العمل الجماعي ، بل من شأنه أن يقضي على العمل ذاته .

إذن ، لا بدّ أن تبدأ الأمة الإسلامية (والأمة العربية أساس خطير فيها) سعيها لاستعادة مكانتها الحضارية ، بتجميع شتاتها ، والقضاء على أسباب التجزؤ المتغلغلة فيما بينها ، حتى تغدو متحدة منصهرة في كيان واحد .

ومن المعلوم أن التجزؤ من أهم الأسباب التي تكرس موجبات التخلف بشتى صورة وأنواعه . إذ هو السبب الذي يجعل الأمة تنهش من نفسها وتستهلك ذاتها . ويتمزق فيها العمر الثمين بدداً . ومن الواضح أن هذا التجزؤ يعيش في كياننا على شتى المستويات ، بدءاً من أضيق الدوائر ، وهو الأسرة ـ إلا ما رحم ربك ـ إلى أوسعها . وهو دائرة الأمة العربية التي هي جزء أصيل وخطير من الأمة الإسلامية الشاملة .

وعوامل هذا التجزؤ ، عديدة ورهيبة .. لا مجال في هذا الصدد للوقوف عندها بأي تفصيل .

ولكني أقول بكلمة جامعة : إن هذه العوامل ، لا تتسلل إلى الأمة إلا حيث تعاني من فراغ فكري وفقر إلى مجموعة المبادئ والقيم التي تغنيها بدراية سليمة مطمئنة عن

حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة . إذ إن من شأن أي جماعة تعـاني من مثل هـذا الفراغ ، أن تغدو هدفاً لمطـامع أولي الـدعوات الهـدامـة ، التي تصطنع المبـادئ والقيم ، لبلوغ أمانيها وأغراضها . فإذا تلك الجماعة بعد قليل أشتات متصارعة ومزق متنـاحرة . فما يمكن أن تتجمع فيها ، بعـدئـذ ، حصيلـة لعمل ، أو ثمرة لنشـاط ، إلا إذا أمكن أن يتجمع الماء مستقراً في قعر غربال .

ولكن إذا أمكن أن يُسدّ هـذا الفراغ في حيـاتهـا الفكريـة ، بقـاعـدة راسخـة من المبـادئ والمعتقـدات التي تشكل قـاسماً مشتركاً يؤمن بـه ويخضع لـه الجميـع ، فـإن هـذه القاعدة تصبح في حياتها كالميزان الذي يحتكم إليه الطرفان ، كلمـا اختلفـا على أمر ، فلا تدع شيئاً من الخلافات وأسبابها تصدّع بنيان الأمة أو تزهق وحدتهـا . بل يجب أن تعلم أن الوجود الحقيقي لهذا القاسم المشترك لا بد أن يصهر الآراء والاتجـاهـات المتخـالفـة ، حتى يقضي على آفـاتهـا ونـذر الشقـاق فيهـا ، بحيث لا يبقى منهـا إلا ذيول تغني الفكر وتشجع على البحث وتمد العقل بحرية الفكر والنظر . وهذا شيء مغنٍ ومفيد .

وهذه الحقيقة ، تلفت نظرنا إلى الضرورة الماسة ، للبحث عن المسلمات الأسـاسيـة في حياتنا الفكرية ، حتى إذا عثرنا عليها ، أقبلنا إلى تغـذيتهـا وتقويتهـا ، لكي يتشكل منها القاسم المشترك في نشاطاتنا الفكرية العامة ، وذلك من أجل أن تكون إليها الفيئة والاحتكام ، كلما اشتط بنا نقاش أو تمادى بيننا خلاف .

فماذا عسى أن تكون المسلّمات الأساسية في حياة هذه الأمة ؟

ليس بعد الحقائق التي أوضحنـاهـا من خلال فصول هـذا الكتـاب ، من مسلمـات يجدر الاتفاق عليها والالتفـاف حولهـا . ولا معنى للمنـاقشـة في كونهـا مسلّمات مفروغـاً منها . مادمنـا مجمعين على أننـا أمـة إسلاميـة ، أي أمـة يعـدّ الإسلام صبغتهـا الـدينيـة الشاملة .

وتتلخص هذه الحقائق في القرارات الهامة التي يدلي بها بيان الله عز وجل عن حقيقة كل من الإنسان ، وعمره الذي يتمتع به ، والمكونات التي تطوف من حوله . وهي تأتي بالضرورة والحكم المنطقي بعد اليقين بحقيقة أهم وأشمل منها كلها ، وهي حقيقة وجود الله عز وجل إلهاً واحداً ، مهيمناً على هذا الوجود الكوني كله ، مع اليقين بأن القرآن كلامه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وما من ريب في أن كل ما في الكون من حقائق ومبادئ ومصالح متنوعة ، إنما يدور في فلك هذه القرارات القرآنية الشاملة الكبرى . فهي تظل محيطة بها تابعة لها .

إذن ، تلك هي المسلمات الأساسية في حياتنا الفكرية . وتلك هي الخيوط الكبرى التي يجب أن يتكون منها نسيج القاسم المشترك في حياة هذه الأمة ، ما دامت تنشد عوداً حميداً إلى حضارتها الإسلامية التالدة . وبسرّ هذا القاسم المشترك لا بدّ أن ينهض بنيانها الوحدوي ، كما كان ، قوياً راسخاً متماسكاً .

وأحسب أن هذا الذي أقوله حق واضح بيّن ، لا يلحقه ريب ، ولا يعتريه غموض ، ولا يحتمل أي جدال .

ولكن أين هي هذه المسلمات ، في حياتنا الفكرية والاجتماعية القائمة اليوم ، وأين هو مكانها من مساعينا وتحركاتنا الوحدوية والحضارية ؟!..

حتى هذه المسلمات التي لا بد أن تتوفر لدينا ، قاعدة انطلاق ، وميزان تحكيم ، نختصم حولها ونتفرق تجاهها . فضلاً عن أن نقوم بالواجب الذي نتحدث عنه ، فنعطيها الأهمية والأولوية في نشاطاتنا التربوية وجهودنا الإعلامية !.. إذن ، إلى أي شيء نحتكم إذا اختلفنا ؟ وبأي حبل نستمسك إذا تجزأنا ؟..

لا بدّ أن يظل الشقاق والتفرق قائمين ، ما دامت هذه هي الحال . ولا بد أن يواصل الانشطار عمله في حياة هذه الأمة . بل لا بدّ أن يزداد الانشطار تعمقاً نحو الجذور . ذلك لأن أهم أسباب التفرق والانشطار قائم ماثل للعيان .

وكلنا يعلم أن هذا التجزؤ ، أو التفرق ، لا بد أن يتحول بالضرورة إلى خصام فعداء .. ثم إنه لا بد أن يقصينا عن نيل ثرواتنا والاستفادة منها مع أنها موجودة . ولا بد أن يبعدنا عن التمتع بقوتنا وهي متوافرة ، ولا بدّ أن يحرمنا من عطاء أراضينا وهي واسعة وكريمة . ولا بد أن يجعل العدو يستهين بنا ونحن كثير ، وأن يتجرأ علينا ونحن إذا اجتمعنا أشداء !..

والعجيب الذي يبكي قبل أن يضحك ، أنك تجد شعار الوحدة من أقدس الشعارات التي ترتفع فوق الرؤوس ، وينادى بها في كلّ بوق ؛ ثم لا يغذَّى هذا الشعار إلا بمزيد من أسباب التجزئة والانشطار !.. أما أساسه الذي يتكون من المسلمات الفكرية التي ذكرناها ، فلم يعد له من مكان في زحمة الأفكار والمذاهب والاتجاهات المتناقضة المتصارعة ، التي تظل تسخر من شعار الوحدة بأبلغ بيان !..

ألا فليعلم الحالمون بالوحدة ، المتغزلون بألفاظها وشعاراتها ، أن إقامة الوحدة ليست في حقيقتها إلا صنعاً لدائرة . ولا بدّ لرسم الدائرة من الارتكاز على نقطة المحور أولاً .

ضع المحور أولاً ، ثم انظر كيف يستدير الخط من حوله ، ليكوّن دائرة محكمة بأيسر جهد ومن أقرب سبيل . فأما إذا أهملت نقطة المحور ، فلسوف يعبث القلم بين أصابعك ، ولسوف تملأ بياض الورق خطوطاً هائمة متعرجة ، دون أن يستقيم لك من ذلك أي دائرة صحيحة .

وسبحان من علمنا كيف نضع المحور أولاً ، إذا أردنا أن نستجيب لأمره فلا نتفرق ولا نتجزأ !.. وسبحان من أنبأنا بأن المحور الجاذب لن يكون جاذباً إلا إذا كان احتكاماً إلى ربوبية الله وسلطانه ، وأوامره وإرشاداته . فقال عز وجل : ﴿ واعتَصِموا بِحَبلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقوا .. ﴾ [آل عمران : ١٠٣/٣] لم ينههم عن التفرق إلا بعد أن أمرهم بالاعتصام بحبله . أي إنه لم يأمرهم برسم الدائرة إلا بعد أن هداهم إلى نقطة المحور ..

أعود لأنفث دخان العجب المؤلم مرة أخرى ، وهو ملء صدري ، أعود فأقول : ومع كل هذا فإنك لتجد أناساً لا يريدون أن يعلموا إلى اليوم هذا القانون الطبيعي المنطقي الواضح !.. يثورون ويهيجون بحثاً عن الوحدة والتضامن ، في الوقت الذي يزرعون فيه الأرض تحت أقدامهم بمزيد من أسباب التجزؤ والتمزق !.. يبددون الطاقات التي تعيش تحت أبصارهم ، ثم يبكون عليها ويبحثون عنها على طول الصحاري والقفار الفاصلة بين الأقطار .



ثالثاً : الاستقرار النفسي والفكري :

ويتحقق قسم كبير من هذا الاستقرار ، عن طريق ترسيخ المسلمات الأساسية التي تحدثنا عنها ، كما يتحقق قدر كبير منه ، في ظل الوحدة التي من شأنها أن تأتي ثمرة لرسوخ تلك المسلمات .

غير أنه لا بدّ من عامل ثالث لتحقيق هذا الشرط على خير وجه .

وأوجز ما أستطيع أن أعبر به عن هذا العامل الثالث ، هو العمل الجادّ على قطع أسباب الاضطراب النفسي والفكري الذي يجتاح اليوم سواد هذه الأمة .

وفي يقيني أن عوامل هذا الاضطراب ، على اختلافها ، إنما ترسبت في حياة هذه الأمة ، من جراء اجتيازها منعطفاً فكرياً واجتماعياً خطيراً في حياتها الحضارية هذه . على أن بلاءنا العظيم لا يتمثل في نشأة هذه العوامل ذاتها ، ولكنه يتمثل في طول الفترة الزمنية التي استغرقها المرور في هذا المنعطف .

وإنها لفترة طويلة حقاً !..

لقد بدأت منذ أواخر عصر الخلافة العثمانية ، ثم استمرت إلى يومنا هذا !..

عمر طـويـل من الـدهر ، ونحن مبعثرون من خـلالـه في سجن هــذا المنعطف !.. تقطعت بنا السبل فيه عن الماضي . فما نملك اليوم شيئـاً من ذخره وفضـائلـه ، اللهم إلا الوصف والذكرى ، وتخلّفت بنا العثرات فيـه عن المستقبل ، فمـا يصلنـا بـه إلا الأحلام والأماني !...

وإليك بعضاً من أسباب تطاول هذه المـدة الزمنيـة التي استغرقهـا مرورنـافي هـذا المنعطف ، التي أفقدت هذه الأمة فرصة استقرارها النفسي والفكري معاً .

١ً ـ هرمت الخلافة العثمانية وأصابها الونى ، وتسلل إليها الفساد ، بمقدار ما كان لهـا قبل ذلك الحـظ الأوفر من القوة والصلاح والتماسـك . (وكان ذلـك كلـه تحت سلطـان القانون الرباني الذي فرغنـا من بيـانـه في الفصول السـابقـة) ثم انتثرت حطـامـاً بفعل عواصف القومية الطورانية التي اهتـاجت في داخلهـا ، والخطـط اليهوديـة المـاكرة التي أحاطت بها كخيوط العناكب من خارجها [(١)] .

٢ً ـ تسلـل المتســابقـون إلى المغنم .. من الــدول الكبرى التي كانت تتربص بنــا ، وراحوا يتقـاسمون فيما بينهم الميراث .. ميراث البلاد الإسلاميـة في هـذه المنطقـة ، كل يحتج لضرورة الحصول على مـا يسعى إليـه بـالجهـود التي بـذلهـا في سبيـل تحطيم طـوق الخلافة .. وبـالمزيـد من الحقن التي أثقل بهـا جسم « الرجل المريض » استعجـالاً لموتـه والقضاء عليه .

٣ً ـ نهضت الدول الأوروبيـة نهضتهـا ، ودخلت عصر « البخـار » الـذي يشبـه في يومنا هذا عصر « الفضـاء » وركبت من حيـاتهـا متن الـدرايـة والصنـاعـة ، فـانبهرت أبصارنا وعشيت عيوننا لمرأى هذه النهضة ، وكان من أهم أسباب ذلك الانبهار ، انحسـار أسباب القوة عن حياتنا ، واشتغالنا بحال « الرجل المريض » دفاعاً عنه أو تعجلاً بـه .. ثم انتثار عقد وحدتنا بين أيدي المقتسمين والناهبين .

---

(١) اقرأ مذكرات حاييم وايزمان لتقف على تفصيل هذا المجمل .

٤ ـ كان من آثار هذا الانبهار ، ذلك السعي التقليدي الأعمى وراء أوربا ، أملاً في بلوغ نهضة كنهضتها ، وتلمس الإصلاح من السبل ذاتها التي تلمسته منها أوربا .. وأخذنا نضع الإسلام في الميزان ذاته الذي وضعت فيه أوربا دينها .. كل ذلك بدافع من مركب النقص الذي حاق بنا ، والانبهار الذي عشيت له أبصارنا .

ولقد استغلت بريطانيا ، بالذات ، مركب النقص هذا ، فحاولت ـ وقد نجحت في محاولتها ـ أن تبث لهذا المركب فلسفة غرستها في أغوار نفوسنا ؛ إذ أوهمتنا أن أي نهضة إسلامية كالتي نهضتها أوربا ، لا تتم إلا من وراء ثورة إصلاحية في نطاق الأيديولوجيات والتصورات الدينية ، مهما اختلفت هذه الأديان بعضها عن بعض . وسرعان ما خدع بهذا الإيحاء كثير من العلماء والباحثين والمفكرين ، فوضعوا لبلادهم ، فيما زعموا ، برامج إصلاحات دينية وإسلامية ، كالتي وضعها أقطاب النهضة الأوربية وسرعان ما انتشر لهم ذكر ، وذاع لهم في الناس الثناء والمديح ، ورفع لهم الخادعون والمخططون ألقاباً مرضية رنانة ، فسُمُّوا بأقطاب الإصلاح الديني ، ونُعتوا بأنهم طليعة نهضة شاملة في البلاد العربية والإسلامية . كما قد كان زملاء لهم طليعة النهضة التي نهضتها أوربا .

فهذه العوامل ، التي أذكرها هنا مجملة ، زجت بالأمة العربية والإسلامية إلى المنعطف الذي أتحدث عنه ، والذي لا نزال نتعثر فيه إلى يومنا هذا !..

فلا نحن أبقينا صلاتنا المختلفة منسجمة مع الماضي ، تحت مظلة السنن الكونية للتطور ، وفي ميزان المنطق والعلم . ولا نحن حققنا شيئاً من أمنيات اللحاق بنهضة تشبه نهضة الآخرين . بل بقينا ، كما قلت ، نتهارج ونتخاصم ونضطرب في سجن هذا المنعطف الثقيل !..

وتأمل ، كيف ثارت الاضطرابات النفسية والفكرية ، ثم لم تهدأ ، من خلال هذه العوامل .

طرحت على أعقاب هذه العوامل ، آراء وشعارات متصارعة ومتناقضة .. بعضها يتنكر لكل ما هو منسوب إلى الماضي ، لمجرد أنه ماضٍ وقديم .. وبعضها يذهب إلى النقيض من ذلك ، فيحارب كل جديد لمجرد أنه عنوان تناقض مع القديم .. وآخرون من دونهم ينادون ، في تروّ وتدبر ، بالتمسك بالحقيقة وإن كانت قديمة ، والتقاط كل مفيد وصالح وإن كان وافداً جديداً .

هؤلاء وأولئك والآخرون ، لا يزالون يتصارعون .. يتصارعون في جو لا يكاد يسمح للعقل أن يهيمن ولا للفكر أن يتحرر . وإنما الذي يهيمن فيه هو النفس وحظوظها والأهواء وعصبياتها . فلا جرم أن يضيع في غمار ذلك صوت العقل والمنطق الصافي .

ومن النتائج الطبيعية أن ترتد انعكاسات هذا الصراع على مناهج التربية والتعليم ، وأن تتسابق أصداؤها إلى منابر الإرشاد والتوجيه ، فينتقل أواره بشكل أعظم عتواً وأكثر تشنجاً إلى الجيل الناشئ الجديد .

وهكذا يتلاقى الكبار المعلمون ، والصغار المتعلمون ، شيعاً وأحزاباً ، على حلبة من الصراع لا ينتهي ولا يثمر .. وقضايا المصير وسبل النهضة والتقدم خاوية من حولهم أو أمامهم ، تنتظر منهم أن يحزموا أمرهم للاتجاه إليها ، وبذل جهودهم المشتركة في سبيلها .

ففي هذا المناخ الذي وصفت ، يتبدد الإشراق الفكري ويزول الاستقرار النفسي ، ويذهب الفرد ضحية الغشاوات التي تتجمع على صفحة الذهن والعقل ، والاضطراب الذي يهتاج في أعماق النفس . (وأنت تعلم أن الأمة أو المجتمع ليس إلا الفرد المتكرر) فتتكاثف من ذلك الحجب بينه وبين سبل العلم والإبداع ، ويظل دائراً وسط قوقعة التقليد والتمزق والاتباع[1] .

فتلك هي أهم عوامل الاضطراب النفسي والفكري الذي ترسب في كيان هذه الأمة ، ثم لم يتخلّ عنه إلى هذا اليوم .

---

(١) انظر « من المسؤول عن تخلف المسلمين » للمؤلف ص ٤٥ ـ ٥٠ .

وسواء أكان التخلص من هذا الاضطراب يسيراً أم عسيراً ، فإن بقاءه يعدّ من أخطر المعوقات التي تصد عن سبيل التقدم الحقيقي ، هذا إلى أنه يجمد الطاقات كلها ، ويحبسها عن الانطلاق المتناسق المفيد .

غير أني لا أستطيع أن أجزم ، مع ذلك ، بأن التخلص من هذا الاضطراب وأسبابه أمر يسير ، إذا كانت الأمة الإسلامية ، وفي مقدمتها الأمة العربية ، راغبة ـ قادة وشعوباً ـ في تنفيذ هذه الشروط ، وإذا سارت في تنفيذها على هذا الترتيب ، أي إذا أقبلت على تحقيق هذا الشرط الثالث ، بعد فراغها من تنفيذ كلٍ من الشرطين السابقين .

وأما إذا كانت الأماني والأغراض الرخيصة ، هي شغلها الشاغل ، وهمّها المحرك ، فما أبعد ذلك اليوم الذي نتخلص فيه من سجن هذا المنعطف الثقيل الذي لا نزال نمرّ به ، وما أطول تقلبنا في أرجوحة الاضطرابات النفسية والفكرية التي تبدد الطاقات وتكثف غواشي الآلام والهموم على صدورنا ، وتصدنا عن أي تعاون على خير .

☆ ☆ ☆

رابعاً : تلاحم الثقة بين قطاعات الأمة ، وأقصد بقطاعاتها ما يشمل الحكام وسائر فئات الأمة على السواء .

ولا ريب أن قدراً كبيراً من عوامل تحقق هذا الشرط ، رهن بتحقق الشروط الثلاثة التي مر ذكرها . فبمقدار ما تنضج الرغبة لدى الأمة في السعي إلى استعادة أمجادها الحضارية ، وبمقدار ما تترسخ في كيانها مسلّماتها الفكرية الأساسية ، التي تتكفل باسترجاع وحدتها ، وبمقدار ما تحقق لنفسها الاستقرار الفكري والنفسي ـ أقول ، بمقدار ما يتحقق ذلك كله تتلاقى عوامل الثقة ما بين طبقات الأمة وفئاتها .

غير أنها بحاجة بعد ذلك إلى أن تتلمس عوامل أخرى لتحقيق المزيد من هذه الثقة ، لا سيما بين القادة والشعوب .

وخير برهان يبصرك بأهمية هذا الشرط ، أن تتأمل المصائب الاجتماعية التي تنشأ

من فقد هذه الثقة .. فسترى أنها أكثر المصائب التي ترزح فئات كبيرة من الأمة الإسلامية اليوم تحت ويلاتها .

وقد سبق أن أوضحت بأن المنجزات الحضارية ، إنما هي دائماً نتيجة جهود متناسقة مشتركة . ولم تكن في وقت من الأوقات ثمرات لجهود فردية أو جماعية متشاكسة . وهيهات أن يتحقق الجهد الجماعي ويعطي شيئاً من ثماره إلا إذا وحدت الثقة أجزاءه وألفت بين أشتاته .

وأزيدك إيضاحاً فأقول : إن الدخول في أي مشروع إنتاجي ، مهما كان نوعه ومهما بلغ اتساعه ، إنما يعتمد قبل كل شيء على رصيد من التفاعل والتعاون بين الأطراف والفئات كلها ، فلا يمكن له أن يأتي بأي نتيجة إيجابية ذات قيمة ، إذا ما كانت دعامة ذلك المشروع مكونة من جهود طرف واحد .

وأنا إنما أقصد بالتفاعل والتعاون ، ذلك الذي ينبسط على رقعة الأمة كلها . وإذن فلا قيمة لتعاون تنهض به فئة من الناس فيما بينها ، وسط أمة من الناس كثيرة ، مهما تنوعت اختصاصات تلك الفئة الواحدة ومهما اتسع سلطانها .

ذلك لأن مجرد اتصاف أفراد تلك الفئة بكونهم فئة ، مقابل فئات أخرى ، يفسد كل قيمة ذاتية لكثرتهم وقوتهم . قد تستطيع هذه الفئة وحدها أن تحكم وتسيطر ، ولكنها لا تستطيع أن تحقق بذلك وحدة الأمة أي تقدم أو ازدهار . إذ إن بين طبيعة هذين الأمرين فارقاً كبيراً :

الأمر الأول ، وهو القهر والاستيلاء ، لا يعتمد إلا على ما لدى تلك الفئة من عزيمة وقوة ودقة في التخطيط .

أما الأمر الثاني ، وهو تحقيق التقدم والازدهار ، فإنما يعتمد على استخراج أسباب القوة ومقومات التحرر والتقدم ، من جميع فئات الشعب وأفراده ، ثم ضفرها جميعاً وتوجيهها في طريق التطور والرقي .

نعم ، إن الأمر الأول ليس أكثر من لكمة تسدد إلى هدف . وإنما يكفي من أجلها قبضة يد واحدة أما الأمر الثاني فإنما هو كالتصفيق ، لا ينبعث صوته إلا باجتماع الكفين والتقائها ، في خِيرةٍ وحرية تامة ، على القيام بعمل مشترك[١] .

ومن أصدق ما عثرت عليه ، كلمة وردت في مذكرات السلطان عبد الحميد ، وهي قوله : « ولم يعرف قط ثائر استطاع أن يحقق في البناء ما حققه في الهدم .. »[٢] وإنما سبب ذلك ما قد أوضحته لك من الفرق بين طبيعة الأمرين .

إلا أن هذه الثقة ، لا يمتد نسيجها فيما بين هذه الفئات ، التي يجب أن يشيع فيما بينها التفاعل والتعاون ، إلا تحت مظلة حكم رشيد شفوق على مصالح الأمة ، تأتلف عليه القلوب ، وتطمئن إليه النفوس ، ثم يحظى من أسباب الاستقرار ودعائمه ، بما يجعل الناس في مأمن من تقلبات غير متوقعة ، وطفرات لم تكن في الحسبان .

ولا يمكن أن يقوم في المسلمين حكم من هذا القبيل ، إلا إذا اصطبغ الحكام بالحقائق القرآنية التي فرغنا من بيانها في فصول هذا الكتاب ، فتعرفوا على هوياتهم الإنسانية ، وأدركوا معنى الحياة الدنيوية التي يتمتعون بها وتنبهوا إلى مصدرها وعاقبتها ، ثم تبصروا بحقيقة الكون الذي يقوم من حولهم ، وبالعلاقة السارية ما بينه وبين الإنسان . فهذا هو الذي يجعل الشعوب تستيقن إخلاص أولئك الذين يقودون قافلة التطور والتحرير .. وتستشعر بأنهم يتحرقون فعلاً على أن يرتفعوا برعاياهم وشعوبهم إلى المستوى الأفضل .

فإن لم تقم هذه المظلة من الحكم الرشيد الشفوق ، شاعت الظنة بين الناس بدلاً من الثقة ، وانتشرت بينهم المخاوف بدلاً من أن يعم فيهم الأمن والتناصر ، فاختفت من جراء ذلك الطاقات ، وخمدت النشاطات ، وتبخرت عوامل الإبداع ، وتقوقع الناس

---

(١) المرجع السابق للمؤلف : ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ، تأليف محمد حرب عبد الحميد ص ٢٦ .

على أنفسهم ؛ هـذا إن لم يتربصوا بعضهم ببعض الـدوائر ، كما هو البـلاء المستشري اليـوم بين أكثر الناس .

وإني لأعلم أن كثيراً من أصحـاب الخبرات والاختصـاصـات العلميـة الـدقيقـة ، في بلادنا العربية ، قد فرغوا من وضع مشروعات دقيقة لإقامة مصـانع مختلفـة ذات أهميـة قصوى لهـذه الأمـة . ولكن مشروعـاتهم هـذه بقيت مـوضـوعـة على الرفـوف منـذ زمن طويل . ذلـك لأنهم التجـؤوا إلى أصحـاب الأمـوال والثروات كي يسـاعـدهم بـالنفقـات اللازمة ، مع تقديم الضمانات بـالربح السريع الوفير . فلم يجرؤ الأغنيـاء على المغـامرة .. ولم يطمئنوا إلى سلامة العاقبـة ..ولم يثقوا بنتيجـة هـذه المصـانع بعـد أن يستقر أمرهـا ويظهر نجاحهـا .. فبقيت الأموال دفينـة ونـامت المشروعـات الصنـاعيـة والعلميـة على الرفوف .

والخلاصة أن تبادل الثقة بين فئات الأمـة ، شرط أسـاسي لأي عمل جمـاعي تنهض به الأمة في سبيل استعادة مجدها الحضاري ، ولاتنبت هذه الثقة إلا حيث تظهر رائحـة إخـلاص النـاس بعضهم لبعض . ولا يـأتي الإخـلاص إلا بفضـل التبصرة القرآنيــة التي تحدثنا عنها إذ يصطبغ بها أغلبية الأمة ، إن لم نقل كلها ، يقيناً وسلوكاً .

☆ ☆ ☆

خامساً : استخـدام الطـاقـات التربويـة بكل عواملهـا وأدواتهـا ، لترسيخ المسلّمات الفكرية الأساسية التي تحدثنا عنها ، في تربية المجتمع الإسلامي . وذلك عن طريق بذل كل جهد تربوي وعلمي في سبيل أن ينقاد الناس ، على اختلافهم ، وبطواعيتهم ، لتلك المسلّمات .

وقد علمت أن ذلك يعني أن تتشبع الأمة بالبصيرة القرآنيـة التي تتجلى من خلالهـا حقائق هذا الكون ، ويتميز فيه الشراب الحقيقي من السراب الوهمي .

ولا أريـد أن أطيل الكلام هنـا عن الأجهزة التربويـة الكثيرة التي تمتلكهـا الأمـة الإسلامية اليوم ، تبعاً لغيرها من الأمم .. ولا أريـد أن أطنب في الحـديث عن الوجهـة الزائغة الهدامة التي تساق نحوها هـذه الأجهزة برمتهـا .. ولا أريـد أن ألفت نظرك إلى التناقضات الفكرية والصراعات النفسية الهـائجـة التي تنسحق فيما بينهـا طـاقـات هـذه الأمة سحقاً . فكل ذلك غدا من بدهيـات المصـائب ، وألف بـاء المـآسي والنكبـات التي أودت بهذه الأمة إلى شرّ منقلب ، وفصلته عن جذور مـاضيـه ، ثم لم تحقق لـه شيئـاً من أحلام مستقبله ، بل قذفت به إلى يمّ الضياع .

أجل .. فليس من حاجة إلى تكرار الحديث في شيء من هذه البدهيات .

ولكن يجب أن أوضح لمن ينشد لأمته ـ بجدّ وصدق ـ انبعـاثـاً جـديـداً لحضـارتها الإسلامية العظيمة ، أن المقومات « المادية » لعودة هذه الحضارة ، متوفرة في أيدي هذه الأمة ، بل تحت أقدامها أيضاً . بل إنها لتمتلك من هذه المقومات أكثر مما تمتلكه أي أمـة أخرى في هذا العصر .

ولكن علينـا أن نعلم أن هـذه المقـومـات « المـاديـة » التي نملكهـا ، مهما ازدادت وتضاعفت ، فإنها لن تشكل إلا عقبة في طريقنا الحضاري ، وجاذبـاً يشـدنـا إلى الخلف بل يجذبنا إلى القاع ، ما دامت العوامل والأجهزة التربوية لا تنهض بالوظيفة التي يجب أن تنهض بها ، وما دامت الشروط الأربعة التي تحدثنا عنها مركونةً على الرفوف بعيـدة عن النظر والاهتمام .

لا بدّ أن يتربى المسلمون الذين ملكهم الله مـا في بـاطن أرضهم من كنوز مـدخرة ، وما على ظاهرها من خيرات منتثرة (إن هم أرادوا حقاً عوداً حميداً إلى أمجادهم الحضارية الغابرة) على الكيفية الدقيقة التي يجب أن يتعاملوا مع الدنيا على أساسها ، فيعلموا متى يستهينون بها ومتى يتسابقون إليها ، وذلـك طبقـاً للحقـائق التي مر بيـانهـا في الفصول السابقة .. لا بـد أن يخرجوا غولهـا من عقولهم ، حتى تصحو أفكارهم إلى سبيل المحـافظـة

عليها ، ثم إلى سبيل استخدامها لتحقيق المبادئ والقيم العليا .. لا بد أن يربى هؤلاء المسلمون على دراية دقيقة بقيمة الحياة التي تخفق بين جوانحهم ، والعاقبة التي سيؤولون إليها بعد موتهم ، حتى يعلموا جيداً متى يستهينون بحياتهم ويضحون بها ، ومتى يتشبثون بها ويحافظون عليها ، دون أن يعوقهم عن تنفيذ ذلك أي عائق .

فإذا اصطبغت ألبابهم ووجداناتهم بهذه التربية ، فإن جزءاً يسيراً من ثرواتهم التي يملكونها ، يكفي ليتحول في أيديهم إلى أداة سحرية تبعث لهم دفينهم الحضاري ، في حياة جديدة تمتص من الجديد كل خيره وتلفظ منه كل شروره وسمومه ، وليعيد إليهم زمام القيادة في ركب هذه الحياة الإنسانية التي برمت بالشقاء الحضاري ، وطال ارتقابها دون جدوى لقيادة جديدة تمحض النصح ، وتخلص في الرعاية ، وتجعل من السياسة خادماً أميناً لمبادئ الإنسانية والحق ، بدلاً من الحال المنكسة اليوم ، وهي ما نراه من اتخاذ المبادئ الانسانية العليا أداة رخيصة في يد السياسة التي غدت اليوم هدف الأهداف ونهاية النهايات ..

وهذا الذي نقرره ، يعني بأسلوب آخر ، أن مفتاح النهضة العلمية والصناعية والانطلاقة الحضارية ، لا يتمثل كما يتوهم بعض السطحيين ، في علوم التكنولوجيا والمشاريع الاقتصادية المرسومة والتجهيزات الصناعية الضخمة .. بل ما أقرب أن تغدو هذه الأسباب أعباء وأثقالاً على كواهل أصحابها ، إن لم تنهض بدورها على قاعدة راسخة من المعارف الإنسانية الرشيدة ، لا تكتفي بالتغلغل في طوايا الفكر والعقل ، بل تتجاوزها إلى أعماق النفس والوجدان . ذلك لأن الوعي العلمي والتربوي هو الذي يحرك المصانع في طريقها الصحيحة ، ويدفع الجهود التقنية إلى النتائج المرضية ، ويحرس النشاطات الاقتصادية المختلفة أن لا تنحرف إلى سبل الخيانة والغلول .

ولكنا انتهينا إلى درك من التخلف والضحالة الفكرية ، بحيث أصبح كثير ممن يقودون الحركة الفكرية في هذه الأمة ، يتوهمون ويوهمون بأن كل ما عدا علوم التقنية

وأسبابها المباشرة ، من المعارف والعلوم الإسلامية ، تفاهات نظرية تقصي الأمة عن مجال التقدم والإنتاج !..

ولقد قرأت كلاماً عجيباً لكاتب متفلسف ، يسخر فيه من قول أحمد شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فهو يود ـ لولا خشيته من سوء التأويل ـ أن يعارض هذا الكلام بقول آخر ، هو : « إنما الأمم في يومنا التقنيات ما اطردت وتغلغلت ، فإن همو انعدمت علومهم وصناعتهم وتقنياتهم ، تخلفوا إلى حيث لا أمل ولا رجاء . اللهم إلا إذا فهمنا الأخلاق بمعنى يجعل منها أن أعرف كيف أضغط على الأزرار ومتى »[1] .

ولست أدري أي خشية من سوء التأويل ، بقيت بعد تصريحه بهذه المعارضة ، التي تردّ على شوقي وكل العقلاء الذين كانوا من قبله وجاؤوا من بعده ، إجماعهم على أن الأخلاق الفاضلة ، هي التربة الأساسية التي لا بد منها لنشأة مجتمع إنساني سليم ، وتقرر بدلاً منها أن الأخلاق الفاضلة ما ينبغي أن تفسر بشيء آخر غير العلوم التقنية ، ومعرفة كيفية الضغط على الأزرار لتشغيل المعامل والآلات !..

ثم إني لست أدري لماذا بدد هذا الكاتب إذن عمره في دراسة الفلسفة وقراءة التاريخ ، اللتين لن تكونا أقل سوءاً وضرراً على سير المصانع وحركة الإنتاج من الدراسات الأخلاقية ... وهلاّ وجه اختصاصه ونشاطاته العلمية بدلاً من ذلك إلى علم ضغط الأزرار لتشغيل المعامل والآلات ؟!..

ألا وليقل لنا الكاتب المفكر ، ما بال عشرات المصانع التي أنشئت في مختلف بقاع هذا العالم العربي ، لم تغن عن الأمة شيئاً ، وما بالها لم تقدم للقائمين عليها الضاغطين على أزرارها إلا الخيبة والخسران ؟..

---

(١) انظر كتاب « تجديد الفكر العربي » للدكتور زكي نجيب محمود ص ٢٣٩ .

وليقل لنا هذا الفيلسوف البديع ، إذا كانت التكنولوجيا تسدّ اليوم وحدها مسدّ القيم الأخلاقية ، وكل ما قد يغذيها من أصول التربية والتعليم ، فما بال المعاهد والجامعات التقنية ـ وهي في شرقنا العربي كثيرة ـ لا تغني عن أصحابها ولا عن الأمة شيئاً ؟.. وما بال أولئك الذين أتخموا بعلومها يسندون ظهورهم إلى الجدران ، دون أن تستفيد الأمة منهم شيئاً ، بل دون أن تفيدهم هي بدورها ـ في كثير من الأحيان ـ حتى بمقومات الحياة الإنسانية الكريمة ؟.. وما بال معظم هذه الأدمغة العلمية التقنية تهجّر من أوطانها ، إلى حيث تنتجع لنفسها لقمة عيش هنيئة ؟..

حقيقة ناصعة .. لا يمكن أن تغيب إلا عن بال ذي شذوذ في تفكيره ، أو ذي عصبية غلابة تحجبه عن رؤية البدهيات ، وهي أن الأخلاق وحدها هي التي تحي بين الإنسان وأخيه الإنسان آصرة التعاون الحقيقي البناء ، وهي التي تنقل الإنسان من ساحة العلم إلى نطاق العمل به ، ثم إلى اتباع الوجه الأسلم في الاستفادة من ذلك العمل . ومن ثم فإن من أهم أسباب التخلف الذي حاق بأمتنا العربية والإسلامية ، أنها لم تعد تملك أخلاقاً اجتماعية ينهض عليها بنيانها التقدمي والحضاري .

سمها إن شئت أخلاقاً اقتصادية أو أخلاقاً إنسانية ، فإن مضمون الكلمتين واحد . المهم أننا قد فقدنا المسمى أياً كان اسمه . وما كانت الأخلاق الفاضلة فاضلة في يوم ما ، إلا لأنها تحقق أهم شرطين لتبادل المنافع في المجتمع ، وهما : الثقة والتعاون . أما أولئك الذين يظلون يحملقون في كلمة « الخير » بحثاً عن حقيقة الخير في طواياها وتضاعيفها ، بمعزل عن الواقع الاجتماعي ، فمتهوسون في محراب الفلسفة الجوفاء ، ويوشك أن يتحرروا من هذا الهوس ، عندما تتخلى عنهم فلسفتهم هذه ليستعيدوا رشدهم وأسباب تفكيرهم السليم .

والخلاصة أنه لا بدّ من ضفر سائر المعارف الإنسانية وأصول الثقافات السليمة ، على أساس سويّ متناسق ، واتخاذها أساساً ومنطلقاً لمحاربة التخلف ، بشتى صوره وأنواعه .

ذلك لأن أي سعي من الإنسان نحو أي لون من ألوان التطور في سبيل عيشه وسعادته ، ثمرة طبيعية لمعرفة هويته وذاته ، من حيث هو فرد ، ومن حيث هو عضو في مجتمع . وكلما ازداد الإنسان دقة في هذه المعرفة ، ازداد علماً بما يحتاجه الإنسان ، وازداد تبصراً بأفضل السبل إلى تحقيق المزيد من أسباب سعادته ومقومات استقراره ورغد عيشه خلال رحلة هذه الحياة .

فكيف نكون دقيقين في معرفة هوياتنا ؟

لا بد لذلك من أن ندرس المقومات الذاتية لإنسانيتنا ، ثم أن ندرس طبيعة هذه الذات وخصائصها النفسية ، ثم أن نتعرف إلى متطلباتها الحقيقية ، في واقعها الفردي ، وتركيبها الاجتماعي ، بحيث نكون على بينة تامة من الفرق بين ما هو مفيد لها ومضر بها .

ولا يتم ذلك على خير وجه ، إلا باستعانة جادة وموضوعية بالتاريخ .. نستعرض فيه وقائع الأمم وحياة الشعوب وتجارب الدول .. ونطلع منه على نماذج للسعادة والشقاوة الإنسانية وعوامل كل منها وآثاره بالنسبة للفرد والجماعة .

وهذا أيضاً لا يتم بدوره ، إلا بدراسة جادة للسنن الكونية وقوانين الحياة وتطورها ، ولن تطلع على مكنون هذه السنن وقيمتها القانونية المبثوثة في المكونات ، إلا إذا تأملت في نبأ ما وراء المكونات ذاتها ، وفي مصدر هذه السنن والقوانين المهيمنة عليها ، ومدى علاقة العلم والعقل الإنساني بها .

سلسلة من الدراسات الإنسانية ، تنطلق بشكل حتمي من الأساس الأول الذي لا بد منه ، ألا وهو ضرورة معرفة الذات الإنسانية ، وخصائصها الفطرية والنفسية .. بدونها لا يمكن أن ينضج أي اندفاع سليم في كيان الإنسان نحو الرقي المنشود والتطور الذي نتحدث عنه ، وبدونها لا يملك الإنسان أي قاعدة صلبة يتخذ منها « أيديولوجية » صالحة يحصّن فيها منهاجه المرسوم للتطور والرقي .

وإنك لتعلم أن السعي إلى صبغ العقول والوجدانات الإنسانية بهذه المعارف المتضافرة ، هو الذي نعنيه بالتربية وأثرها الاجتماعي في هذا المضمار . وبدهي أن على الأجهزة والوسائل التربوية والإعلامية كلها أن تتجه متناسقة متعاونة في هذا المضمار .

☆ ☆ ☆

وبعد ، فأحسب أن هذه الشروط الخمسة ، هي كل ما تحتاج إليه أمتنا الإسلامية والعربية اليوم ، في طريقها إلى استعادة ماضيها الحضاري المشرق .

وإنما تتمثل روح هذه الشروط كلها في شرط واحد منها هي الرغبة .. الرغبة الجماعية المتضافرة . وإنما أعني بها ـ كما قلت ـ الرغبة في العمل ، لا الرغبة في أن تكون الأهداف هي المتحركة نحونا والساعية إلينا !..

وبكل يقين وتأكيد ، لسنا بحاجة ـ ما دامت هذه الشروط غير محققة في حياتنا الاجتماعية العامة ـ إلى أن نشغل وقتنا وتفكيرنا بالحديث عن شيء من جزئيات تلك العوامل والأسباب ، التي يلملمها كثير من الباحثين والمتناقشين كلما أرادوا أن يتساءلوا عن أسباب تخلف هذه الأمة ، وشروط نهضتها ؛ ولقد رأيت كيف جمعت منها تلك الكاتبة الألمانية « زيغريد هونكه » قائمة طريفة ، عندما سئلت عن سر تحجر الحضارة الإسلامية بعد ذلك الانبعاث الذي أدهش الناس .

ومرة ثانية ، بل ربما ثالثة ، أعود فأقول :

لا يقيسنّ إنسان زعم أنه مؤمن بالله ورسوله وكتابه إيماناً صادقاً ، لا يقيسنّ العالم الإسلامي على غرب ولا شرق ، ولا يقولن : فهاهم أولاء أناس لم يتقيدوا بشيء من هذه الشروط ، ولم ينالوا حظاً من البصيرة القرآنية التي حدثتنا عنها ، ومع ذلك فهم متقدمون متحضرون ، ينعمون بمقومات الحياة الرغيدة ويتحصنون منها بحصون المنعة والقوة والعز .

فإن من سنن الله في عباده ومكوناته ، أن تظل عمارة هذه الأرض قائمة على نهجها سائرة في درب تطورها ، إلى أن يحين الأجل المرسوم الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل .

ثم إنه ألزم نفسه ، في صريح بيانه المحكم ، أن يشرّف بعمارة هذه الأرض وقيادة شأنها عباده المسلمين ما كانوا مسلمين حقاً .. فإذا انحرفوا ، استلب منهم ذلك الشرف واستودعه عند غيرهم . وربما كان أولئك (الغير) شراً منهم . لا ضير .. فإن الله لا يوقف عمارة الدنيا وحركة الحياة من أجل عيون الذين ارتدوا على أعقابهم وانحرفوا عن منهج التشريف والتكريم ..

ومع ذلك ، فإن انتقال أزمة القيادة من المسلمين إلى غيرهم من القوى الغربية ليس في حقيقته نصراً لأولئك الآخرين ، ولكنه ـ كما سبق أن قلت ـ تسليط .. أي فهم ليسوا في الحقيقة أكثر من سياط تجردها الأقدار الإلهية على ظهور أولئك الذين كان لا بد أن يتلقوا التربية والتأديب من الله عز وجل ، لما قد فرط منهم .

ثم إني لأرجو يا قارئي الكريم ، ألا تكون ممن يقتطفون من الكتب التي يقبلون إليها ، مقدماتها وخواتيمها ثم ينبذون اللباب الذي بينهما ، فإن هذه الطريقة لا تغني القارئ ولا تنصف المقروء . بل عد إلى دراسة المنهج القرآني إلى إنشاء الحضارة الإنسانية المثلى في الفصول التي مرت من هذا الكتاب . لتجد حل كل مشكلة ، وبيان كل خافية . والحمد لله رب العالمين على إلهامه وتوفيقه ، في المبدأ والختام ...

محمد سعيد رمضان البوطي